

كتب غيرت العالم

روبرت ب. داونز

ترجمة أمين سلامة

كتب غيرت العالم

تأليف
روبرت ب. داونز

ترجمة
أمين سلامة



كتب غيرت العالم

روبرت ب. داونز

Books That Changed The World

Robert B. Downs

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٧٤٣ ٦

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩٥٦.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٧٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

الكتب أسلحة

أبدَت الكتب قوةً هائلةً من أجل الخير ومن أجل الشر طوال التاريخ المسجل للجنس البشري. هاك مناقشة فاحصة لستة عشر كتابًا من أهم مؤلَّفات جميع العصور، كان لها تأثيرٌ على التاريخ والاقتصاد والثقافة والمدنية والفكر العلمي، من عصر النهضة إلى يومنا هذا.

إنها كتب بالغة القوة، مثل: «نضالي Mein Kampf» لهتلر Hitler، ذلك الكتاب الذي تنبَّأ بالموت والدمار اللَّذَيْن أحدثتهما الحرب العالمية الثانية، وكتاب هارفي Harvey الشهير عن الدورة الدموية، الذي غيَّر النظرية الطبية والعلاج، ونظرية أينشتين Einstein عن النسبية التي بدأت العصر الذري. وصفت هذه الكتب وصفًا دقيقًا واضحًا في هذا الكتاب المثير السهل القراءة، ومؤلِّفه هو الدكتور داونز Dr. Downs الرئيس السابق للمكتبة الأمريكية ورئيس مكتبة جامعة إلينويز Illinois، يُبين بوضوحٍ ذلك النفوذ الحاسم والواسع الانتشار لهذه الكتب وكتب أخرى، منها عرض نيوتن Newton لاكتشاف قوانين الجاذبية التي صارت حجر الزاوية في النظرية العلمية اليوم. وكتاب داروين Darwin «أصل الأجناس»، الذي ظنَّ الكثيرون من رجال الكنيسة أنه يتعارض مع تعاليم التوراة ومؤلف هاربت بيتشرستو بعنوان «كابينة العم توم» الذي يعتبر أحد الأسباب الرئيسية في الحرب الأهلية الأمريكية. وتفسير فرويد للأحلام، ذلك المؤلَّف العظيم لرجلٍ أحدث انقلابًا في أفكار الرجل العصري عن نفسه.

وها نحن ذا نقدِّم هنا عرضًا مثيرًا لكتبٍ من عدة عصورٍ تُبين القوة الهائلة للكلمة المطبوعة وأثرها على التقدُّم البشري.

المقدمة

يقول وهمٌ شائع على نطاقٍ واسع إن الكتب جماداتٌ هادئة خاملة ليس لها تأثيرٌ، إنها خاصة بالأماكن الحبيسة والهدوء النظري للأديرة والجامعات وغيرها من أماكن الهروب من العالم المادي الشرير. وتبعًا لهذه الفكرة الغريبة الخطأ، تزخر الكتب بالنظريات غير العملية، وأهميتها تافهة لرجل الأعمال ذي الرأس الصلب.

حظي متوحش الغابة بفهمٍ أكثر واقعية وهو ينحني أمام الصفحة المطبوعة، لقوتها الخارقة على نقل الرسائل. وتتراكم الأدلة فوق الأدلة، طوال التاريخ، على أن الكتب بريئةٌ وعديمة الضرر وغير تافهة؛ فهي غالبًا ما تكون عظيمة الحركة وافرة الحيوية قادرة على تغيير مجرى الأحداث تغييرًا كليًّا — للخير أحيانًا وللشر أحيانًا أخرى.

لدى دكتاتوري كل عصر نظرةٌ داخلية حكيمة إلى القوة الهائلة للكتب. فكلما وأَيْنَما أرادت حكوماتُ الطغاة وذوي السلطان إيقاف المعارضات وقتل الآراء اتجه تفكيرها، دون استثناء تقريبًا، إلى إتلاف كتب الآراء المضادة، وفي أغلب الأحيان، إلى إهلاك مؤلفيها. غير أنه، على نقيض ذلك، التفت هؤلاء الطغاة إلى صالحهم، ففرضوا سيطرتهم على أولئك الناس، وعلى كتب بعينها، مثل كتاب هتلر «نضالي» وكتاب «رأس المال Das Capital» لكارل ماركس Karl Marx والكتابات الضخمة التي كتبها لينين Lenin وستالين Stalin. وما من أحد يُدرك، خيرًا من الطاغية نفسه، ضخامة القوة الناسفة الكامنة في الكتب.

وفي بعض المناسبات، تطبق هذه الفكرة في الأمم الديمقراطية، مثال ذلك، الإحساس المنتشر واسعًا بالصدمة وعدم التصديق بين أفراد الشعب الأمريكي وأصدقائهم في الخارج منذ بضع سنوات خلَتْ بأن إدارة حكومة الولايات المتحدة شغلت في مكتبات الاستعلامات بالخارج، في برنامج ضخم للرقابة على الكتب، وفي عدة أماكن أخرى بإحراق فعليٍّ للكتب.

فكان رد الفعل عنيفًا لدرجة أن الرئيس أيزنهاور Eisenhower نفسه تدخل في الأمر محاولًا تبرئة سُمعة الحكومة الأمريكية، فألقى خطابه المشهور «لا تنضم إلى حارقي الكتب». رأى الناس بغريزتهم، في كل مكان، أن الكتب ضروريةٌ وأساسية للثقافة والحضارة الحديثتين، كما كانت في القرون الماضية.

الغرض من هذا المؤلَّف هو توضيح القوة العاتية للكتب، عن طريق مناقشة أمثلةٍ معينة. فأولًا يجب التركيز على أنه ليس في نيتنا تقديم قائمة «بأحسن الكتب» أو «أعظم الكتب»، فإن عمل مثل هذه القوائم هوايةٌ محبوبة لتمضية الوقت لنقاد الأدب والمؤلفين والناشرين ورجال التعليم وأمناء المكتبات، الذين تنحصر توصياتهم في العلوم الأدبية. أما الهدف منه فهو اكتشاف الكتب التي كان لها أعظم أثر عميق على التاريخ والاقتصاد والثقافة والمدنية والفكر العلمي منذ عصر النهضة، تقريبًا، إلى منتصف القرن العشرين.

المشكلة في مثل هذا الأمر، هي بالطبع في الاختيار؛ تأتي إلى الذاكرة تلقائيًّا حفنةٌ من العناوين، فيتنوع الاختيار منها تنوعًا كبيرًا، ويُحذف معظمها عند استعمال العدد الواقع في الصف الأول؛ إذ لا بد أن يكون هذا الكتاب ذا وقعٍ عظيم مستمر على الفكر والعمل البشريين، ليس لأمةٍ واحدةٍ فحسب، وإنما لأعظم جزءٍ من العالم. وعندما يتعرَّض المرء لهذا الاختبار القاسي، يأخذ في حذف عنوانٍ بعد آخر.

لأسبابٍ عمليةٍ تقرر عرفيًّا حصر النقاش في كتب العلوم والمواد الاجتماعية، وحذف تلك المجالات الواسعة كالدين والفلسفة والأدب. وقد يحدث أن يكون تأثير الروائع الدينية والأدبية أقوى بكثير من تأثير بقية الأنواع مجتمعة، ولكن كيف يتسنَّى للمرء أن يعرف تأثير كتاب مثل ترجمة الملك جيمس James للتوراة؟ إن استخدام أي هدفٍ على مستوى غير موضوعيٍّ لا يتفق ومثل هذا المؤلف العجيب، أو أدب شكسبير Shakespeare وملتون Milton الذي يخلق عقبات كَأْدَاء، فوقعها على المجتمع شامل تمامًا؛ على اللغة والأدب والفلسفة وطرق التفكير والأخلاق، وكل وجهٍ من وجوه الحياة، لتكون بالغة الاتساع.

رغم هذا، هب أننا نضمن كتابنا: الدين والفلسفة قديمهما وحديثهما، إذن لصار لدينا عددٌ ضخم من الكتب: التوراة (ترجمة الملك جيمس ودواي Douay) والتلمود والقرآن والبوذية المقدسة والكتابات الهندوكية، وكونفشيوس Cofucius والفلاسفة الإغريق والقديس أوغسطين St. Augustine والقديس ثوماس أكوينوس St. Thomas Aquinus ومارتين لوثر Martin Luther وعمانوئيل كانت Immanuel Kant وكثير جدًّا

غير هذه الكتب. وإذا نظرنا إلى الكتب من ناحية تأثيرها وجدنا هناك مؤلفين أمريكيين هما: «العلم والصحة» تأليف ماري بيكر إدي Mary Baker Eddy وكتاب «المورمون Mormno» لجوزيف سميث Joseph Smith.[1]

وربما كان الأصعب من هذا هو اختيار أعظم ما في التراث الأدبي؛ الخيال والدراما والشعر والنثر، الذي حرك مشاعر العالم وإيحاءه. تخطر على البال مباشرة مثل هذه الأسماء لكتاب الإغريق والرومان الكلاسيكيين، ودانتي Dante وتشوسر Chaucer ورابليه Rabelais وسيرفانت Cervantes وموليير Molière وشكسبير Shakespeare وميلتون Milton وجوتيه Goethe وهين Heine ودستوفسكي Dostoevsky، وعشرات غير هؤلاء ممن ربما كانوا أقل مرتبة.

ومن الكتب ذات التأثير البالغ، كتب الرحلات، التي وسَّعت أفق الإنسان منذ عصر ماركو بولو Marko Polo وعملت على رحابة عالمه. فتح رحالة العصور الوسطى المنقطع النظير، ماركو بولو، في القرن الثالث عشر بلاد الشرق التي لم تكن أوروبا تعرف عنها شيئًا، وترك سجلًّا مثيرًا من مغامراته واكتشافاته. كذلك خطاب كريستوفر كولومبوس Christopher Columbus لسنة ١٤٩٣م الذي يصف فيه أولى رحلاته إلى أمريكا والذي تُرجم في الحال إلى عدة لغاتٍ مختلفة، وطُبع في شتَّى دول أوروبا. وبطبيعة الحال خلق إثارة ومتعة بالغتَيْن. وتلا هذين بفترةٍ قصيرةٍ أمريجو فيسيوتشي Amerigo Vespucci التي أوجبت تساؤلًا أكثر، وطبعت في سنة ١٥٠٧ بمعرفة مارتين والسيمونر Martin Waldseemüller في مؤلَّفه Cosmographiae Introductis «مقدمة أنظمة الكون». فأدَّى هذا المؤلف إلى تسمية الدنيا الجديدة باسم «أمريكا». وكان القرن الذي تلا ذلك أشهر حقبة للرحلات والاكتشافات في التاريخ المسجل، رأت فيضًا من أدب الرحلات المطبوع جمع معظمه ريتشارد هاكلويت Richard Hakluyt في أواخر القرن السادس عشر في مؤلَّفه الشهير Principal Navigations, Traffics and Discoveries of the English Nation.

كما جمع بعضه صموئيل بوركاس Samuel Purchas في مؤلَّفه Pilgrims.

وفي مجال الترحال، يجب ألَّا نغفل الكتب الخيالية البحتة، مثل كتاب «حول العالم في ثمانين يومًا» تأليف جول فيرن Jules Verne (١٨٧٢م)، ذلك الكتاب الذي أثار المخيلة

[1] المورمون مذهب نشأ في ولاية أوتاه بالولايات المتحدة الأمريكية، ينادي بتعدُّد الزوجات.

بما لم يثرها مثله أي كتاب غير خياليٍّ. وحديثًا جدًّا (١٩٤٣م) ألف وندل ويلكي Wendell Willkie كتاب «عالم واحد» فأسهم كثيرًا في منح مواطنيه نظرة خارجية دولية، ولعب دورًا في فكرة تنظيم «الأمم المتحدة».

من الممتع أن نلاحظ ونقارن بين المحاولات السابقة لحصر أسماء الكتب التي لها أعظم تأثير. وقد أعدَّ إدوارد ويكس Edward Weeks وجوهين ديوي Johen Dewey وتشارلز أ. بيرد Charles A. Beard في عام ١٩٣٥م لمجلة الناشرين Publisher's Weekly. فاختار كلٌّ من هؤلاء ٢٥ كتابًا صدرت منذ عام ١٨٨٥م كان لها في رأيه أعظم تأثير. تضم القائمة الأخيرة المختارة من هذه خمسين عنوانًا، كان أربعة منها فقط («رأس المال» لماركس، و«نظرة إلى الوراء» تأليف بيلاني Bellany، و«الغصن الذهبي» تأليف فريزر Frazer، و«تدهور الغرب» تأليف سبنجلر Spengel) اختيرَت بالإجماع، بينما نال ٢٩ عنوانًا صوتًا واحدًا فحسب. ومن بين الكتب التي نناقشها في هذا المؤلف للمدة التي اختاروها، ماكندر Mackinder، لم يذكره كلٌّ من ويكس وديوي وبيرد، بينما لم يختر كتاب هتلر سوى بيرد، وكتاب ماركس وحده هو الذي اختاره الجميع. ولا شك في أنه في فترة عشرين سنة، تقوم هيئة ممتازة من الحكام بإحداث تغييرات كبيرة، إذا استطاعت، اليوم أن تراجع، ما سبق أن اختارته.

بعد ذلك ببضع سنين (١٩٣٩م) قام مالكولم كاولي Malcolm Cowley وبرنارد سميث Bernard Smith بمحاولة تشبه هذه، لاختيار الكتب التي غيرت عقولنا، وبمعاونة فئة مختارة من رجال التعليم والمؤرخين والنقاد والمحاضرين ورجال الإعلان الأمريكيين، جاء ١٢ عنوانًا في رأس القائمة على أنها، في حكم هذه الفئة، أهمها في تشكيل العقل الأمريكي المعاصر، ولكنهم أوصوا بـ ١٣٤ كتابًا أخرى، فكان الاختيار النهائي:

- فرويد: «تفسير الأحلام».
- آدمز: «تعليم هنري آدمز».
- تيرنر: «الطليعة في التاريخ الأمريكي».
- «سمنر Sumner»: «طرق الشعب Folkways».
- فبلين Veblen: «مشروع العمل».
- ديوي Dewey: «دراسة في النظرية المنطقية».
- بواس Boas: «عقل الرجل البدائي».
- بيرد: «التفسير الاقتصادي للدستور».

- ريتشاردز: «مبادئ النقد الأدبي».
- بارنجتون Parrington: «التيارات الرئيسية في الفكر الأمريكي».
- لينين Lenin: «الدولة والثورة».
- سبنجلر: «تدهور الغرب».

ومن هذه الاثني عشر كتابًا رأى ويكس وديوي وبيرد اختيار مؤلفات فرويد وآدم وتيرنر وسبنجلر.

وقام الكاتب الإنجليزي هوراس شيب Horace Shipp بمحاولة أخرى لاختيار أعظم الكتب تأثيرًا ليستعملها في كتابه «كتب حركت العالم» (١٩٤٥م) دون تحديد للزمان أو المكان أو الموضوعات. فاستقر رأي شيب على اختيار عشرة كتب هي:

- التوراة.
- أفلاطون Plato: «الجمهورية».
- القديس أوجستين: «مدينة الله».
- «القرآن».
- دانتي: «الكوميديا الإلهية».
- «مسرحيات شكسبير».
- بنيان Bunyan: «تقدم الحج».
- ميلتون: «عضوية محكمة جنايات أثينا».
- داروين: «أصل الأجناس».
- ماركس: «رأس المال».

وبالنسبة للتحديد المفروض في دراستنا هذه نحذف كل هذه الكتب ما عدا الثلاثة الأخيرة من هذه العشرة، وفعلًا، لم يضم مؤلفنا غير الكتابين الأخيرين.

يتضح مما سبق أنه من الصعب جدًّا الإجماع على كتاب بعينه. والاختيار أمرٌ شخصيٌّ إلى درجة كبيرة وموضوعي جدًّا. والاتفاق التام على معظم الكتب المختارة غير محتمل، ومع ذلك نأمل في أن نكون قد وفَّينا كل كتاب حقَّه من الدراسة والتمحيص الدقيقَيْن. وكذلك فعلنا في مؤلفيها. ويجدر بنا أن نذكر بعض المؤلفات التي درست بعناية ودقة، ثم حذفت لسبب ما أو غيره.

فمثلًا يوجد بين الكتب الكلاسيكية للعلوم كتاب «مصنع جسم الإنسان De Corporis Humani Fabrica» (١٥٤٣م) للمؤلف أندرياس فياليوس Andreas Vesalius، جدير

بمكان في تاريخ الطب، على قدم المساواة مع مؤلف هارفي De Motu Cordis وتقف مؤلفات ليبنز Leibniz في الرياضيات والطبيعة في صف واحد مع «مبادئ الرياضيات Principia Mathematica» لإسحاق نيوتن. وفي العلوم الاجتماعية: كتاب «الطليعة في التاريخ الأمريكي» تأليف فردريك جاكسون ترنر Frederick Jackson Turner وهو مؤلفٌ لامع مستحدث يحظى في العالم بأهمية أقل في مجاله، من «المحور الجغرافي للتاريخ» تأليف ماكندر Mackinder وكان كتاب «الشيوعي البين» تأليف ماركس وإنجلز Marx and Engels قوةً محركةً للتغير الاجتماعي لمدةٍ تزيد على القرن، ولكنه أقل نضجًا وأقل عناية في مستنداته، وربما كان أقل نفوذًا في تلك المدة الطويلة من كتاب «رأس المال» لماركس. ويفضِّل بعض النقاد كتاب «جماعة الوالدين Walden»[٢] تأليف ثورو Thoreau على كتاب «العصيان المدني» ومع ذلك؛ فالأول أقل قوة في تأثيره. ومن الكتب المؤثرة الأخرى: «حياة واشنطون» (١٨٠٠م) تأليف بارسون ماسون لوك ويمس Parson Mason Locke Weems الذي ظل مدة ستة أجيال يساعد في توجيه الفكر والتراث الأمريكيَّيْن (ولا سيما في حالة أبراهام لنكولن Abraham Lincoln) وكتاب «سنتان أمام الصاري» (١٨٤٠م) تأليف ريتشارد هنري دانا، وهو منظومٌ شعرًا فعل الكثير في تحسين أحوال البحَّارة الأمريكيين في البحر، وكتاب «الأدغال» (١٩٠٦م) تأليف أبتون سنكلير Upton Sinclair الذي كشف أمورًا مؤسفةً في بورصة العقود بمدينة شيكاغو Chicago وأدى إلى إحداث إصلاح جذري. بيد أن هذه الكتب الثلاثة الأخيرة حكم عليها بأن نطاق تأثيرها محدود فلا يصحُّ أن تشملها دراستنا.

أشار علينا البعض، وربما كان ذلك عن سوء قصد رغم أن الكتب ذات أهمية تستحق الدرس، أشاروا علينا بأن نُضمِّن مؤلَّفنا «كتاب الطهو لمدرسة الطهو بمدينة بوسطون Boston» تأليف فاني فارمر Fanni Farmer وكتاب «الإتيكيت» تأليف إميلي بوست Emily Post، وكتاب «السلوك الجنسي لكلٍّ من الذكر والأنثى من البشر» تأليف الدكتور ألفريد كنسي Alfred Kinsey.

من بين الستة عشر كتابًا التي تضمها القائمة النهائية ستة مؤلَّفات تدخل في باب العلوم إبَّان المدة من ١٥٤٣ إلى ١٩١٥م، وعشرة كتب في المواد الاجتماعية في المدة من ١٥٢٣–١٩٢٧م. ولا شكَّ في أن هذا التصنيف عن غير قصدٍ إذ كان الوقع الاجتماعي

[٢] جماعة مسيحية شديدة التمسُّك بتعاليم الإنجيل.

للمؤلفات العلمية تامًّا وعميقًا كالمؤلفات المذكورة في كتب المواد الاجتماعية نفسها. وكتاب «كابينة العم توم» لمسز ستو، رغم صورته الخيالية، جدير في كل ناحية بأن يكون حجةً اجتماعية.

عندما يستعرض المرء هذه الستة عشر كتابًا، المحملة بالحركة، يطرأ على بالنا دائمًا هذا السؤال: هل عملت العصور الكتاب أم أن العكس صحيح؟ أي هل كان كتاب معين ذا نفوذ بسبب أن الزمن كان مستعدًّا له؟ هل يمكن أن تكون لهذا الكتاب نفس الأهمية في عصر آخر، أو هل يمكن أن يكتب في أي تاريخ آخر؟ وإنه ليتعذَّر الهروب من استنتاج أن الأزمنة أنتجت الكتاب، في كل ناحيةٍ تقريبًا إلا أنه ما كان بالإمكان أن يؤلف هذا الكتاب في أي عصرٍ تاريخي آخر أو أنه إذا ظهر فما كان ليحظى بمثل هذا الاهتمام.

بين أيدينا كثيرٌ من الأمثلة؛ فقد وضع ماكيافيلي Machiavelli كتاب «الأمير» لتحرير وطنه الحبيب إيطاليا من الاعتداء الأجنبي. كانت إنجلترا على استعدادٍ لتوسيع اقتصادها التجاري والصناعي إلى أقصى حدودٍ تستطيعها، عندما كان آدم سميث يؤلف كتاب «ثروات الأمم». كما أن كتاب «الإدراك العام» لمؤلِّفه ثوماس بين، قد أشعل نار الثورة الأمريكية التي كانت ناضجةً للانفجار في أي وقت. كذلك فعل كتاب «كابينة العم توم» تأليف هاريت بيتشر ستو للحرب الأهلية. ولولا الأحوال القاسية السائدة في الصناعة الأوروبية ولا سيما نظام المصانع الإنجليزية في منتصف القرن التاسع عشر، لنقصت ذخيرة كارل ماركس لتأليف كتابه «رأس المال».

أوحى كتاب «أثر القوة البحرية على التاريخ» تأليف أمير البحر ماهان Mahan بتكوين تجانس بحري بين القوى العالمية بعد عام ١٨٩٠م. غير أن ضغط مغامرة التوسع والاستعمار، كان موجودًا من قبل. ولولا الفوضى التي سادت ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى، لبقي هتلر مبيض بيوت نمساوي غير معروف.

ومن ناحية أخرى، وكما هي الحال في الكبسولات البطيئة المفعول، هناك كتب لم تحدث تأثيرها الكامل إلا بعد سنوات من نشرها. فمثلًا كان آدم سميث وكارل ماركس في عداد الأموات عندما أدرك العالم أهمية كتابيهما. ومضى نصف قرنٍ على موت ثورو عندما طبق المهاتما غاندي في الهند وجنوب أفريقيا، مذهبه الداعي إلى العصيان المدني. ولولا قيام المدرسة الألمانية لسياسة التوسع الجغرافي، ما لقيَت نظريات ماكندر التي صاغها قبل ذلك بعشرات السنين، ما لقيَت الاهتمام الذي تستحقه. وهذه أسماء بعض رُوَّاد المفكرين الذين عرفوا الفشل في أوائل مؤلَّفاتهم، وقيام تلك المؤلَّفات باستجداء القراء.

يتردد في القطاع الخلفي من الذهن سؤال عندما يتأمل المرء قائمة الكتب المختارة، ألا وهو: كيف يمكن قياس التأثير؟ وكما سبق أن قلنا، كان الهدف هو اختيار الكتب التي يمكن الحكم على آثارها بمصطلحات النتائج الثابتة أو الأفعال. أي إنها يجب أن تكون قد مارست علاقة مباشرة بتيارات أحداث معينة. وكثيرًا ما حاول كتابٌ ما إيجاد حل لبعض المشاكل في مجال محدد في فترة معينة. ولما كانت أمثال هذه الكتب تتناول أمورًا زمنية وموضوعية، فإنها تميل إلى أن يجري عليها القدم بسرعة أكثر مما يجري على الكتب الدينية أو كتب الفلسفة أو الأدب.

والمقياس القريب الصحيح لمدى التأثير هو قوة العاطفة المعاصرة الميَّالة إلى تلك الكتب أو المعارضة لها. فإذا أثار كتابٌ ما معارضة عنيفة وشعورًا مماثلًا من التأييد لوجهة نظره، فالاحتمالات أنه قد أثر تأثيرًا عميقًا على تفكير الناس. كما أن الرقابة الرسمية والجهود الأخرى المناوئة، إيجابية في مفعولها. والنظرة الداخلية إلى مثل هذه الانفعالات تمدنا بها بعض المصادر مثل الصحف المعاصرة ونشرات الأدب الجدلي ومذكرات المؤرخين والدراسات البيوجرافية. والاختبار القاسي هو ما إذا كانت النظريات أو البرامج أو الأفكار والمدافعون عنها، تحظى بالقبول نهائيًّا أو لا تحظى به، وهل تعبر الحدود الدولية وتترجم إلى اللغات الأخرى وتعمل على خلق التلاميذ والأنصار والمحاكين والمنافسين، وتندمج تدريجيًّا في حياة الناس والأمم وفي أفكارهم.

من مظاهر الشهرة الغريبة تكوين صفات ومصادر صناعية من الأعلام لوصف فكرة معينة أو نموذج معين أو رأي بعينه وهكذا تضاف هذه الكلمات والمصطلحات إلى مجموعة الألفاظ اليومية، مثل: الماكيافيلية Machiavillian والكوبرنيكية Copernician، والمالثوزية Malthusian والنيوتونية Newtonian، والفرويدية Freudian، والداروينية Darwinian، والماركسية Marxism، والهتلرية Hitlerism، ليدل كلٌّ منها على مجموعةٍ معينةٍ من الأفكار ويقرِّر شهرة بعض الفضائح في نموذجه الأصلي، وهذا يتوقَّف على وجهة النظر.

وبالنظر إلى الصعوبة القصوى في إمكان قراءة معظم عناوين قائمة الاختيار يمكن السؤال عن هذا الأمر بطريقة معقولة منطقية: كيف يمكن لهذه المؤلَّفات أن تُحدث تأثيرًا على أي فردٍ عدا عددًا محدودًا من الأخصائيين؟ وبالطبع، يستطيع نفرٌ قليل من العوام أن يفهم ويتابع بسهولةٍ أصول النصوص اللاتينية لمؤلف كوبرنيكوس أو هارفي أو نيوتن، أو نظريات أينشتين بأية لغة. بينما لا أحد غير العالم الاجتماعي المدرب، يستطيع أن يستوعب

تمامًا البراهين الملتوية، في أغلب الأحوال، لمؤلفات آدم سميث أو مالثوس أو ماركس. أما علم الأحياء فيقوى فهم مؤلف لهافي أو داروين أو فرويد. ونجيب على ذلك السؤال بقولنا إن سواد الناس يحصلون على أفكارٍ سبق هضمها بواسطة عملية تمحيص عن طريق وسيلة ما مثل الثقافة الشعبية في صورة كتبٍ أو مجلات أو صحف أو دروس مدرسية أو محاضرات عامة، وحديثًا عن طريق الراديو والتليفزيون والسينما. ولولا الإدراك العام ما لقيَ أي كتاب من الستة عشر كتابًا المختارة إقبالًا في عصره أكثر من «كابينة العم توم» و«نضالي». وبناءً على ذلك نتج تأثيرها من تفسير الخبراء. وكثيرًا ما يحدث التطبيق العملي في الحياة اليومية دون معرفةٍ واعيةٍ من الناس عمومًا، مثال ذلك، اكتشافات نيوتن الميكانيكية، أو نظريات أينشتين، فيما يختصُّ بتفتيت الذرة والطاقة الذرية.

عندما يستعرض المرء الستة عشر كتابًا بحسب ترتيبها التاريخي، يدهش لاستمرار العلوم والمعارف — حلقة الاتصال التي تربطها معًا. حقيقةً، لقد عبر من هذا هتشنز Hutchins بقوله: يوجد هنا تقدم «المحادثة العظمى». وقد أخذ كوبرنيكوس الإيحاء من قدامى فلاسفة الإغريق، ونيوتن بدوره، «وقف على أكتاف العمالقة» — كوبرنيكوس وجاليليو Galileo وكبلر Kepler وغيرهم. وبدونهم ما كان لأينشتين أن يوجد إطلاقًا. أما داروين فقد أعلن في صراحةٍ أنه مدينٌ إلى عددٍ كبيرٍ من علماء الأحياء والجغرافيا والجيولوجيا، بنى على مؤلَّفاتهم نظريته عن أصل الأجناس هذا، وإن استخدام معمل التجارب في العلوم، على نقيض البرهنة الفلسفية البحتة، يمكن أن يُقال إنه بدأ بكوبرنيكوس، ومارسه جميع عظماء من جاءوا بعده، ومنهم هارفي ونيوتن وداروين وفرويد.

إن الولع بالحرية، الذي هو طبيعةٌ لازمَت الإنسان طول حياته، ليتمثَّل في الاحتمالات المثيرة لكلٍّ من ماكيافيلي وآدم سميث وبين وثورو وستو. ونسج كارل ماركس بشدةٍ على منوال علماء الاقتصاد الإنجليز الكلاسيكيين، وخصوصًا آدم سميث ومالثوس وريكاردو Ricardo وحاول تكوين مؤلفه على غرار مؤلف داروين. وكان مؤلف ماهان الذي عنوانه «أثر القوة البحرية على التاريخ»، في الأصل، مؤلفًا ثانويًّا اتخذ مصادره مما كتبه قدامى المؤرخين البحريين والحربيين والعموميين.

وعلى الرغم من أن ماكندر، ومن بعده ساسة التوسع الجغرافي، لم يوافقوا على استنتاجات ماهان، فإنهم وجدوا أفكاره مثيرةً ومؤثرة. وقد اقتبس هتلر في كتابه «نضالي» كثيرًا من ماكيافيلي وداروين وماركس وماهان وماكندر وفرويد، سواءٌ كان هذا الاقتباس بوعي منه أو عن غير قصدٍ.

يمكن إضافة بعض تعليقات معينة على الكتب المختارة وعلى مؤلفيها. هل تحاشى هؤلاء الميول الطبيعية القاضية بأن يؤثر كلٌّ منهم وطنه أو لغته، مثلًا؟ من المحتمل أن يكون الجواب بالنفي. تضمُّ القائمة أربعة أمريكيين هم: بين وثورو وستو وماهان، وستة بريطانيين هم: هارفي ونيوتن وسميث ومالثوس وداروين وماكندر. كما أن هناك ثلاثةً من الألمانيين هم: ماركس وأينشتين وهتلر، وواحدًا إيطاليًّا هو ماكيافيلي وآخر بولنديًّا هو كوبرنيكوس وثالثًا نمساويًّا هو فرويد. ومن بين المؤلِّفين الستة الأوروبيين (من القارة نفسها غير البريطانيين) ثلاثة يهود. وإذا كان واضع هذه القائمة أحد الصينيين أو الفرنسيين أو الروس، فلا شك في حدوث تحيز ما في اتجاهاتٍ أخرى.

هناك نقطة أخرى جديرة بالنقد، وهي تعريف الكتاب: ما هو الكتاب؟ وهل يمكن الحكم عليه بحجمه وحده؟ هذه فكرة خيالية، ومع ذلك فلو راعينا الدقة في التعريف فإن «الإدراك العام» لبين و«العصيان المدني» لثورو و«المحور الجغرافي للتاريخ» لماكندر والحقيقة الأصلية لنظرية أينشتين الخاصة عن النسبية، ليسَت أكثرَ من نشرات. والواقع أن الثلاثة الكتب الأخيرة، ظهرَت أول ما ظهرَت كمقالاتٍ دورية. فيا له من تناقضٍ بين هذه وبين المجلدات الضخمة، أمثال «مبادئ الرياضيات» و«ثروة الأمم» والطبعات الأخيرة من كتب مالثوس عن السكان، ورأس المال، ونضالي. وقد ذكر أن فولتير Voltaire قال إنه ما حدث قط أن ألهبت الكتب الكبيرة حماس أمة. «إن الكتب الصغيرة دائمًا، المحشوة بالعواطف والتي تتأجج حماسًا هي التي تقوم بالعمل.» وفعلًا، تنطبق هذه العبارة على بين وثورو ولا تنطبق على ماكندر ولا أينشتين. والواقع أن الحجم ليس بذي بالٍ لأجل هذه القائمة الحالية.

والزمن الذي يقضيه المؤلف في تأليف الكتاب أمر جدير بالاعتبار. ومن الجلي أن كوبرنيكوس قد ضرب الرقم القياسي في هذا المضمار إذ استغرق أكثر من ثلاثين عامًا في تأليف كتابه De Revolutionibus ولو أنه لم يشغل نفسه باستمرار في تأليفه. ومن منا يودُّ أن يقول إن الرسالات الكوبرنيكية مؤلفات أكثر عمقًا من «مبادئ الرياضيات لنيوتن»، التي أتمها في مدة ١٨ شهرًا؟ وبمصادفة غريبة استغرق تأليف كلٍّ من «ثروة الأمم» لآدم سميث، و«أصل الأجناس» لداروين، و«رأس المال» لماركس سبعة عشر عامًا. ومن ناحيةٍ أخرى، خرج كتاب «الأمير» لماكيافيلي في ستة شهور، و«الإدراك العام» لبين في حوالي ثلاثة أو أربعة أشهر.

يمكننا أن نعزو الاختلاف السابق بين مدد التأليف إلى عدة عوامل؛ فاختلاف شخصية كل مؤلف عن شخصية الآخر مسئولة عن بعض هذه الاختلافات. وقد رفض بعض علماء

الطبيعة أمثال كوبرنيكوس ونيوتن وهارفي وداروين الإسراع في طباعة مؤلَّفاتهم حتى يتحققوا تمامًا من صحة اكتشافاتهم واختبارها اختبارًا قاسيًا. وحتى بعد أدق الاختبارات القاسية ترددوا في نشرها خوفًا من المجادلات والرقابة القوية لزملائهم العلماء، ومقتهم عرضها على الجماهير، أو ما شابه ذلك من الأسباب. وقد تضمنت مقالات سميث وماركس الاقتصادية ضياع الوقت وتجميع كميات كبيرة من المعلومات، والمراجعة الضخمة، ومن جهة أخرى كان لدى المؤلفين المتهوِّرين، أمثال ماكيافيلي ومالثوس الشاب وبين ولمورو رسالات عاجلة يجب إصدارها دون تأخير.

الغالبية العظمى من الستة عشر مؤلفًا المختارين معروف عنهم أن كلًّا منهم وضع كتابًا واحدًا فحسب. وباستثناء قلة قليلة، ترتكز شهرة الباقين على عنوانٍ واحد مع إهمال ما عداه. كتب هارفي ونيوتن وسميث مالثوس وماركس وستو وماهان وأينشتين كتبًا أخرى — وفي بعض الأحوال، كان بعضهم كثير التصانيف، ولكن من يمكنه أن يذكر أسماءها سوى قلة من الأخصائيين؟ أما بين وثورو وداروين وفرويد فيستثنون من هذه القاعدة لأن أقلامهم الخصبة أنتجت كتبًا أخرى اشتهرت بطريقةٍ ما كما اشتهرت هنا في قائمتنا.

قد تستطيع بعض المذكرات البيوجرافية إبداء مظاهر أخرى لأخلاق المؤلفين وشخصياتهم. فهل للمركز الزواجي مثلًا أثرٌ هامٌّ في خلق مؤلف رائع يَبُذُّ كل ما عداه؟

كان كوبرنيكوس راهبًا، كما لم يتزوج كلٌّ من نيوتن وسميث وثورو وهتلر. وتزوج كلٌّ من هارفي وماهان وماكندر وبين ولكنهم لم ينجبوا أطفالًا. وباء زواج بين مرتين بكارثة في كل مرة. وكان لمالثوس ثلاثة أولاد، كما كان لأينشتين طفلان. تزوج مالثوس مرة واحدة وأينشتين مرتين. ولم يكن كلٌّ من ماكيافيلي وداروين وستو وماركس وفرويد أزواجًا مخلصين فحسب، بل وأنجبوا أسرات كبيرة. بيد أن المرء يتردد أخيرًا في استخلاص أية حقائق من هذه الأمور.

قد يظن البعض أن السن وبلوغ الرشد ضروريان لمؤلف كتاب عظيم. وما صلة هذين الأمرين، حقًّا، بالستة عشر مؤلفًا المختارين؟ عندما خرجت الطبعة الأولى لكلٍّ من هؤلاء، من المطبعة، كان أكبرهم سنًّا هو كوبرنيكوس؛ إذ كان في السبعين، وأصغرهم أينشتين الذي كان في حوالي السادسة والعشرين. وكان مالثوس وثورو في أوليات الثلاثينيات. أما بين وهتلر فكانا في أواخر الثلاثينيات. كانت فترة السنوات العشر ما بين ٤٤–٥٤ هي أخصب فترات العمر إنتاجًا؛ إذ كان في هذه المرحلة كلٌّ من المؤلفين، ماكيافيلي وفرويد ونيوتن وماركس وماهان وداروين وهارفي وسميث (في ترتيب تصاعدي أي من الأصغر إلى الأكبر). وكان كلٌّ من ستو وماكندر في أوائل الأربعينيات.

وخلاصة هذا، هناك خصائص معينة يشترك فيها معظم المؤلفين، تبدو واضحةً. وباستثناء علماء الطبيعة الذين تضمهم القائمة. والذين يكون التعليق أقل مناسبة لهم. فالكتب التي تضمها القائمة، كتبها أشخاص غير تابعين للكنيسة، وأشخاص متطرفون ومتعصبون لدينهم، وثوريون ومثيرون للاضطرابات. وغالبًا ما تكون كتب هؤلاء رديئة التأليف تعوزها المسحة الأدبية. ونعود فنكرر قولنا بأن سرَّ نجاحهم هو أن الزمن كان ملائمًا وعلى استعدادٍ لهم. حملت كتبهم رسالات، كانت في أغلب الأحوال كثيرة العاطفية، يتوسَّلون فيها إلى ملايين البشر. وفي بعض الأحيان كان النفوذ للخير، كما كان أحيانًا أخرى للشر. ومن الجلي أن الكتب يمكن أن تكون قوى لكل من الخير والشر. وعلى أية حال، ليس الغرض هنا قياس القيم الأخلاقية؛ بل لتوضيح أن الكتب أدوات أو أسلحة حركية وقوية.

عالم الإنسان

الفصل الأول

تشريح سياسة القوي

نيقولو ماكيافيلي – الأمير

ظلت الماكيافيلية لمدة تزيد على الأربعة قرون عالقةً في ذهن العالم على أنها مرادفةٌ لشيء شيطانيٍّ وخائن ونذل وقاسٍ وخبيث. كان أبو هذا المصطلح، نيقولو ماكيافيلي، رمزًا شهيرًا للسياسي المتآمر والمكَّار والمنافق المجرد من الأخلاق والعديم المبدأ تمامًا والمستهتر، الذي تنحصر كل فلسفته في أن «النهاية تخلق الوسيلة». وقد اعتقد العالم أجمع أن أرقى قانون لماكيافيلي هو الملاءمة السياسية. وفي إنجلترا القرن السابع عشر، كان «أولد نيك» Old Nick كنية متبادلة بين كلٍّ من ماكيافيلي والشيطان. أما من دفاع لهذا المتهم أم أن هناك ظروفًا مخففة؟

تعتمد شهرة ماكيافيلي السيئة، اعتمادًا كليًّا تقريبًا، على كتاب واحد هو «الأمير» الذي كتبه في سنة ١٥١٣م، ولكنه لم ينشر إلا في سنة ١٥٣٢م بعد وفاة مؤلفه بخمسة أعوام. ما من كتابٍ يمكن أن ينفصل عن العصر الذي كتب فيه، هذه حقيقة لا يمكن توضيحها توضيحًا مناسبًا بأكثر مما يوضحها كتاب «الأمير». ومع ذلك، فهو ككل كتاب عظيم، يضم دروسًا لجميع العصور.

لا نعرف سوى القليل عن حياة ماكيافيلي قبل عام ١٤٩٨م عندما كان في التاسعة والعشرين من عمره وزيرًا لجمهورية فلورنسة Florence خدم حكومة هذه المدينة لمدة ١٨ سنة، وذهبت به المهام الدبلوماسية إلى توسكاني Tuscany ثم عبر جبال أبنين Apennine إلى روما، وبعد ذلك إلى ما وراء جبال الألب Alps وتعرَّف على الكونتيسة كاترينا سفورز Caterina Sforza وباندولفو بتروتشي Pandolfo Petrucci طاغية سينا Siena

وفرديناند الأرجوني Ferdinand of Aragon ولويس Louis الثاني عشر ملك فرنسا، والإمبراطور ماكسيميليان Maximilian والبابا يوليوس Julius الثاني، وسيزار بورجيا Cesare Borgia لم يكفِ التشاحن السياسي بين فلورنسة ودويلات المدن الأخرى بيزا Pisa وميلان Milan ونابولي Naples، بل ظل قائمًا لا ينقطع. وكانت السياسة في ذلك العصر فاسدةً بطريقةٍ لا تصدَّق. وكان ماكيافيلي، الطالب الداهية في دراسة الطبيعة البشرية، في حداثة عهده بالسياسة، وفي عدة مناسباتٍ أبدى مقدرةً ومهارةً في إنجاز المفاوضات الصعبة. وبعد ذلك بنى واقعيته وسخريته من الأمور السياسية، دون ما شك، على المران؛ لأنه تعلَّم ألَّا يكترثَ لأي باعثٍ غير الجشع والأنانية.

أصاب ماكيافيلي دورة في عجلة الحظ على يد إسبانيا؛ فقد أطاح الميديكليون Medicis بالجمهورية واستعادوا حكمهم في فلورنسة. ففصل ماكيافيلي وسُجن وعُذب، وأخيرًا نُفي إلى ضيعته الريفية الصغيرة بالقرب من سان كاسيانو San Casciano حيث بقي محدد الإقامة حتى موته في سنة ١٥٢٧م، باستثناء فتراتٍ قصار. فكان يقضي وقته خلال تلك السنين الطويلة (في نظره) الخاملة، في تأليف كتب «الأمير» و«المحادثات» و«فن الحرب» و«تاريخ فلورنسة» وتتناول كلها، بصفةٍ مبدئية، السياسة القديمة والمعاصرة.

من الصعب اكتشاف أية عاطفة في طبيعة ماكيافيلي فيما يختصُّ بالشئون العامة، ولكنه كان يحسُّ بتأثُّرٍ عميقٍ تجاه أمرٍ واحد. كان وطنيًّا أصيلًا مع شوقٍ حماسيٍّ لأن يرى إيطاليا دولة قوية متحدة. وربما كان ملاحظًا باردًا وموسوسًا، ورجلًا ماجنًا صافي العقل، حتى ناقش الوحدة الإيطالية، ثم أوحى إليه بالحماس والفصاحة والحرارة والحيوية. وقد كانت حال إيطاليا في أوائل القرن السادس عشر في بؤس شديد يثير أشجان أي شخص وطني إلى درجة البكاء.

كان هناك تغير هائل؛ سياسي واقتصادي ولاهوتي في طريقه إلى إيطاليا أيام ماكيافيلي. وفي كل مكان بإنجلترا وفرنسا وإسبانيا، بعد نضال مرير طويل حدثت الوحدة القومية. أما في إيطاليا، فإن فكرة التنظيم القومي أو الفيدرالي، لم تكن معروفة. حكمت تلك الدولة خمس وحدات سياسية عظمى هي: ميلان وفلورنسة والبندقية Venice ودولة الكنيسة ونابولي. وكانت البندقية أكبرها وأقواها. فكان تعدد الأقسام السياسية مصدر ضعف مستمر لإيطاليا، ومن الناحية العملية، أدى إلى الدسائس الأجنبية والتدخل الأجنبي. بدأت الغزوات بواسطة شارل الثامن ملك فرنسا في عام ١٨٩٤م، وبعد بضع سنوات من تقهقره، اتفق لويس السابع وفرديناند، ملك أراجون على اقتسام مملكة نابولي فيما

بينهما. وأرسل الإمبراطور ماكسيميليان قواته لغزو البندقية. كما كانت جيوش من ألمانيا وسويسرا وفرنسا وإسبانيا تسير في الأراضي الإيطالية وتحارب عليها.

وفي تلك الأثناء كانت المعارك الخاصة والضغائن الشعبية والسرقات والقتل متفشية في البلاد وحاربت جمهورية جمهورية أخرى، كل منهما تغار من الأخرى، وعجزت الجمهوريات تمامًا عن تكوين جبهة عامة في مواجهة الأعداء الأجانب. ولما كانت الكنيسة في أسوأ فترة في تاريخها، وتخشى قيام منافس لقوتها الدنيوية، فإنها فضلت التفرق على الاتحاد لإيطاليا.

ربما أدرك ماكيافيلي الخطر الذي يهدِّد إيطاليا، أدركه بوضوح أكثر مما أدركه أي رجل آخر في عصره. كان يفكر في مقر تقاعده الإجباري، وفي الشرور التي نزلت بوطنه الحبيب، فاقتنع بأن الأمل الوحيد في الخلاص يكمن في وجود قائدٍ عظيم — قائد بالغ القوة والجرأة يفرض سيطرته على الدويلات الإيطالية ويدمجها في أمة واحدة قادرة على الدفاع عن نفسها وطرد الأجانب الممقوتين من البلاد. أين يمكن العثور على مثل هذا القائد؟ كان «الأمير» هو فكرة ماكيافيلي عن نوع القائد المطلوب، وصورة تفصيلية للطريق الذي يجب عليه أن يتبعه لتحقيق النجاح.

رغم أن «الأمير» مكرس إلى لورنزودي ميديكي Lorenzo de Mcedici حاكم فلورنسة الجديد، فإن بطل الكتاب هو سيزار بورجيا Cesare Borgia ابن البابا ألكسندر السادس، وكاردينال في السابعة عشرة، وقائد حربي قدير، وهازم رومانيا ودكتاتور قاسٍ لا يعرف الرحمة. أرسل ماكيافيلي رسولًا إلى بلاطه في سنة ١٥٠٢م، وكما علَّق نيفنز Nevins: «رأى بإعجابٍ كيف تبادل بورجيا استخدام الحذر والدهاء، في مهارة، وكذلك الألفاظ المعسولة والأعمال الدموية. وكيف استخدم ببرودٍ الغدر والنفاق. وكيف استعمل الإرهاب في وحشيةٍ لاستمرار إخضاع من دحرهم، وكيف يقبض بطغيان على البلاد التي يحتلها.»

وإذا مارس سيزار ازدواج الشخصية والقسوة وعدم الثقة، نال النجاح الباهر، ولكنه كان نجاحًا مؤقتًا. كان ماكيافيلي وطنيًّا غيورًا يميل إلى النظام الجمهوري، ولكنه لما اختبر حال إيطاليا الثائرة والمؤسفة اقتنع بأن رجلًا مثل سيزار بورجيا هو القائد المثالي لإنهاء حالة الفوضى تلك.

وهكذا أوحَت إليه نظرته إلى أمةٍ موحدة، بالحماس الوطني. وإذ كان عالمًا باحتياجات الساعة الحرجة وواعيًا للفرصة الذهبية الماثلة أمام الحاكم الجديد، وجه كل نشاطه وحماسه إلى تأليف «الأمير» فكتبه في الشهور الستة الأخيرة من عام ١٥١٣م، وبعد ذلك

بوقتٍ ما، قدَّمه إلى بلاط لورنزو مع إهداء المؤلف: «لما رأيت أنه ليس في المقدور تقديمُ هديةٍ أفضل من إسداء فرصة الفهم في أقصر وقت، فإنني أقدِّم كل ما تعلمته في تلك السنين العديدة وسط الكثير من المتاعب والأخطار.»

الهدف الأساسي من «الأمير» هو أن صالح الدولة يحقق كل شيء. وهناك عدة مستويات مختلفة من الأخلاق في الحياة العامة والحياة الخاصة، إذن فمن اللائق بالسياسي، تبعًا لهذا المذهب، أن يقوم من أجل صالح الشعب بأعمال العنف والخداع التي تستحق اللوم وتوصف بالإجرام في المعاملات الخاصة؛ ولذلك فصل ماكيافيلي الأخلاق عن السياسة.

«الأمير» كتاب مرشد للأمراء (أو كما قال البعض إنه كتاب ضروري للطغاة) ليعلمهم كيف يحصلون على السلطة ويحتفظون بها — سلطة ليست لصالح الحاكم وإنما هي لخير الشعب كي يزودهم بحكومة مستقرةٍ آمنة من الثورة والغزو. فبأية وسائل يمكن الحصول على الاستقرار والأمان؟

وبغض النظر، قليلًا، عن الملكيات الوراثية لافتراض أن للحاكم سداد رأي وذكاء عاديين، فيمكنه الاحتفاظ بالسيطرة على الحكومة، ومن جهة أخرى، فإن مشكلة الملكية الجديدة مشكلة معقدة. فإذا كانت الأراضي المهزومة حديثًا من نفس جنسية ولغة الدولة الغالبة فالحكم سهل نسبيًّا، وخصوصًا إذا اتُّبع مبدآن: «أحدهما استئصال دم سلسلة نسب الأمراء السابقين، والثاني عدم إحداث أي تغيير في القوانين أو في الضرائب».

«أما إذا احتلَّت الأمم دولةً تختلف لغتها وعاداتها وقوانينها عن لغة وعادات وقوانين الأمم المضمومة، فالصعوبات تتضاعف ويقتضي التغلُّب عليها حظًّا وإدارة عظيمين.» ويستطرد ماكيافيلي قائلًا إن من الوسائل الممكنة للسيطرة عليها، أن يذهب الحاكم ويسكن شخصيًّا في المنطقة المحتلة، ويُرسل إليها مراكز استعمار (أقل نفقات من الاحتفاظ بجيوش الاحتلال)، وأن يصادق الجيران الأضعف، ويحاول إضعاف الجيران الأقوى. وعندما أهمل لويس الثاني عشر هذه القواعد الأساسية مُني بالهزيمة والخسائر في غزواته.

وفيما يختص «بكيفية حكم الأقسام الإدارية»، يقدم ماكيافيلي ثلاث طرق يمكن بها السيطرة على دويلةٍ اعتادَت «أن تعيش بحسب قوانينها وفي حرية؛ الأولى تدميرها، والثانية الذهاب إليها والإقامة فيها شخصيًّا، والثالثة قبول أن تعيش تبعًا لقوانينها وإرغامها على دفع الجزية، وأن يعهد بحكومتها إلى فئة قليلة من سكانها يمكنهم المحافظة على صداقة الباقين لك.» وأكثر هذه الاختبارات أمنًا هي الطريقتان الأوليان.

ورغم هذا، فإذا اعتادت مدينة أو محافظة احتلَّت حديثًا أن تعيش تحت حكم أمير استؤصلت ذريته، فمن المستحيل على المواطنين الذين تعوَّدوا أولًا أن يطيعوا، وثانيًا جردوا

من حاكمهم القديم، أن يوافقوا على اختيار حاكم من بينهم. وبما أنهم لا يعرفون كيف يعيشون أحرارًا، يبطئون في التسلح، وهكذا فمن السهل على شخص أجنبي أن يطويهم تحت سلطانه ويضمهم إلى صالحه.

وإذا ناقش ماكيافيلي، بعد ذلك «الإمارات الجديدة»، فإنه حذر يقول: «يجب أن يوضع نصب العين أن طباع الجماهير متقلبة، وبينما يكون من السهل إغراؤهم على قبول شيء، فإنه يصعب جعلهم يثبتون على ذلك الإغراء؛ لذلك يجب تنظيم الأمور هكذا. إذا لم يؤمن الناس طوعًا، وجب إجبارهم على الإيمان بالقوة.»

بعد ذلك يشرع المؤلف في تقريظ وتمجيد حياة سيزار بورجيا على أنه القائد القوي الفذ البأس، معتذرًا عن الغدر والاغتيال.

«عندما أتذكر جميع أعمال الدوق، لا أعرف كيف ألومه، ولكن، بدلًا من ذلك، يبدو لي ... أنه يجب عليَّ أن أقدمه نموذجًا يحاكيه جميع من يرفعهم الحظ أو تسمو بهم أهداف غيرهم إلى منصب الحكم؛ لأنه، إذا كان ذا روحٍ عالية وطموح بعيد المدى، ما كان لينظم سلوكه بطريقة أخرى ... ولذلك يجب على من يعتبر أنه من الضروري له أن يثبت نفسه في دويلته الجديدة، أن يعمل على كسب الأصدقاء، وأن يتغلَّب إما بالقوة وإما بالغش، وأن يجعل نفسه محبوبًا ومرهوبًا من الناس، وأن يجعل الجنود يسيرون وراءه ويحترمونه، ويستأصل شأفة كل من كان ذا قوةٍ أو عقلٍ يمكِّنانه من إلحاق الأذى به، وأن يغير النظام القديم بأنظمةٍ جديدة، وأن يكون قاسيًا وخيِّرًا وسامي العقل وحرًّا، ويحطم العسكرية غير الوفية، ويخلق عسكرية جديدة، ويحافظ على صداقة الملوك والأمراء بطريقةٍ تحتم عليهم مساعدته في حماس، والإساءة مع الحذر، ولا يمكنهم أن يجدوا مثالًا أكثر حيويةً من أعمال هذا الرجل.»

أما من اغتصب دويلة، «فيجب عليه الإسراع بإنزال الأضرار التي يجب عليه إنزالها بضربةٍ واحدة، لئلا يضطر إلى تجديدِها يوميًّا، وإنما يتمكَّن بعدم استمرارها من طمأنة عقول الناس، وبعد ذلك يكسبهم إلى جانبه بالمنافع ... يجب منحُ المنافع قليلًا قليلًا حتى يمكن التمتع بها كاملة.»

ليس خوف العقاب إلا إحدى الوسائل التي يستعملها الملك الحكيم في حكم رعاياه.

من الضروري للأمير أن يكونَ على صلة صداقةٍ بشعبه، وإلا لما وجد أي مصدرٍ للمساعدة في وقت الشدة ... ولا يذكرن لي أحدٌ المثل القديم: «من يبن على الشعب يبن على الرمال.» لأن هذا المثل ينطبق على المواطن الخاص الذي يعتمد على مصالحه مع الشعب

ويعمل حسابه على أن ينصروه إذا هزمه أعداؤه أو الحكام. أما الأمير الجريء القادر على الأمر، والذي يعرف كيف يحافظ على النظام في دويلته، فلن يندم قط على تأسيسه أمنه على محبة الشعب.

وفي تناوله للإمارات الكنسية، أي التي تحت حكم الكنيسة مباشرة، خصها ببعض من أكثر ملاحظاته إيذاءً وتهكمًا.

تنال هذه الإمارات بالأحقية أو بحسن الحظ ويحتفظ بها بدون أي واحدٍ منهما، ويُسيطر عليها بأوامر دينية محترمة، كلها من النوع والأثر اللذَيْن يضمنان سلطة أمرائهما بأية طريقةٍ يعملون أو يعيشون بها. إن هؤلاء الأمراء وحدهم لهم دويلات لا يُدافعون عنها ورعايا لا يحكمونهم.

يتهم ماكيافيلي الكنيسة هنا وفي كل موضعٍ مما كتبه في بداية القرن السادس عشر؛ بأنها لم توحد إيطاليا ضد الأجنبي كان يريد فصل الكنيسة تمامًا عن الحكومة.

ولما كانت الحكومة القوية تحتاج إلى جيشٍ عظيم فقد اعتبر ماكيافيلي الشئون الحربية على أقصى ما يكون من الأهمية، وخصَّص مساحةً واسعة لهذا الموضوع. وقد اعتادَت معظم الدويلات الإيطالية في عصره أن تستخدم الجنود المرتزقة، ومعظمهم من الأجانب، للدفاع عنها. فقرر ماكيافيلي أن مثل هذه القوات «عديمة النفع وخطرة» وأن الجيش القومي المكون من المواطنين أكثر فاعلية ويعتمد عليه أكثر من المرتزقة. ولما كان البقاء القومي يتوقَّف على قوة الجيش، وجب على الأمير الحاكم أن يعتبر الأمور العسكرية المادة الأولى لسياسته وشغله الشاغل.

كرس ماكيافيلي عدة أبواب من مؤلَّفه لسلوك الأمراء — سلوكهم الخاص في مختلف الظروف.

هناك اختلافٌ كبيرٌ بين الطريقة التي يعيش بها الناس والطريقة التي يجب أن يعيشوا بها. ومن الضروري للأمير الذي يريد المحافظة على مركزه أن يتعلَّم كيف يتَّصف بشيءٍ آخر غير الطيبة، وأن يستعمل طيبته أو لا يستعملها حسب مقتضيات الأحوال … يعترف كل من أعرفه بأنه يجدر بالأمير أن يكون موهوبًا جميع الصفات المعتبرة حميدة، ولكن بما أنه من المستحيل أن يتصف بكل هذه الصفات جميعًا … يجب عليه أن يكون حاذقًا بما فيه الكفاية بحيث يعرف كيف يتحاشى مثالب تلك الرذائل التي يمكن أن تجرِّده من الحكم.

يجب على الأمير ألَّا يهتم بأن يشيع عنه البخل وهو ينفق ما يخصه وما يخص رعاياه أو ما يخصُّ الآخرين … يجب أن تنفق بسخاء مما لا يخصك أو يخص رعاياك … لأن حرية

التصرُّف في ملكية الغير (التي يحصل عليها بالغزو) لا تنقص من سمعتك بل تزيدها؛ وأن ما يضرُّك هو أن تنفق مما يخصك. وما من صفة مدمرة مثل حرية الإنفاق. فعندما تمارسها تفقد الوسيلة التي تمارسها بها وتصير فقيرًا محتقرًا، وإلا فلكي تتحاشى الفقر تغدو جشعًا وممقوتًا.

يجب أن يعتبر الأمير القسوة إحدى وسائل الاحتفاظ باتحاد الرعايا وطاعتهم «لأن من يقمع الفتن ببضعة إجراءاتٍ فوريةٍ يكن في النهاية أكثرَ رحمة ممن تبلغ به الطيبة أن يترك الأمور تجري في أعنَّتها، فينتج عن ذلك الاغتصاب وسفك الدماء؛ لأن هذه تُفسد الدولة، كما تفسد القسوة الأفراد.»

يقول ماكيافيلي في فقرة شهيرة:

«من هنا ينشأ هذا السؤال: هل الأفضل أن يحب المرء أكثر مما يخاف، أو يخاف أفضل مما يحب؟ قد تكون الإجابة أننا نرغب في كليهما، ولكن بما أن الحب والخوف قلَّما يجتمعان معًا، فإذا وجب علينا أن نختار بينهما، فمن الأكثر أمنًا أن نُخاف أفضل من أن نُحب؛ إذ نؤكد عمومًا أن الناس ناكرون للجميل ومتقلِّبون وخائنون ويعملون كل ما في طاقتهم لتجنُّب الخطر، وجشعون يتكالبون على الربح، يقفون إلى جانبك طالما كان في وسعك أن تُغدق عليهم المنافع، وعلى استعدادٍ للتضحية بدمائهم إذا كان الخطر بعيدًا كما يضحون بممتلكاتهم وحياتهم وأولادهم من أجلك، حتى إذا ما جاء وقت الجد أداروا لك ظهورهم.»

هذه سخريةٌ بحتة، ولو أن ماكيافيلي يستنتج تقديره للمحبة في مقابلة الخوف، فينصح الأمير بأن «يعمل قصارى جهده لتحاشي الكراهية.»

ما من قسمٍ من كتاب «الأمير» أُدين واحتُقر أكثر من الباب الثامن عشر: «كيف يحتفظ الأمراء بالثقة؟». وتنصبُّ مساوئ استخدام المصطلح «ماكيافيلية» على هذا القسم أكثر مما تنصبُّ على بقية الكتاب كله. ويوافق المؤلف على أن المحافظة على الثقة جديرةٌ بالثناء. أما الخداع والنفاق وشهادة الزور فضروريةٌ ومغتفرةٌ من أجل الاحتفاظ بالقوة السياسية.

هناك طريقتان للنضال؛ إحداهما بحسب القوانين، والأخرى باستخدام القوة. الأولى مناسبة للبشر، والثانية للوحوش، ولكن بما أن الطريقة الأولى كثيرًا ما تكون غير فعَّالة، فيقتضي الأمر الالتجاء إلى الثانية. وعلى الأمير أن يفهم جيدًا كيف يستعمل كلتا الطريقتين؛ طريقة البشر وطريقة الوحوش ... ولكن بما أنه يجب عليه أيضًا أن يعرف كيف يستخدم طبيعة الوحوش في حكمة، ينبغي له أن يختار من بين الوحوش الأسد والثعلب؛ لأن الأسد

لا يستطيع أن يحمي نفسه من الشراك، والثعلب لا يمكنه حماية نفسه من الذئاب ... وأن أكثر الأمراء حزمًا، لا يمكنه ولا ينبغي له أن يحافظ على كلامه، عندما يكون في المحافظة عليه ضررٌ له عندما تزول الأسباب التي ألجأته إلى الوعد. ليست هذه مشورة طيبة عندما يكون جميع الناس من الأخيار، ولكن بما أنهم خائنون ولا يثقون بك، وجب عليك، أنت بدورك، ألَّا تثق بهم وما من أميرٍ حار في التفكير في أعذارٍ مقبولة لتغطية عدم التمسُّك بوعده ... غير أن الناس يَظَلون ساذجين ومحكومين باحتياجاتهم الحالية، حتى إن من يرغب في خداعهم لا يخفق في العثور على «مغفلين» راغبين ... وهكذا من الخير التظاهر بالرحمة والثقة والإنسانية والتقوى والاستقامة، وتكون هكذا أيضًا، ولكن يجب أن يبقى العقل متزنًا حتى إذا اقتضى الأمر صار في مقدورك وتعرف كيف تتحوَّل إلى العكس بسرعة ... يرى كل شخص ما تظهر عليه، ويعرف القليلون ما أنت عليه.

نصح ماكيافيلي بأنه من الضروري للأمير أن يتحاشى كراهية شعبه احتقارهم له. والطريقتان الرئيسيتان اللتان تسببان كراهية الناس له هما: نهب أموال الشعب، والتدخُّل في ممتلكات رعاياه ونسائهم ... ويحتقر الأمير إذا رُؤِي متقلبًا أو متهورًا أو مخنثًا أو جادًّا أو مترددًا. وزيادة على ذلك، يجب على الحكام أن يشهروا أنفسهم بتوزيع الهدايا بأنفسهم، ويتركوا لرؤساء الأقسام مسئولية توقيع العقاب، وعلى العموم يتركون لهم أيضًا حرية التصرُّف العام في كل ما يُثير الحنق وعدم الرضا ... لا تستطيع حتى أمنع الحصون أن تحمي الأمير إذا كرهه الشعب.

أكد ماكيافيلي عند إسداء التعليمات للأمير في «كيفية سلوكه»، على أنه ...

يجب على الأمير أن يبدو رئيسًا قديرًا، وأن يكرم كل من تفوَّق في أي فن؛ لذلك ينبغي له أن يشجِّع رعاياه ويمكنهم من مزاولة مهنهم، سواء أكانت تجاريةً أم زراعيةً أم غير ذلك، في اطمئنان، حتى إن ذلك الرجل لا يمنع من تجميل ممتلكاته خوفًا من أن تُؤخذ منه وألَّا يحجم آخر عن افتتاح محلٍّ تجاري خوفًا من الضرائب.

أعجب ماكيافيلي كثيرًا بذكريات روما القديمة وخصوصًا النصيحة المسداة إلى الأمير: «يجب عليه في المواسم المناسبة من السنة، أن يبهج الشعب بالحفلات والعروض.»

كان ماكيافيلي شديد الإيمان بالحظ والمصير، وربما كان ذلك وليد التفكير في اعتقاد أهل عصره في «التنجيم»، فكتب يقول: «أظن الحال هكذا، أن ربة الحظ سيدةُ نصفِ أعمالنا، وتترك لنا، نحن أنفسنا، تدبير النصف الآخر أو أقل من النصف قليلًا.» كانت وجهة نظره معتدلة الخطر؛ إذ كان يعتقد أن بوسع الإنسان أن يسيطر، بعض الشيء، على

مصيره، وأنه «من الأفضل أن يكون جسورًا، من أن يكون حذرًا؛ فالحظ امرأة، يجب عليك، لكي تخضعها، أن تضربها وتعاملها بخشونة، وترى أنها تقاسي رؤية نفسها محكومة تمامًا بواسطة من يعاملونها أكثر ممن يعتريهم الجبن عند الاتصال بها. ودائمًا، كامرأة، تؤثر الصغار لأنهم أقل تدقيقًا وأكثر قسوة، ويسيطرون عليها بجرأة أعظم.»

يختم كتاب «الأمير» بنصيحة لتحرير إيطاليا، إنها نداء رنَّان للوطنية. حان الوقت لأمير جديد بطل إيطالي ما، أن يتقدم لإيطاليا في «حالة انحطاطها الراهن» الأكثر عبودية من العبرية، والأكثر معاناة للظلم من الفارسية، والأكثر تفككًا من الأثينية، بغير قائد وبغير نظام، مهزومة ومنهوبة وممزقة، وطئت وتركت للدمار في شتى صوره ... نراها كيف تتضرَّع إلى الله أن يرسل شخصًا ينقذها من هذه القسوة البربرية والظلم. كما نراها مستعدةً ومتلهفة إلى أن تتبع أي علم إذا كان هناك من يرفعه.

ويختم ماكيافيلي مرافعته البليغة بهذه الكلمات:

فرصة إيطاليا الأخيرة هي أنه يجب ألَّا يفوتها أن تتطلع إلى مخلصها. بأي محبة يستقبل (الأمير الجديد) في جميع المحافظات التي قاست من تدفق سيل الأجانب، وبأي تعطشٍ إلى الانتقام، وبأي وفاء ثابت وإخلاص، وبأية دموع تقصر ألفاظي عن التعبير عنها، وأية أبواب سوف تقفل وراءه؟ وأي ناس سيرفضون طاعته؟ وأي إيطالي لا يخضع له ويدين له بالولاء؟ يتعمق هذا الظلم البربري في كل خيشوم.

مضى أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن قبل أن يتحقق حلم ماكيافيلي لتوحيد إيطاليا ورؤيتها متخلصة من الفساد والسيطرة الأجنبيين.

وزعت نسخ خطية من «الأمير» إبَّان حياة مؤلفه، وبعدها بعدة سنوات. وقد وافق على نشره في سنة ١٥٣٢م، البابا كلمنت Clement السابع، ابن عم الأمير الذي أهدى إليه ذلك الكتاب. وطبع منه ٢٥ طبعة في العشرين سنة التالية. ثم بدأت العاصفة تهبُّ؛ فقد أمر مجلس الثلاثين بإتلاف جميع مؤلفات ماكيافيلي؛ إذ اتهم في روما بالإلحاد، وحرمت مؤلفاته فيها وفي كل مكان بأوروبا. وأحرق اليسوعيون تمثالًا صغيرًا له في ألمانيا. واشترك الكاثوليكيون والبروتستانت في الدعوة ضده. وفي سنة ١٥٥٩م وضعت جميع مؤلفاته في قائمة الكتب المحرمة.

لم تسترجع سمعة ماكيافيلي بعض أهميتها وبراءتها وتزكيتها إلا في القرن التاسع عشر. عملت الحركات الثورية في أمريكا وفرنسا وألمانيا وفي كل مكان على تحويل الحكومات إلى مدنية وفصل الكنيسة عن الحكومة. وقامت الحركة الإيطالية المطالبة بالحرية، التي

وصلت بنجاح إلى ذروتها في عام ١٨٧٠م مستمدة إيحاءها من الوطني العظيم ماكيافيلي. وقد أبان هـ. دوجلاس جريجوري Douglas Gregory في مقالٍ معقول، أنه باتباع نظريات ماكيافيلي، استطاع الحاكم الإيطالي الكونت كافور Cavour أن يوحد إيطاليا ويطرد الغزاة منها، بينما لو أنه اتبع أي طريقٍ آخر لنزلت بالبلاد كارثةٌ وأخفقت في مساعيها.

لا ينكر أحدٌ أن دكتاتوري وطغاة كل عصر وجدوا نصائح مفيدة في «الأمير». وأن قائمة القراء المتلهفين ضخمة؛ أعجب الإمبراطور شارل الخامس، وكاترينا دي ميديكي بذلك المؤلَّف. وحصل أوليفر كرومويل Oliver Cromwell على نسخةٍ خطية منه واعتنق مبادئه وطبقها في حكومة الكومنولث Commonwealth في إنجلترا. وكان كلٌّ من هنري الثالث وهنري الرابع الفرنسيَّيْن يحمل نسخًا منه عندما قتل. كما ساعد هذا الكتاب فريدريك العظيم على صياغة سياسة بروسيا Prussia، واتخذ لويس الرابع عشر هذا الكتاب «طاقيته الليلية المفضلة»، ووجدت منه نسخة ذات حواشٍ في عربة نابليون بونابارت Napoleon Bonaparte في ووترلو Waterloo واستمدَّ نابليون الثالث معظم أفكاره عن الحكومة من ذلك الكتاب. وكان بسمارك Bismarck تلميذًا مخلصًا وحديثًا احتفظ أدولف هتلر Adolf Hitler، تبعًا لقوله هو نفسه، بكتاب «الأمير» بجانب سريره حيث كان مصدر إيحاء مستمرًّا له. وقال بنيتو موسوليني Benito Mussolini: «أومن بأن كتاب «الأمير» لماكيافيلي دليلٌ رائع للسياسي؛ فمذهبه اليوم حي لأنه لم تحدث تغييرات عميقة في مدى الأربعمائة سنة في عقول الناس أو في أعمال الأمم.» (بعد ذلك غير موسوليني رأيه؛ إذ ظهر في سنة ١٩٣٩م اسم ماكيافيلي في قائمة المؤلفين، القدامى والمحدثين، الذين يضمهم فهرست الكتب الفاشستي، تلك الكتب التي يحظر على أصحاب مكتبات الرومان أن يعرضوها.)

ومن ناحية أخرى، أوضح المحللون المدققون للأحداث التاريخية أن الطغاة، أمثال هتلر وموسوليني، لقوا عمومًا نهاية مؤسفة لأنهم أهملوا أو أساءوا تفسير بعض المبادئ الأساسية التي صاغها ماكيافيلي.

اتفق دارسو مذهب ماكيافيلي على أنه لا يمكن فَهْم آرائه فهمًا تامًّا إلا بقراءة كلٍّ من كتابَيْه «المحادثات» و«الأمير»؛ فكتاب «المحادثات» الذي استغرق في تأليفه أكثر من خمس سنين، ونشر لأول مرةٍ في نفس السنة التي نشر فيها «الأمير»، مؤلف أضخم كثيرًا من «الأمير». والفرق بينهما، كما اقترح البعض، هو أن «المحادثات» يتناول «ما يجب أن يكون»، بينما يتناول «الأمير»، «ما هو». يختص «الأمير» كلية بالإمارات، أي بالدول أو الدويلات التي يحكمها ملك واحد، بينما يختص «المحادثات» بالمبادئ التي يجب أن تتبعها الجمهوريات.

يخرج المرء من القراءة المقارنة لهذين الكتابين بهذه النتيجة المذهلة، وهي أن ماكيافيلي كان جمهوريًّا مقتنعًا بمبدأ الجمهورية. لم يحب الاستبداد، ويعتبر أن الحكومة المختلطة المكونة من الحكومتين الشعبية والملكية هي أفضل الحكومات. وما من حاكمٍ نَعِم بالأمان بغير محبة شعبه. وأشد الحكومات رسوخًا هي التي يحكمها أمراء تقيدهم حدود دستورية. فحكم الشعب سديد في نظر ماكيافيلي، كما يلاحظ في مهاجمته للمثل القديم: «من يَبنِ على الشعب يَبنِ على الرمال.» وكانت حكومته المثالية هي الحكومة الرومانية القديمة، وكان يشير إليها دائمًا في كتابه «المحادثات».

إذن، فلماذا، وقد فضل ماكيافيلي الحكومة الجمهورية على كل ما عداها للشعب الحر، لماذا أنتج كتاب «الأمير»؟ ألَّف ماكيافيلي هذا الكتاب لعصرٍ بعينه، ولمجموعةٍ معينة من الظروف. ولا شك في أنه أدرك أنه يستحيل إقامة جمهورية ناجحة في إيطاليا في القرن السادس عشر. وضع كتاب «الأمير» خِصِّيصى لغرض الحصول على مساعدة الناس الأقوياء لتخليص الشعب الإيطالي من تعسفهم، وتخليص الدولة من الفساد السياسي. فإذا واجهت إيطاليا أزمةً حادة لم تلجأ إلى الأسلحة من أجل خلاصها.

والآراء المخالفة الشائعة على نطاق واسع، والخاصة بماكيافيلي، لا تزال قائمةً رغم الجهود المبذولة لرد الاعتبار لاسمه والموقف الذي وصفه جوزبي بريتسوليني Giuseppe Prezzolini منذ بضع سنوات لا يزال سائدًا ويقول:

لدينا الآن ماكيافيلي اليسوعيين، عدوًّا للكنيسة، ماكيافيلي الوطنيين، مخلص إيطاليا المتحدة وبيت سافوي Savoy، وماكيافيلي العسكرية طليعة الجيوش القومية، وماكيافيلي الفلاسفة، الذي ابتكر طريقة جديدة للفكر — الروح العملية، وماكيافيلي الكتاب، الذي يعجبون بأسلوبه الكامل النضج وعباراته الجريئة. وجميع هؤلاء الماكيافيليون شرعيون.

من الحقائق التي قلَّما تقبل الجدل، أنه ما من رجل قبل كارل ماركس كان ذا تأثير ثوري على الفكر السياسي مثل ماكيافيلي. إن له حقًّا شرعيًّا في لقب «مؤسس علم السياسة».

الفصل الثاني

الثوري الأمريكي: ثوماس بين[1]

الإدراك العام

ما كان لأي رجل عاقل أن يتنبأ لثوماس بين بمستقبل زاهر عندما وصل إلى أمريكا وهو في السابعة والثلاثين من عمره. كانت حياته كلها حتى ذلك الوقت سلسلة من الإخفاقات وخيبة الأمل؛ فكل مشروعٍ وضع يده فيه باء بالفشل. إذن، فأي سببٍ يجعلنا نعتقد أنه في خلال بضع سنواتٍ يبرز هذا القادم الحديث إلى الدنيا الجديدة كواحدٍ من أعظم مؤلفي الكتيبات في اللغة الإنجليزية، وواحد من أعظم الباحثين في التاريخ الأمريكي. إنه مثير للقلاقل السياسية، وثوريٌّ عُرف اسمه ورهب ومقت أو قرظ وكرم في جميع المستعمرات البريطانية الأمريكية، وبريطانيا العظمى، وغرب أوروبا! يبدو أن رحلة المحيط قد أحدثَت تحورًا مثيرًا في شخصيته وأخلاقه، فغيرته ما بين عشيةٍ وضحاها من الإدراك المتوسط إلى النبوغ.

إذا فحصنا سِنِي حياة بين الأولى، وجدناها لم تَضِع هباء، بل كانت في الحقيقة نوعًا من الإعداد لحياته الجديدة. وُلد في شرقي إنجلترا في التاسع والعشرين من يناير سنة ١٧٣٧م، من ثيتفورد Thetford بمقاطعة نورفوك Norfolk من أب ينتمي إلى طائفة أصدقاء مذهب جورج فوكس الديني ومن أم إنجليكانية ... مارس الفقر المدقع والحرمان والنصب منذ نعومة أظفاره ... تعلم في مدرسة الأجرومية حتى بلغ الثالثة عشرة إذ اكتسب،

---

[1] Thomas Paine.

كما يقول هو نفسه، «تعليمًا أخلاقيًّا جيدًا جدًّا، وكمية طيبة من المعارف النافعة.» وإن موهبته الطبيعية في العلوم والاختراع — الناحية العملية المقابلة للنظرية — قد ظهرت على السطح وبقيَت معه طوال حياته الحافلة بالأعمال المستمرة.

بعد هذا التعليم البسيط الشكلي، تتلمذ بين ليتعلَّم مهنة أبيه صناعة «الكورسيهات». فقضى في ذلك العمل ثلاث سنوات. ثم إن بريق البحر وملل العمل على وتيرة واحدة، جعلاه يفر من بيته ويلتحق بسفينة القرصنة الحربية «تريبل Terrible» بقيادة ربَّان يحمل الاسم المرهوب «الموت». وإذ أنقذه أبوه، استأنف عمله في صناعة الكورسيهات حتى بلغ التاسعة عشرة، فعاد إلى القرصنة الحربية لنهب سفن الأعداء حيث عمل مدة قصيرة على السفينة «ملك بروسيا». وإذ شُفيَ من ولعه بالمغامرات البحرية استقر مرةً أخرى في مهنته الأولى، ليس في ثيتفورد وإنما في لندن، في حانوتٍ لصناعة الكورسيهات قرب دروري لين Drury Lane. وكان يقضي أوقات فراغِه في سماع محاضرات علم الفلك.

تلا ذلك سنوات من التجوال الشاق وعدم الاستقرار في شيء … تزوج خادمة يتيمة في ساندوتش Sandwich، ولكنها ماتت في غضون سنة من زواجها. كان والدها موظفًا بمراقبة الإنتاج، فجذب بين إلى هذه الوظيفة وجود وقت فراغ يمكنه أن يقوم فيه بأعمال أخرى. فحصل على وظيفة مأمور في إدارة مراقبة الإنتاج، ولم يكن هناك طريقة أضمن من هذه لفقدان الأصدقاء والابتعاد عن الناس؛ إذ كان عمله القبض على مهربي البضائع، فصارت أيدي الأغنياء والفقراء ضده. ثم فصل من عمله هذا لتهاونه في تنفيذ الأوامر. فعاد بعد ذلك إلى صناعة الكورسيهات وبقي فيها مدة بسيطة ثم عمل مدرسًا في كنسنجتون Kensington بمرتب ٢٥ جنيهًا في السنة لا يكاد يكفي ثمن القوت الضروري، ولكنه عاد بعد ذلك إلى مراقبة الإنتاج، وتزوج مرةً ثانية في سنة ١٧٧١م، وانضم إلى زوجته وأمها في لويس Lewes، في إدارة حانوت لتجارة التبغ والبقالة، كعملٍ إضافي يزيد في دخله.

قضى بين كثيرًا من وقته، في هذه السنين الأخيرة، في حانة «هوايت هارت White Hart» وحضور الاجتماعات في نادٍ انضم إليه، وللترفيه عن الأعضاء، كان ينظم الأزجال الدعابية والأغاني الوطنية، ويصدر صحيفة في موضوعات أكثر جدِّية، وأحيانًا كان يشترك في نقاشاتٍ حامية عن الأحداث اليومية الجارية. ولما ظهرت براعته في الجدل، انتخبه زملاؤه كي يتكلَّم نيابةً عنهم في طلب زيادة أجورهم وتحسين ظروف العمل لهم. فقضى بين عدة أسابيع في تحرير صحيفةٍ بعنوان «قضية موظفي مراقبة الإنتاج، والآراء الخاصة بالفساد الناجم عن فقر موظفي مراقبة الإنتاج.» وفي شتاء عام ١٧٧٢–١٧٧٣م ذهب إلى لندن لتقديم هذه العريضة إلى أعضاء البرلمان والموظفين الآخرين.

لم ترفض العريضة التي قدمها بين نيابةً عن زملائه، لم ترفض فحسب، بل وطُرد من عمله لإهماله واجباته. وأفلس حانوت تجارة التبغ، فبيع أثاث بيته وأمتعته الشخصية لإنقاذه من السجن بسبب ديونه. فانفصل عن زوجته. وإذ أقبل على منتصف العمر، ترك وحيدًا خالي الوفاض.

شاء الحظ أن يلتقي أثناء إقامته في لندن ببنيامين فرانكلين Benjamin Franklin الذي أوفد إلى هناك كسفيرٍ للمستعمرات. وربما أدرك فرانكلين عبقرية بين فحثَّه على أن يجرِّب حظه في أمريكا وزوَّده بخطاب توصية لزوج ابنته ريتشارد باش Richard Bache في فيلادلفيا Philadelphia ذكر له فيه أن بين «شاب عبقري كفء» موصيًا، بتعيينه كاتبًا أو مساعد مدرس في مدرسة أو مساعد مسَّاح. كان خطاب فرانكلين رأس المال الرئيسي لدى بين عندما نزل في فيلادلفيا في أوائل شهر ديسمبر سنة ١٧٧٤م.

ومع هذا، أحضر بين معه رأس مال ثانٍ بالغ القيمة من نوع آخر — هو مرانه الماضي. لاحظ بين الوحشية البدائية التي يسير عليها العدل في إنجلترا، وذاق مرارة الفقر، وقرأ وسمع الكثير عن حقوق الإنسان الطبيعية، ورأى الهُوَّة الشاسعة الفاصلة بين ملايين البشر العاديين وبين بضعة الآلاف، أعضاء الأسرة المالكة والنبلاء في بريطانيا، وعرف الطريقة التي يتبعها نواب الأقاليم الفاسدون في اختيار أعضاء مجلس العموم House of Commons كما عرف فساد وغباء العائلة المالكة. وإذ فكر عميقًا في هذه الأمور، تملَّكه عطفٌ شديد على الإنسانية، كما تملَّكه حبٌّ للديمقراطية وباعث قوي للإصلاح الاجتماعي والسياسي العام.

بعد وصول بين إلى فيلادلفيا، سرعان ما عُيِّن محررًا في مجلة بنسلفانيا Pennsylvania وكانت صحيفة جديدة، فاستمر في تلك الوظيفة معظم الثمانية عشر شهرًا التي بقيتها تلك الصحيفة. وعلى الفور تقريبًا، بدأ سيرته الطويلة كمغامرٍ مصلح، فنشر مقالًا ندَّد فيه بالرقيق من الزنوج وطالَب بإلحاحٍ عتق الأرقاء. بعد ذلك بخمسة أسابيع تكوَّنت في فيلادلفيا أول جمعيةٍ أمريكية لمقاومة الرق. وتلا ذلك مقالات أخرى تُطالب بمنح المرأة المساواة في الحقوق، وتقترح تشريع قوانين دولية لحقوق الطبع والنشر، والرفق بالحيوان والسخرية من عادة المبارزة، ونبذ الحروب لتسوية النزاعات بين الأمم.

وبينما هو يكتب تلك المقالات، شبَّت بسرعةٍ حرب دولية لعب هو فيها دورًا هامًّا؛ ففي ربيع سنة ١٧٧٥م قامت معارك كونكورد Concord ولكسنجتون Lexington

وبنكر هيل Bunker Hill وبعد مذبحة لكسنجتون في شهر إبريل، كتب بين إلى بنيامين فرانكلين، يقول: «رأيت من الصعب أن تشتعل النار في البلاد تحت سمعي بمجرد دخولي إليها.»

انقسمت الآراء في المستعمرات انقسامًا بالغًا فيما يختص بالمنهج الواجب اتباعه. تراوحت الآراء من المتطرفين أمثال صموئيل آدمز Samuel Adams وجون هانكوك John Hancock اللذين صمما بشدة على ضرورة الحرب، إلى المحافظين الموالين للملك. وكان جورج واشنطن George Washington وبنيامين فرانكلين وتوماس جافرسون Thomas Jafferson من بين القادة الذين أبدوا ولاءهم لبريطانيا، وتساءلوا عن فكرة الانفصال والاستقلال. أكد كلٌّ من المؤتمر الكونتيننتال الأول والثاني قراراتهما في الولاء للتاج، مطالبين فقط بتسويةٍ عادلةٍ لمطالبهما.

وفي وسط ذلك التفكير المضطرب والآراء والدوافع المتضاربة، والجذب والدفع، كان هناك رجلٌ واحد رأى بوضوح اتجاه الأحداث والنتيجة المحتملة. فمنذ البداية، رأى ثوماس بين أنه لا مفرَّ من الانفصال عن إنجلترا. فقضى كل بقية عام ١٧٧٥م يكتب آراءه. وقبل نشر مؤلفه، عرضه على عددٍ من الأصدقاء من بينهم الدكتور بنيامين رش Benjamin Rush الذي اقترح أن يكون عنوان الكتيب «الإدراك العام»، وساعد بين في العثور على ناشرٍ اسمه روبرت بل Robert Bell وهو صاحب مكتبة ومطبعة في فيلادلفيا.

ظهر «الإدراك العام» في ١٠ يناير سنة ١٧٧٦م «ومؤلفه رجل إنجليزي»، وهو عبارةٌ عن كتيب من ٤٧ صفحة، وثمنه شلنان. فبيع منه ١٢٠٠٠٠ نسخةً في ثلاثة أشهر، وبلغ مجموع المبيعات الكلية حوالي نصف مليون، وهذه تعادل بالنسبة إلى عدد السكان، بيع ٣٠ مليون نسخة في الولايات المتحدة اليوم. والواقع أن كل شخصٍ يستطيع القراءة في المستعمرات الثلاث عشرة، لا بد وأن قرأه. ورغم هذه المبيعات الضخمة رفض بين أن يأخذ بنسًا واحدًا من حصيلة ذلك الكتيب.

ليس في تاريخ الأدب شيءٌ يُعادل «الإدراك العام» في أثره الفوري. كان نداء بوقٍ إلى المستعمرات الأمريكية لكي تحارب من أجل استقلالها — دون قبول الصلح ولا التردُّد. أبان لهم ذلك الكتاب أن الثورة هي الحل الوحيد لنضالهم مع بريطانيا العظمى وجورج الثالث. فقال بين: «بما أنه لا شيء يُجدي غير الصفعات، فإكرامًا لخاطر الله هيا بنا إلى الانفصال النهائي. إننا ندفع ثمنًا غاليًا، وغاليًا جدًّا عن إلغاء القوانين، إذا كان هذا هو

كل ما نحارب من أجله ... إنه من الحماقة أن ندفع ثمن بنكر هيل من أجل الأرض ... ليس هذا موضوع مدينة أو مقاطعة أو محافظة أو مملكة، بل موضوع قارة ... ليس هذا مصير يوم ولا سنة ولا جيل؛ بل إن ذريتنا مشتركةٌ في هذه التجربة ... الآن وقت البذر لاتحاد وإيمان وشرف قارة ... إن حزام القارة المربوط واسع ... الاستقلال هو الرباط الوحيد الذي يُحافظ على ارتباطنا معًا.»

ومقدمة «الإدراك العام» فقرة معتدلة ومهدئة:

ربما كانت العواطف التي تتضمنها الصفحات التالية ليست جيدة الصياغة بما يكفي لأن تحظى بالقبول العام؛ فالعادة الطويلة الأمد التي لا تظن بأن هناك شيئًا خطأ، تُعطي مظهرًا سطحيًّا بأنه صواب، ويُثير أولًا صفحة مدوية للدفاع عن العادات. ولكن سرعان ما يخمد الصوت. يخلق الزمن مهتدين أكثر مما يفعل العقل.

يتناول القسم الأول من هذا الكتيب نشأة الحكومة وطبيعتها مع تطبيق معين للدستور الإنجليزي. تظهر فلسفة المؤلف عن الحكومة في مثل هذه العبارات:

ليست الحكومة، حتى وهي في أفضل حالاتها، سوى شرٍّ لا بد منه، وفي أسوأ حالاتها، شر لا يطاق ... الحكومة كالثياب، شارة البراءة المفقودة ... بُنيت قصور الملوك على أنقاض مقاصير الجنة ... كلما كَثُر كمال المدنية قلَّت حاجتها إلى حكومة.

يقول بين: «إن نشأة الحكومة وقيامها قد صارا ضروريَّيْن بسبب عجز الأخلاق الفاضلة عن حكم العالم، وهنا أيضًا شكل ونهاية الحكومة، أي الحرية والاطمئنان.»

يوجد فرقٌ كبير بين المجتمع والحكومة. ينجذب الناس إلى المجتمع وعن طريق التعاون الاجتماعي يمكنهم الحصول على حاجاتٍ معينة. وفي هذه الحالة يملك الإنسان حقوقًا طبيعيةً معينةً مثل الحرية والمساواة. ونموذجيًّا، يجب أن يكون الإنسانُ قادرًا على أن يعيش في سلامٍ وسعادةٍ بدون حكومة، إذا كانت بواعث الضمير واضحةً ومتناسقةً ومطاوعةً بغير مقاومة. وبما أن الجنس البشري ضعيفٌ طبيعيًّا، وغيرُ كاملٍ أخلاقيًّا، يلزم وجود قوةٍ رادعة ما، وهذه توفِّرها الحكومة. ومع ذلك، يتوقَّف أمن وتقدُّم وراحة الشعب على المجتمع أكثر مما يتوقَّف على الحكومة. وتجاوُب المجتمع وعاداته والعلاقات المتبادلة بين الناس أقوى تأثيرًا من أي دساتير سياسية.

بعد ذلك يبدي بين بضع ملاحظات على الدستور الذي تزهو به إنجلترا كثيرًا، معلقًا عليه بقوله: «من المسلَّم به أنه كان نبيلًا إبَّان العصر المظلم الحقير الذي صِيغ فيه. فعندما اجتاح الطغيان العالم، فإن أقل تزحزح عنه كان خلاصًا ماجدًا، ولكن من السهل توضيح

أنه غير كامل وعرضة للتأويلات المتضاربة وغير قادر على تحقيق ما يتظاهر بالوعد به.» ما أهم الصفات التي يجب أن تتحلَّى بها الحكومة؛ المسئولية التي اعتبرها «بين» غير موجودة إطلاقًا في الدستور البريطاني. إنه معقد بطريقة تجعل من المستحيل معرفة المسئول عن شيء بعينه. والجزء الوحيد المشكور في ذلك الدستور هو حق الشعب، نظريًّا على الأقل، فينص على اختيار أعضاء مجلس العموم House of Commons بالانتخاب. واقترح بين قاعةً تشريعية واحدة للمستعمرات ينتخب أعضاؤها ديمقراطيًّا، ورئيسًا، ووزارة ذات قسم تنفيذي مسئول أمام الكونجرس.

ادَّخر بين أقذعَ ألفاظه وأعظمَ احتقاره لدستور الملكية الوراثية. هاجم مبدأ الملكية كلَّه من أساسه، ولا سيما الصورة الإنجليزية من هذا المبدأ.

عرف العالم حكومة الملوك، أول ما عرفوها، من الوثنيين الذين حاكاهم في هذه العادة أبناء إسرائيل. كانت الاختراع الأكثر ازدهارًا، الذي أقامه الشيطان لنشر عبادة الأصنام. قدَّم الوثنيون فروض العبادة لملوكهم الأموات، وتحسَّن العالم المسيحي بفعل نفس ذلك الشيء لملوكهم الأحياء ... وأضفنا نحن إلى شر الملكية، شر حق الوراثة. ولما كان الشر الأول تحقيرًا وتقليلًا لأنفسنا، فإن الشر الثاني، كحق، إهانة لنا، وفرض على ذريتنا ... ومن أقوى البراهين الطبيعية على سخافة حقوق الوراثة للملوك، أن الطبيعة نفسها تشمئز منها، وإلا فإنها تسخر منا فتعطينا «حمارًا» بدل «أسد».

ورجوع شرعية الوراثة الإنجليزية للعرش إلى عصر الغزو، أمر مشكوك فيه، في نظر بين، فيقول: «نزل بإنجلترا صعلوك فرنسيٌّ ومعه عصابة مسلحة، فأقام نفسه ملكًا لإنجلترا بغير موافقة السكان الوطنيين، وهذه ببساطةٍ نشأة دنيئة حقيرة — وبالتأكيد لا تنطوي على شيء إلهي.» إذا أمنت الملكية فريقًا من الناس الأخيار والعقلاء، فلا مانع. ولكنها «تفتح بابًا» للأغبياء والأشرار والمفسودين ... أولئك الناس الذين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم وُلدوا ليحكموا بينما وُلد الآخرون ليطيعوا، سرعان ما يتخلَّقون بالوقاحة. وهم بخلاف سائر الجنس البشري قد تسممت عقولهم منذ عصرٍ مبكر، بالعظمة والصلف ... وعندما يتولَّوْن الحكومة بالوراثة، فكثيرًا ما يكونون جهلاء وغير صالحين لأي شيء في جميع أنحاء المملكة. والسماح للملوك القصر والشيوخ بالجلوس على العرش يخلق عددًا من الشرور والمساوئ ففي الحالة الأولى يكون الحكم الحقيقي للمملكة في يدي وصي على العرش، وفي الحالة الثانية يصير الحكم عرضة لنزوات ملك عجوز خائر.

وردًّا على القول بأن وراثة العرش تمنع قيام الحروب الأهلية، أشار بين إلى أنه منذ عصر الغزو اجتاحت إنجلترا «ما لا يقل عن ثماني حروب أهلية وتسعة عشر تمردًا.» وقال:

لا يعمل الملك في إنجلترا إلا القليل جدًّا زيادة على إعلان الحروب وتوزيع المناصب، وهذا، ببساطة، معناه أنه يفقر الأمة ويضمُّها معًا من آذانها. فيا له من عمل رائع حقًّا أن يتقاضى رجلٌ عنه ثمانمائة ألف جنيه إسترليني سنويًّا ويُعبد من أجل هذا العمل! إن رجلًا أمينًا واحدًا لأعظم قيمةً للمجتمع وفي نظر الله أيضًا، من جميع أولئك السوقة المتوجين الذين عاشوا في هذه الدنيا.

أدَّى بين فروض الاحترام، في عدة فقرات إلى جورج الثالث. فكتب بعد مذبحة لكسنجتون، يقول: «إني لأنبذ إلى الأبد فرعون إنجلترا القاسي القلب والسيئ الطباع، وأحتقر ذلك الوغد ذا اللقب الزائف «أبو شعبة» الذي يسمع عن مذابحهم دون شعور، وينام ناعم البال ودمهم على روحه.» ثم يستطرد في فقرة لاحقة، فيقول: «يقول البعض: ولكن أين ملك أمريكا؟ فأردُّ عليك، يا صديقي، بقولي: إنه يحكم فوق، ولا يعمل على إبادة الجنس البشري ودماره كما يفعل وحش بريطانيا الملكي.»

وإذ فجَّر بين بعض الآراء الشعبية عن الحكومة الملكية، انتقل إلى «بعض الأفكار عن الحالة الراهنة للشئون الأمريكية». فأكد النقاش الاقتصادي للانفصال عن بريطانيا، وعن ادِّعاء المحافظين بأن أمريكا ازدهرت بسبب صلتها بإنجلترا، فقال:

كان بوسع أمريكا أن تزدهر بذلك القدر، وربما بأكثر منه لو لم تتدخَّل في شئونها أية قوة أوروبية؛ فمواد التجارة التي أغنَتْ أمريكا بها نفسها هي ضروريات الحياة، وستجد دائمًا سوقًا لمنتجاتها طالما كانت عادة أهل أوروبا أن يأكلوا … يجلب قمحنا ثمنًا في أية سوق أوروبية، وسلعنا المستوردة يجب أن ندفع ثمنها؛ ولذا يمكننا أن نشتريَها من أين يحلو لنا.

أما القول بأن بريطانيا قامَت بحماية المستعمرات ضد الإسبانيين والفرنسيين والهنود فلم يقبله بين في احتقار، وعلَّق عليه بقولِه: «كان يمكن أن تحميَ بريطانيا تركيا لنفس الدوافع، أي من أجل التجارة والمستعمرات وعلى أية حال كان الدفاع على حسابنا، كما كان على حسابها.»

أدرك بين أن من أقوى الروابط التي تحافظ على عدم انفصال المستعمرات، فكرة عاطفية بريطانية، إذا كان هذا حقيقيًّا. وهي تجلب العار على سلوكها. فحتى الوحوش

لا تأكل صغارها، ولا يعلن المتوحشون الحرب على عائلاتهم ... فقد اتخذ الملك وأذنابه العبارة «الدولة الوالدة أو الدولة الأم» يسوعيًّا لغرض بابويٍّ وضيع، لكسب انحيازٍ غير عادل على الضعف الساذج لعقولنا. فإن أوروبا، وليست إنجلترا هي الدولة الأم لأمريكا.

قال بين: «إن الدنيا الجديدة كانت ملجأً لمحبِّي الحرية المدنية والدينية المضطهدين من جميع أنحاء أوروبا ... لا يصل عدد السكان، الذين من أصلٍ إنجليزي، حتى في هذه المحافظة، إلى ثلث عدد سكانها الكلي، وهذا ما يجعلني أستاء لإطلاق عبارة «الدولة الوالدة أو الدولة الأم» على إنجلترا وحدها؛ إذ يكون هذا أنانيةً وزيفًا وبخلًا وضيقًا في التعبير.»

علَّق بين على تحذير جورج واشنطن «أن نبتعد عن التحالف الدائم مع أي جزءٍ من العالم الأجنبي.» وعلى سياسة توماس جيفرسون: «السلم والتجارة والصداقة الصادقة مع جميع الأمم، ولا نشتبك في تحالفٍ مع أي أمة منها.» علَّق بين على هذَيْن القولَيْن مقترحًا أن هناك مساوئ عديدة للعلاقة المستمرة مع بريطانيا:

... لأن أي خضوع أو اعتماد على بريطانيا العظمى يؤدي إلى الاشتراك المباشر لهذه القارة في الحروب والمعارك الأوروبية، ويضعنا في موقف العداء مع الأمم، التي بغير ذلك تسعى إلى صداقتنا والتي ليس بيننا وبينها أيُّ كدرٍ أو شكوى. ولما كانت أوروبا سوقًا لتجارتنا، وجب علينا ألا نُكَوِّن أية علاقة انحياز مع أي جزء منها. إن صالح أمريكا الحقيقي هو في الابتعاد عن المنازعات الأوروبية، الأمر الذي لن تستطيعه أمريكا وهي الكفة الراجحة في ميزان السياسة البريطانية؛ فأوروبا زاخرةٌ بالكثير من الممالك الراغبة في السلام، وإذا اندلعت نيران حربٍ بين إنجلترا وأية قوةٍ أجنبية، تحطمت تجارة أمريكا بسبب علاقتها ببريطانيا.

استعرض بين مساوئ الحكومة البريطانية المتعددة الصور، فاستنتج:

ليست قوة بريطانيا هي التي تُنصف هذه القارة؛ فسرعان ما ستكون شئونها كثيرة ومعقدة فلا تستطيع قوة بعيدة عنَّا أن تدبرها تدبيرًا مريحًا، وهكذا تجهلنا؛ لأن البريطانيين إذا لم يستطيعوا قهرنا فلن يستطيعوا أن يحكمونا. فإذا كان علينا دائمًا أن نقطع ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف ميل لعرض موضوعٍ أو تقديم شكوى، ثم ننتظر أربعة أو خمسة شهور ليصلنا الرد، الذي عندما يصل يحتاج إلى خمسة أو ستة شهور أخرى لتفسيره. وعلى هذا ينظر إليه بعد بضع سنوات على أنه حماقة و«معيلة» إنها لسخافة أن تستمر جزيرة تحكم قارة. لم تجعل الطبيعة، بحال ما، التابع أكبر من الكوكب المتبوع.

ألقى بين مرافعةً مثيرةً للعواطف من أجل المتشككين وضعاف القلوب، الذين ما زالوا يعتقدون أن الاتفاق أو الصلح ممكن، فقال:

أيمكنكم أن تُعيدوا إلينا الزمن الذي مضى؟ أيمكنكم أن تمنحوا البغاء براءته السابقة؟ كذلك لا يمكنكم الصلح بين بريطانيا وأمريكا. لقد انقطع الآن آخر حبلٍ للرجاء. يُلقي شعب إنجلترا الخطب ضدنا، وهناك أضرار لن تغفرها الطبيعة، وإذا غفرتها فلن تكون طبيعة بعد ذلك. وكما أن العاشق لن يغفر لمن يهتك عرض معشوقته، كذلك لن تغفر هذه القارة لبريطانيا مذابحها.

بينما يرزح العالم كله تحت عبء الظلم، يجب أن تفتح أمريكا أبوابها على مصاريعها للحرية وتُعد ملجأ للبشرية المضطهدة.

كرَّس بين الباب الأخير من كُتيِّبه لموضوع عملي جدًّا، وهو «المقدرة الحامية لأمريكا»؛ ليحصل على ثقة الأمريكيين ويقنعهم بأن لديهم القوة البشرية والتمرين الصناعي والموارد الطبيعية، ليس فقط لشن الحرب بنجاحٍ على بريطانيا، بل، إذا اقتضت الضرورة، على العالم المُعادي. تحتوي المستعمرات الآن على عددٍ ضخمٍ من الرجال المسلمين والمدربين، ويمكنها تكوين أسطول بحري يعادل أسطول بريطانيا في وقت قصير لأن القطران والأخشاب والحديد والحبال متوافرةٌ لدينا بكميات كبيرة وإن «بناء السفن لمفخرة أمريكا التي لا تزال تتفوق فيها على العالم أجمع.» وعلى أية حال، إن أمريكا في حاجة إلى أسطول للدفاع والحماية؛ لأن البحرية الإنجليزية قليلة الجدوى وهي على بعد ثلاثة أو أربعة آلاف ميل، وعديمة النفع إطلاقًا وقت نزول الخطر.

وعلى ضوء المجادلات الدينية التي اشتبك فيها بعد ذلك، من الممتع أن نبين آراء بين الدينية في هذه المرحلة من حياته.

أما فيما يختص بالدين، فأقرر أنه واجب لا غنى عنه لجميع الحكومات أن تحمي جميع أساتذة الدين الغيورين، ولست أعرف عملًا آخر يجب أن تقوم به الحكومة (وهذا طعن واضح ضد الكنيسة، يبغي من ورائه فصل الكنيسة عن الحكومة) ... أما عن نفسي فإنني أُومِن تمامًا وبعقيدة أنها مشيئة الإله القادر على كل شيء، أن تكون بيننا خلافاتٌ في الآراء الدينية، فهذا يسمح بمجالٍ أوسع لطيبتنا المسيحية. وإذا اتفقت طريقة تفكيرنا جميعًا، احتاجت تكويناتنا الدينية إلى مادة للنقاش، وإلى هذا المبدأ الحر، أتطلع إلى جميع القيم التي بيننا، لنكون كأطفال أسرة واحدة لا يختلفون إلا فيما يطلقون عليه الاسم الأول أو الاسم المسيحي.

لخص بين أسباب تمسكه برأيه في «أنه ما من شيء يسوي أمورنا بسرعة وبسهولة مثل الإعلان الصريح لاستقلالنا» ... ختم كتيبه «الإدراك العام» بذكر أربعة عوامل: (١) طالما أن أمريكا تعتبر من رعايا بريطانيا، فما من دولة أخرى يمكنها التدخل في الخلاف بينهما. (٢) لا يمكن انتظار مساعدة من فرنسا أو إسبانيا لإصلاح الصدع بين بريطانيا وأمريكا وتقوية العلاقة بينهما لأن مثل هذه الخطوة ستكون ضد مصالحهما. (٣) طالما يعترف الأمريكيون بأنهم رعايا بريطانيا، فإنهم سيعتبرون في نظر الأمم الأجنبية عصاة متمردين، وهكذا لا يكسبون إلا القليل من عطفهم. (٤) إذا أعدَّ الأمريكيون تقريرًا يوضِّحون فيه شكواهم ضد بريطانيا وعزمهم على قطع كل علاقة بها، وإرسال نسخ من هذا التقرير إلى جميع الدول، معبِّرين عن نواياهم السلمية مع تلك الدول، ورغبتهم في إقامة علاقات تجارية، صارت النتائج في صالحنا جدًّا.

واختتم بين قضيته بقوله:

... إذا لم يُعلَن الاستقلال فستظل القارة تشعر بأنها مثل رجل دائم التأجيل لعملٍ كريه من يوم إلى يوم، رغم أنه يعلم أن ذلك العمل لا بد أن يتم، ويكره أن يبدأ فيه، وفي الوقت نفسه يرغب في الانتهاء منه، ويظل مشغول البال باستمرار بضرورة ذلك العمل.

لماذا، بدلًا من أن يُحملق كلٌّ منَّا في الآخر مستريبًا أو متسائلًا، لماذا لا يمد كلٌّ منا إلى جاره يد الصداقة من كل قلبه، ونتحد في رسم خط، كعملٍ من أعمال النسيان ويدفن في حيز النسيان كل نزاع سابق. ولنقضِ على اسم عضو من حزب الأحرار وعضو في حزب المحافظين، ولا يُسمع بيننا سوى «مواطن صالح» و«صديق وفي» و«مؤيد فاضل لحقوق الإنسان وحقوق ولايات أمريكا الحرة والمستقلة».

كانت هذه هي الرسالة الثورية التي بعث بها «الإدراك العام» إلى الشعب الأمريكي، صاعدًا السلم من أسفل إلى أعلى الأرض، ومن الأدلة العملية إلى النداءات المنحازة لشخصٍ مفعم بالعواطف، ووطني عنيف، وثوري مفطور.

يمكن تصوير الآثار الفورية والتلقائية لكتيب «الإدراك العام» بالاستشهاد بأقوال بعض القادة المعاصرين. لقد تبخَّرت شكوك جورج واشنطن عندما كتب إلى جوزيف ريد في نورفوك: «إن مزيدًا قليلًا من مثل هذه الأدلة المتأججة كالتي عرضت في فالموث Falmouth ونورفوك، إذا أضيف إلى المذهب السليم والأسباب المفحمة التي يضمها كتيب «الإدراك العام» لن يترك الأعضاء في حيرةٍ فيما يختص بتقرير مبدأ الانفصال.» وبعد ذلك ببضعة أسابيع كتب أيضًا إلى ريد: «من الخطابات الخاصة التي تسلَّمتها أخيرًا من

فرجينيا Virginia أرى أن كُتيب بين بعنوان «الإدراك العام»، قد أحدَث تغييرًا عجيبًا هناك في عقول كثيرٍ من الناس.» وكتب جون آدمز إلى زوجته يقول: «أرسلت إليكِ كتيبًا عنوانه «الإدراك العام» وُضع للدفاع عن مذاهب، من المعقول أن تتوقع أن وقف الطغيان ومقاومة الظلم سرعان ما ستكون عقيدة عامة.» وبعد أن قرأته البيجيل Albigail أجابت: «أن هذا الإدراك العام، جاء في الوقت المناسب كشعاعٍ من الوحي لتبديد شكوكنا وتحديد اختيارنا».

وقال بنيامين رش عمَّا كتبه بين: «يخرج من المطبعة بأثرٍ قلَّما أنتجته حروف الطباعة والورق في أي عصرٍ وفي أية دولة.» وقال الجنرال تشارلز لي Charles Lee: «أعترف بأنه أقنعني.» وذكر فرانكلين: «لقد أحدث أثرًا ضخمًا.» وقال وليام هنري درايتون William Henry Drayton: «جاء هذا الإعلان كقصف الرعد على أعضاء المؤتمر الكونتيننتال.»

وعلق السير جورج ترفليان George Trevelyan في كتابه «تاريخ الثورة الأمريكية»، بقوله:

من الصعب أن نذكر اسم أي إنشاء بشري كان له ذلك الأثر الفوري وفي الحال، وامتدَّ إلى نطاقٍ واسع، وكان له مثلُ ذلك الدوام ... سرق هذا المؤلف، ونظم شعرًا وحوكي، وترجم إلى لغة كل دولة كان للجمهورية الجديدة من يودونها فيه ويودون لها أطيب الأماني ... وتبعًا للصحف المعاصرة، حول كتيب «الإدراك العام» إلى الاستقلال أُلُوفًا لم تتحمل من قبل مجرد فكرة الاستقلال. لم ينقص ما فعله هذا الكتيب عمَّا تفعله المعجزات، وحوَّل المحافظين إلى أحرار.

بعد بضعة أشهر من ظهور «الإدراك العام» زودت معظم الولايات موفديها بتعليمات أن يصوِّتوا طالبين الاستقلال. وتردَّدَت ماريلاند Maryland وحدها، وعارضت نيويورك وفي الرابع من يوليو سنة ١٧٧٦م أي بعد أقل من ستة شهور من ظهور كتيب بين الشهير من المطبعة، اجتمع الكونجرس الكونتيننتال في قاعة الدولة بولاية فيلادلفيا، وأعلن استقلال الولايات المتحدة الأمريكية. ورغم أن بين لم يكتب القرار بنفسه، فإنه كان على صلةٍ قريبةٍ من توماس جيفرسون أثناء صياغته. وباستثناء بند ضد الرق، نادى بين به، كانت المبادئ التي نادى بها يتضمنها ذلك القرار الشهير.

إن سرد حياة بين اللاحقة مطابقة غير مباشرة لقصة «الإدراك العام». ويمكن تصوير الأحداث الهامة باختصار. فبعد الاستقلال مباشرة، انضمَّ بين إلى جيش الثورة. ولما كان خطيبًا كثير الحجج في دفاعه عن القضية الأمريكية، أسهم بقسطٍ كبيرٍ في الوحدة القومية وروحها، بمجموعةٍ من الكتيبات، وكل منها يحمل عنوان «الأزمة». يبدأ الكتيب الأول

من هذه المجموعة بسطور كثيرة الورود على الألسنة: «هناك أوقات تختبر فيها أرواح الناس. يتراجع جندي الصيف ووطني ضوء الشمس، عن خدمة وطنهما، ولكن من يقف في هذه الخدمة الآن، يستحق شكر كلٍّ من الرجل والمرأة.» وبعد بضعة أشهر، إذ عرف الكونجرس قيمة بين كأخصائي في الإعلام، وداعية إلى الأخلاق الفاضلة، عيَّنه وزيرًا للجنة الشئون الخارجية، وبذا كان بين أول وزيرٍ للولايات المتحدة، بيد أن الأحداث أجبرَتْه على الاستقالة من منصبه. فَعُيِّن بعد ذلك أمين سر لمؤتمر بنسلفانيا. وفي سنة ١٧٨١م، أُوفِد إلى فرنسا مع جون لورنز John Lorens لإحضار مساعدة مالية للحكومة الأمريكية التي كانَت في أشدِّ الحاجة إلى المعونة، فعاد في السنة نفسها بالأموال والإمدادات.

وإذا انتهَت الثورة في عام ١٧٨٣م، عكف بين على اختراعاته الميكانيكية مصممًا أول جسر حديدي معلق وأخذ يُجري التجارب على قوة البخار. فقرَّر استشارة المهندسين في فرنسا وإنجلترا عن بعض المسائل الميكانيكية فذهب إلى أوروبا عام ١٧٨٧م حيث بقي مدة خمسة عشر عامًا.

ما إن وصل بين إلى الخارج حتى اندلعت نيران الثورة الفرنسية، فأيدها بين بحماسٍ إذ وجد فيها دفاعًا جديدًا عن آرائه الديمقراطية. ودفاعًا عن هذه الثورة ردَّ على هجوم إدموند بيرك Edmund Burke أخرج كُتَيِّبه الذائع في إنجلترا اجتنابًا للقبض عليه بتهمة الخيانة العظمى بسبب المذهب المشروح في ذلك الكتيب، فرَّ إلى فرنسا حيث انتخب في البرلمان الفرنسي عضوًا ممثِّلًا لكاليه Calais وفي محاولة لإنقاذ لويس السادس عشر من الإعدام، اشتبك بين في نقاشٍ مع بعض المتطرفين أمثال روبسبير Robespierre ومارات Marat. وعندما تسلَّم هذان العنصران الحكومة، قُبض على بين وجُرِّد من جنسيته الفرنسية الشرفية، وسُجن مدة عشرة شهور، ونجا من المقصلة بأعجوبة. ولما أُفرج عنه في السجن بوساطة السفير الأمريكي جيمس مونرو James Monroe عُولج من ضعفه حتى استعاد صحته في بيت مونرو.

كان مؤلَّفه العظيم في ذلك الوقت هو «عصر العقل Age of Reason» الذي أطلق عليه أحيانًا «توراة الملحد». والواقع أن بين كان يعتقد بوجود إله واحد ليس في دين معلن. وكان «عصر العقل» ينتقد «العهد القديم» انتقادًا لاذعًا، وضعه بين لإيقاف موجة الإلحاد التي اجتاحت فرنسا في عصر الثورة. ومع ذلك، فإن علماء اللاهوت والجماعات الدينية الأرثوذكسية أدانوا بين بشدةٍ ووصفوه بأنه متطرف خطير، وغير مؤمن.

عندما رجع بين إلى أمريكا في سنة ١٨٠٢م وجد أنه لم يُستقبل كبطل ثوري، بل كان منفيًّا من المجتمع بواسطة القادة السياسيين وأعضاء الكنيسة؛ بسبب تأليف كُتيب

«عصر العقل» ونظرياته السياسية المتطرفة. وفي نيوروشيل New Rochelle ونيويورك حيث استقر، ضنَّ عليه بحق التصويت بحجة أنه ليس مواطنًا أمريكيًّا. ليس هذا فحسب، بل وحدثت محاولة لاغتياله. وبعد سبعة أعوامٍ من سوء المعاملة والكراهية والإهمال والفقر واعتلال الصحة، مات في سنة ١٨٠٩م في الثانية والسبعين من عمره، فمنع من الدفن في مقابر الكواكر Quaker (أصدقاء مذهب جورج فوكس).

بقيَت العداوة والأكاذيب والتعصُّبات العنيفة التي لقيها بين في أواخر سني حياته إلى العصور الحديثة؛ فقد أشار إليه ثيودور روزفلت Theodore Roosevelt بقوله: «ذلك الملحد الصغير القذر.» وهكذا كان بين مثل «الإمبراطورية الرومانية المقدسة»، التي لم تكن إمبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة، فلم يكن بين ملحدًا ولا صغيرًا ولا قذرًا. وحديثًا حتى سنة ١٩٣٢م منع إذاعة برنامج إذاعي عن بين في محطة إذاعة مدينة نيويورك.

انتُخب بين في «قاعة الشهرة لعظماء الأمريكيين»، ولكن هذا لم يكن قبل سنة ١٩٤٥م، أي بعد تأسيس تلك القاعة بخمس وأربعين سنة. وفي السنة عينها أعادت مدينة نيوروشيل لذلك البطل الثوري حقوق المواطنين التي فقدها في سنة ١٨٠٦م.

كان ذلك هو الرجل الذي استحق، ربما أكثر من أي شخصٍ آخر، لقب «مؤسس الاستقلال الأمريكي». ذلك الذي كان أول من استخدم العبارة «الولايات المتحدة الأمريكية»، الذي رأى مسبقًا أن «الولايات المتحدة الأمريكية ستكون عظيمةً في التاريخ مثل مملكة بريطانيا العظمى»، والذي أعلن أن «قضية أمريكا هي، بمعنى أكبر، قضية البشرية كلها». وما من إشارةٍ توضِّح خلق بين خيرٌ من ردِّه على عبارة فرانكلين: «أينما توجد الحرية، يوجد وطني.» فقال بين: «حيثما لا توجد الحرية يوجد وطني.»

وحتى في عصره، لم تكن أنشودة الكراهية وعدم الاعتراف بالفضل؛ عامَّيْن. وقد تجاسر أندريو جاكسون Andrew Jackson أن يقول: «ليس ثوماس بين بحاجةٍ إلى تمثالٍ مصنوع بالأيدي إذ أقام تمثالًا في قلوب جميع عشاق الحرية.»

الفصل الثالث

القديس حامي المشاريع الحرة: آدم سميث[1]

ثروة الأمم

بعد أن مضى شهران على إسهام كتاب «الإدراك العام» في إعلان الاستقلال والأحداث المعاصرة الأخرى للثورة الأمريكية، ظهر في لندن كتابٌ قُدِّر له أن يُحدث ردَّ فعلٍ عميق في مجال آخر من مجالات النشاط البشري. وعلى نقيض كُتيب بين الملهب للمشاعر، كانت رسالة آدم سميث الطويلة، ذات المجلدَيْن بعنوان «تساؤل عن طبيعة وأسباب ثروة الأمم»، قنبلة زمنية، جذبت قليلًا من الانتباه في أول الأمر، والواقع أن هذا المؤلف لم ينجح في إحداث الأثر المرجو كاملًا، إلا في القرن التالي لموت مؤلفه بعد الثورة الأمريكية، وكانت الثورة الفرنسية في طور التدبير، وتقدم الانقلاب الصناعي بسرعةٍ مدفوعًا إلى الأمام باكتشاف قوة البخار. وقد وصف أحد المعلِّقين الحقبة الماضية بأنها «العصور المظلمة للعصر الحديث.» وفي إنجلترا، كان كل مظهرٍ من مظاهر الحياة الاقتصادية تحت المراقبة الدقيقة للحكومة. جمدت الأسعار، وحددت الأجور وساعات العمل، وعُدِّل الإنتاج، وسيطرت الدولة تمامًا على التجارة الخارجية من واردات وصادرات، وتكاد الحرب تكون موجودةً باستمرار. فتتطلب السياسة القومية جيشًا وبحرية قويين، وشعبًا ضخمًا، والاستيلاء على المستعمرات في جميع بقاع الأرض، وإضعاف الدول المنافسة مثل

[1] Adam Smith.

فرنسا بالطرق الطيبة أو الشريرة. ولقي كل اقتراحٍ لتوزيع الثروة بالعدل، معارضة عنيفة من الطبقات الحاكمة. واقتصر التعليم على القلة المحبوة، وكانت القوانين الجنائية بالغة القسوة والحقوق السياسية للجمهور موجودة نظريًّا أكثر منها عمليًّا.

وكما كانت الحال لعدة أجيال، ما زالت تملك الأريستوقراطية القائمة قابضة على زمام الحكومة. غير أنه قامَت طبقةٌ جديدة قوية من التجار والصناع، تُطالب بامتيازات خاصة لأنفسها، فحصلت عليها. كانت الصادرات في نظر هذه الفئة نعمًا، والواردات كوارث، ويجب ألَّا يُسمح للأموال بمغادرة الدولة. يجب الاحتفاظ دائمًا بميزان تجاري مرموق، يجب أن تكون أجور العمل منخفضة، وساعاته طويلة، ويجب حماية الصناعات الوطنية بتعريفة جمركية عالية. ومن الضروري امتلاك أسطولٍ تجاري قوي، وفرض كل إجراء من شأنه أن يُساعد التجار تلقائيًّا، وذلك لفائدة الأمة ككل. وتحت ضغط الأصوات القوية أصدر البرلمان قرارًا بتحويل جميع هذه المقترحات إلى قوانين.

بعد ذلك جاء آدم سميث معتزمًا نسف ما اعتبره آراء خطأ وضارة. ويمكن اعتبار حياة رجولة سميث حتى هذه المرحلة إعدادًا للعمل الضخم الذي وطد نفسه للقيام به. كان مواطنًا اسكتلنديًّا التحق في الرابعة عشرة من عمره (سنة ١٧٣٧م) بجامعة جلاسجو حيث وقع تحت نفوذ أستاذه العظيم فرنسيس هتشسون Francis Hutcheson الذي كثيرًا ما كان يكرِّر مذهبه «السعادة العظمى للعدد الأعظم»، حتى صار ذلك المذهب فلسفة سميث الدائمة. وبعد ذلك ذهب إلى جامعة أكسفورد حيث بقي ست سنوات كرَّس معظم وقته فيها لقراءة الأدب على مدًى واسع. ولما عاد إلى اسكتلندا، أخذ يُلقي المحاضرات في إدنبره Edinburgh حتى سنة ١٧٥١م عندما عُيِّن أولًا أستاذًا لكرسي علم المنطق ثم الميتافيزيقا ثم أخيرًا الفلسفة الأخلاقية في جامعة جلاسجو. ظل مدة اثنتي عشرة سنة يعمل محاضرًا موهوبًا ذائع الصيت، وزادت شهرته عندما نشر كتابه «نظرية العواطف الأخلاقية» الذي لقي رواجًا عظيمًا، وهو مؤلف اعتبره معاصروه أفضل من «ثروة الأمم». وإذ أغرته المكافآت المالية السخية، استقال من منصبه كأستاذ، ليصاحب أحد الشبان النبلاء كرفيق ومدرس، في رحلة إلى أوروبا تستغرق ثلاث سنوات. وهناك تعرف على روَّاد الاقتصاد والفلاسفة والمفكرين السياسيين لذلك العصر، ولا سيما في فرنسا.

وفي سنة ١٧٥٩م، تضمنت مذكرات سميث فكرة «ثروة الأمم»، ولكن العمل فيه سار ببطء إلى أن أتى ثمرته. فاستغرق سنوات من التأمُّل والدراسة والقراءة والملاحظات المبدئية والتحدُّث إلى أناسٍ من مختلف المشارب في الحياة، ومراجعات لا تنتهي، قبل أن

يُعدَّ هذا المؤلف للطبع. وقبل نشر هذا الكتاب، قضى سميث معظم ثلاث سنوات في لندن حيث ناقش كتابه هذا مع بنيامين فرانكلين مندوب المستعمرات الأمريكي. ولم يخرج ذلك الكتاب من المطبعة إلا في التاسع من مارس سنة ١٧٧٦م. ومنذ ذلك التاريخ طُبع منه عدة طبعات، وتُرجم إلى معظم اللغات الحية في العالم.

كان كتاب «ثروة الأمم» دائرة معارف أكثر منه مجرد رسالة في الاقتصاد. وأطلق عليه أحد النقاد اسم «تاريخ ونقد جميع الحضارات الأوروبية.» بدأ سميث بمناقشة موضوع تقسيم العمل، ثم عرج على نشأة النقود وفائدتها، وأسعار السلع، وأجور العمل، وأرباح التجارة، وإيجار الأرض، وقيمة الفضة، والفرق بين العمل المنتج وغير المنتج. بعد ذلك شرح التقدم الاقتصادي في أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية، وقام بتحليلات واسعة لنقد السياسات التجارية والاستعمارية للأمم الأوروبية، ودخل الملك، ومختلف طرق الدفاع عن العدل، وإقامته في المجتمعات البدائية، ونشأة ونمو الجيوش القائمة في أوروبا، وتاريخ التعليم في العصور الوسطى، ونقد للجامعات في عصره، وتاريخ القوة الدنيوية للكنيسة، وتضخم الديون الشعبية، وفي النهاية اختبار لمبادئ نظام الضرائب وأنظمة الدخل العام.

قد تكون القضية العامة التي بنى عليها سميث كتابه «ثروة الأمم» من وَضْع نيقولو ماكيافيلي Niccolo Machiavelli ونصها: كل بشرٍ تُحركه أولًا وقبل كل شيء، مصالحه الشخصية. وليست الرغبة في الثروة إلا أحد المظاهر هذه. وتقف دوافع الأنانية وراء جميع أنشطة البشرية. وزيادة على هذا، فبدلًا من أن يجد سميث أن هذا المظهر في سلوك الإنسان ممنوع وغير مرغوب فيه، اعتقد أن أنانية الفرد تؤدي إلى صالح المجتمع. قال إن خير طريقة لرفاهية الأمة، هي السماح لكل إنسان بأن «يبذل جهدًا منتظمًا ومستمرًّا بدون انقطاعٍ لتحسين حالته ... لا نتوقع الحصول على غذائنا من إنسانية الجزار أو صانع البيرة أو الخباز، بل من نظرتهم إلى صالحهم. إننا نخاطب أنفسنا، ليس عن حبهم لخير البشر، وإنما عن حبهم لأنفسهم، ولا نتحدث إليهم قط عن حاجاتنا وإنما عن منفعتهم. وبسبب أمثال هذه الفقرات، تحدث راسكين Ruskin عن سميث على أنه الرجل الاسكتلندي ذو نصف التربية ونصف الذكاء، الذي علم التجديف الصريح، «إنك ستبغض الرب إلهك، وتلعن ناموسه، وتحسد جارك على خيراته».

قال سميث: «إن الصناعة الحديثة تغدو ممكنةً بتقسيم العمل، وتكديس رأس المال، وكلٌّ من هذين مفسر بالصالح الشخصي أو «النظام الطبيعي»، كما وصفه فلاسفة

القرن الثامن عشر. ودون وعي، تقود «يد إلهية» الإنسان كي يُسهم في خير الكل بالعمل من أجل نفسه ومن أجل ربحه. ومن الطبيعي أن يتبع ذلك أنه يجب أن يكون هناك أقل قدر ممكن من تدخل الحكومة في النظام الاقتصادي — فخير حكومة، كما قال توم بين في مناسبة أخرى، هي الحكومة التي تحكم بأقل ما يمكن من الحكم.»

تناول سميث صناعة الدبابيس، كتفسير بياني لشرح مزايا تقسيم العمل: «فالصانع الذي لم يتعلَّم هذه الصناعة ... ولا يعرف طريقة استعمال الآلات المستخدمة فيها ... فربما أنه قلَّما يستطيع بأكبر جهدٍ أن يصنع دبوسًا واحدًا في اليوم، وبالتأكيد لا يستطيع إطلاقًا أن يصنع عشرين دبوسًا.» وبتقسيم عملية الصنع «إلى ثماني عشرة عملية متفرقة، تقوم بها جميعًا في بعض المصانع، عدة أيادٍ متفرقة ... رأيت مصنعًا صغيرًا من هذا النوع حيث يعمل عشرة رجال فحسب ... يصنعون فيما بينهم ثمانية وأربعين ألف دبوس في اليوم.» كان هذا «نتيجة للتقسيم الصحيح لعملياتهم الصعبة وتجميعها.»

وأردف سميث يقول إن نشأة تقسيم العمل كانت عند الشعوب البدائية:

فمثلًا يوجد بين أفراد قبيلةٍ من الصيادين أو الرعاة، شخص معين يقوم بصناعة القسي والسهام بحذقٍ ومهارةٍ أكثر من أي شخصٍ غيره في تلك القبيلة. فغالبًا ما يُقايض هذا الشخص على القسي والسهام بالماشية أو بلحوم الصيد مع زملائه. فيجد أنه بهذه الطريقة يحصل على ماشيةٍ ولحوم صيد أكثر مما لو أنه ذهب بنفسه إلى الحقل ليصيدها. وعلى هذا، فمن نظرته إلى صالحه، صارَت صناعة القسي والسهام عمله الرئيسي.

ويتفوَّق شخص آخر في صناعة هياكل وأغطية أكواخهم الصغيرة أو بيوتهم المتنقلة ...

وبنفس هذه الطريقة يصير شخص ثالث حدادًا أو نحاسًا، ويغدو شخص رابع دباغ جلود ... وهكذا؛ إذ يتأكَّد كل فردٍ من قدرته على مبادلة كل ما يزيد عن حاجته مما يصنعه بنفسه، بما يزيد عن حاجة رجلٍ آخر مما صنعه هذا الأخير، كلما سنحَت له الفرصة، فإن هذا يشجِّع كل إنسانٍ على أن يقصر جهده على عمل واحد بعينه، وينمِّي في نفسه كل حذقٍ وبراعةٍ وموهبةٍ يملكها لإتقان ذلك النوع المعين من العمل الذي ارتضاه لنفسه.

ينتقل سميث بعد ذلك إلى موضوع النقود وأسعار السلع، فيذكر مبدأ يهاجمه علماء الاقتصاد الأصليون على أنه خطأ، ولكنه أقرَّ في حقبات تالية على أنه صرخة وثرثرة المفكرين الاشتراكيين، فيقول سميث: «العمل وحده لا تتغير قيمته أبدًا، وهو وحده

المستوى الحقيقي والأخير، الذي به تقدر وتقارن جميع السلع، في جميع الأزمنة والأمكنة. إنها ثمنه الحقيقي، أما النقود فثمنه الاسمي فقط.»

لم يكن سميث أكثر صراحة في أي موضعٍ آخر من كتاب «ثروة الأمم»، وأحيانًا ليس أكثر سخطًا، منه في تعليقاته على عدم المساواة في المساومة بين أصحاب العمل والعمال، وفي معارضته لفكرة المتاجرة القائلة بأن الأجور المنخفضة تُجبر العمال على أن يعملوا أكثر، وبذا يزيدون في رخاء إنجلترا. فيبدي ملاحظته على النقطة الأولى قائلًا: «يرغب العمال في الحصول على أكثر ما يمكن، ويرغب السادة في إعطاء أقل ما يمكن. فوطد العمال العزم على الاتحاد ليرفعوا أجور العمل، واتحد أصحاب العمل ليخفضوها.»

ويستطرد قائلًا:

إذن، فليس من الصعب التنبؤ بمن من هذين الطرفين سيكون له الفوز، في جميع الظروف العادية، في هذا النزاع، فيجبر الآخر على التسليم بشروطه. ولما كان أصحاب العمل أقل عددًا، فيمكنهم الاتحاد بسهولة أكثر، فضلًا عن أن القانون دائمًا إلى جانب السلطات، أو على الأقل، لا يحرم اتحاداتهم بينما هو يحرم اتحاد العمال. ليس لدينا قراراتٌ برلمانية ضد الاتحاد لخفض أجور العمل، ولكن هناك قرارات كثيرة ضد الاتحاد لرفعها. وفي جميع أمثال هذه النزاعات، بوسع أصحاب العمل الصمود مدة أطول بكثير؛ فصاحب الأرض أو المزارع أو صاحب المصنع أو التاجر، يمكنهم، حتى ولو لم يجدوا واحدًا أن يصمدوا، عمومًا، لمدة سنة أو سنتين بما ادخروه من قبل من مكاسبهم، بينما لا يستطيع كثير من العمال الصمود أكثر من أسبوع، ويستطيع قليلون الصمود مدة شهر وقلَّما تجد من بوسعه أن يصمد بدون عمل مدة سنة. ومع الوقت الطويل، قد يصبح العامل ضروريًّا لصاحب العمل ضرورة صاحب العمل للعامل، ولكن هذه الضرورة ليست هكذا مباشرة.

يبدو عطف سميث الواضح على العمال الفقراء في مثل هذه الفقرات:

«يتكون الجزء الأعظم في كل مجتمع سياسي من الخدم والعمال والصناع على اختلاف أنواعهم، ولكن ما يعمل على تحسين ظروف هذا الجزء الأعظم لا يمكن اعتباره، بحال ما، متعبًا للمجموع. فما من مجتمع بوسعه أن يعيش سعيدًا في رخاء، طالما كان هذا الجزء الأعظم من أعضائه فقيرًا بائسًا. هذا مؤكد. وعلاوة على ذلك، فإنه من العدل أن يحظى أولئك الذين يغذون ويكسون ويسكنون جموع الشعب كلها، بنصيب من إنتاج عملهم، فيتمتعون بالغذاء. الغذاء والمسكن الملائمين ... وهذان مكافأة حرة على العمل ... تزيد في

نشاط سواد الشعب. وأجور العمل تشجع النشاط، الذي هو كأيَّة صفةٍ بشريةٍ أخرى، يتحسَّن بنسبة ما يناله من تشجيعٍ … وإننا لنجد العمال أكثر نشاطًا واجتهادًا وسرعة حيث الأجور عالية، منهم حيث الأجور منخفضة.»

ثم يقول:

«يشكو تجارنا وأصحاب مصانعنا مُر الشكوى من الأثر السيئ الذي تحدثه الأجور العالية في ارتفاع الأسعار؛ وبالتالي قلة مبيعات منتجاتهم محليًّا وفي الخارج، ولا يقولون شيئًا عن الأرباح العالية. إنهم صامتون عن الآثار الوبيلة لأرباحهم. إنهم يشكون فقط من أرباح غيرهم.»

تنبَّأ سميث بنظريات مالثوس قبل نشر كتاب «مبادئ السكان» باثنتَيْن وعشرين سنة.

«تتكاثر كل فصيلةٍ من الحيوانات طبيعيًّا بالنسبة إلى وسيلتها في الحياة، ولا يمكن لأي فصيلة أن تتكاثر بما يزيد على تلك الوسيلة. أما في المجتمع المتحضر، فنجد بين الطبقات الدنيا فقط من الناس، أن قلة مقومات الحياة هي التي تحدُّ من تكاثر الأجناس البشرية، ولا يمكنها أن تفعل ذلك بأية طريقةٍ غير إبادة الجزء الأعظم من الأطفال الذين يولدون نتيجة للزواج المثمر.»

وبالنظر إلى أرباح العمل في العصور الحديثة، من الصعب تصديق كل تلك الممنوعات والقيود الإقطاعية التي سادت في القرن الذي عاش فيه آدم سميث. لم يكن تحريم أية صورة من صور التنظيم العمالي سوى أحد القيود الصارمة المفروضة على العمال. كما كانت قوانين التلمذة الصناعية، وقانون الإقامة أشد وأنكى من القيد السابق.

يرجع تاريخ قانون التلمذة الصناعية إلى عصر الملكة إليزابيث. وكما يصفه سميث، ينصُّ على «أنه محظور على أي شخص أن يمارس في المستقبل أية حرفة أو مهنة أو أي عمل غامض، في إنجلترا، في ذلك الوقت، إلا إذا كان قد سبق له أن تتلمذ في ذلك العمل لمدة سبع سنوات على الأقل.» وفي أثناء هذه السنوات السبع، كان صاحب العمل يمد التلميذ بالقوت الضروري فحسب. وبطبيعة الحال، انتهز أصحاب العمل المعدومو الضمير هذا القانون كي يستغلوا عمَّالهم ليأخذوا الكثير ويعطوا القليل، بينما كان الصنَّاع المتتلمذون أشبه بالعبيد. ولكي يشهر سميث بهذه الطريقة، قرر أنه لا حاجة إطلاقًا لمدة التلمذة الطويلة هذه؛ لأنه بالإمكان استيعاب معظم الحرف في بضعة أسابيع. ثم إن قوانين التلمذة الصناعية كانت تدخلًا تعسفيًّا في حقوق العامل يمنعه من إبرام عقد عمله، ومن اختيار عمله ومن الانتقال من عمل قليل الأجر إلى عمل آخر أكثر أجرًا.

وبالمثل، كان قانون الإقامة ظالمًا أيضًا: «أجرؤ على القول بأنه قلَّما يوجد رجلٌ فقير في الأربعين من عمره، في إنجلترا، لم يشعر في أي وقتٍ من حياته بأنه مغبون غبنًا أي غبن بسبب قانون الإقامة هذا.» وكما حدث في قانون التلمذة الصناعية، صدر ذلك القانون في العصر الإليزابيثي أيضًا. كان الغرض الأساسي منه إقرار النظام في توزيع إعانات الفقر. كانت كل أبروشية مسئولة عن الاهتمام بأعضائها الفقراء. ولمنع زيادة عدد الفقراء في المجتمع، لم يسمح للفقراء الجدد بالإقامة هناك إلا إذا كان لهم معين يكفل معيشتهم. وبتطبيق هذا القانون على العمال، كان الأثر العملي لهذا القانون خلق طبقة من المسجونين مؤبدًا في مسقط رأسهم، واضعًا عقبات كَأْداء في طريق العامل الراغب في الانتقال من منطقة إلى أخرى. كان هناك مثل أيضًا، في تقدير آدم سميث، لعدم المساواة في تدخل الحكومة في حقوق الإنسان وفي الناموس الطبيعي للنظام الاقتصادي.

حاول سميث التمييز بين العمل المنتج والعمل غير المنتج بقوله:

«لن تفتقر الأمم العظمى بالتبذير العام وسوء السلوك، ولو أنها قد تفتقر بهما أحيانًا، فكل الدخل القومي أو معظمه، في معظم الدول، يُستخدم في الاحتفاظ بالأيدي غير المنتجة. هكذا الشعوب التي تحتفظ ببلاطٍ فخمٍ كبير العدد، وبمؤسسة إكليريكية كبيرة، وأساطيل عظيمة وجيوش ضخمة، تلك التي، في زمن السلم، لا تُنتج شيئًا بعوض ما ينفق على الاحتفاظ بها، حتى ولو كانت الحرب قائمة. فمثل أولئك الناس، الذين لا ينتجون شيئًا، يعيشون بما يُنتجه عمل أناس آخرين. وإذا ضوعفوا إلى عددٍ غير ضروري، فإنهم في سنةٍ معينة يستهلكون جزءًا عظيمًا من هذا الإنتاج غير تاركين ما يكفي للاحتفاظ بالعمال المنتجين.»

ولسوء الحظ، أن المستعمرات الأمريكية لم تُلق بالًا كذلك إلى النصائح السليمة عن عمل العبيد.

«أعتقد أن تجارب جميع العصور وكافة الأمم، تُبرهن على أن العمل الذي يقوم به العبيد، رغم أنه يبدو أنه لا يكلِّفهم سوى نفقات الاحتفاظ بأولئك العبيد، فهو في النهاية أغلى عمل. فالشخص الذي لا يمكنه اكتساب أية ممتلكات لا يمكنه الحصول على أية منافع إلا أن يأكل أكثر ما يستطيع، ويعمل أقل ما يمكن. فأيُّ عملٍ يقوم به أكثر مما يكفي لشراء ما يلزم لحياته، لا يمكن اعتصارُه منه لا بالعنف ليس غير، لا بمحض إرادته واختياره.»

بعد ذلك انتقل سميث من قضايا العمل إلى الدفاع عن إصلاح قضايا الأرض. وهنا أيضًا يرى أن اللوائح الحكومية غير الحكيمة، والقوانين غير الملائمة، تقف في طريق

التقدم؛ فمعظم الأراضي البريطانية في القرن الثامن عشر، كانت خاضعة للوصاية. بوسع مالك الأرض أن يصدر قواعد لتقسيم أرضه وبيعها، يلتزم بها ورثته لعدة قرونٍ بعد موته. ومن العادات القديمة الأخرى، حق الابن الأكبر في جميع الميراث عن والدَيْه. وهذه عادةٌ إقطاعية تمنع تفتيت الملكيات الكبيرة. فبهذا القانون يكون الابن الأكبر هو الوارث الوحيد. وقد علق سميث على هذا بقوله: «لا شيء يمكن أن يضر بصالح أية أسرةٍ كبيرة، إلا ذلك الحق، الذي لكي يغني فردًا واحدًا منها، يسوق بقية الأولاد إلى فقرٍ يؤدي بهم إلى مد أيديهم للسؤال.» وعلى هذا، حثَّ بإلحاحٍ على حرية الاتِّجار في الأراضي بإلغاء قوانين التوصية وقانون حق الابن الأكبر في الميراث، وغير هذه من قيود نقل ملكية الأراضي بالهبة أو بالوصية أو بالبيع.

تتناول فقرة شهيرة من كتاب «ثروة الأمم»، المستعمرات، ويؤكد مصدر حجة، أن هذه «لا تزال أفضل ملخص لسياسة المستعمرات، كُتب حتى ذلك الوقت.» وتنقسم مناقشة هذه القضية إلى ثلاثة أقسام: (١) «دوافع إقامة مستعمراتٍ جديدة»، استعرض فيها المشروعات الاستعمارية لكلٍّ من اليونان وروما وفينيسيا والبرتغال وإسبانيا. (٢) «أسباب رخاء المستعمرات الجديدة»، نذكر تلك العوامل، مثل الأراضي الواسعة والرخيصة، والأجور العالية، ونمو السكان السريع، وإلمام المستعمرين بالزراعة والفنون الأخرى (ويقارن بين السياسات الاستعمارية المستنيرة لإنجلترا، وبين السياسات الاستعمارية الضيقة والمقيدة لكلٍّ من البرتغال وإسبانيا). (٣) «عن الميزات التي حصلت عليها أوروبا من اكتشاف أمريكا، ومن طريق الوصول إلى جزر الهند الشرقية عن طريق رأس الرجاء الصالح»، وهذان اكتشافان يقول عنهما سميث: «إنهما أعظم وأهمُّ اكتشافَيْن سجَّلهما تاريخ البشرية.»

هاجم سميث القيود الموضوعة على المستعمرات لاحتكار تجارتها فقال إنها اعتداء على «الحقوق الطبيعية» لتلك المستعمرات، كان النظام التجاري في المستعمرات سخيفًا وباهظ النفقات، شأنه شأن النظام المستعمل في الدولة المستعمرة نفسها. كذلك كان هناك استنزافٌ ماليٌّ للقوة المستعمرة؛ لأن المستعمرات لن ترضى بمحض اختيارها، أن تفرضَ على نفسها ضرائب تكفي نفقات الدفاع عن نفسها.

استطاع سميث أن ينظر إلى المستعمرات الأمريكية المتمردة بموضوعية أكثر من نظرة معظم مواطنيه. اعتقد أن الحل المناسب لهذه القضية هو تمثيل تلك المستعمرات الأمريكية في البرلمان البريطاني — الاتحاد بدلًا من الانفصال، بتمثيل مبني على الدخول

الضريبية. وإذا انتهى الأمر، كما يمكن أن ينتهي، بأن يزيد الأمريكيون في الضريبة البريطانية، فإنه من الممكن نقل تلك الأموال عبر الأطلنطي «إلى جزء الإمبراطورية الذي أسهم أكثر من غيره في الدفاع العام وتأييد الكل.» قد يكون هذا ردًّا على تأكيد توم بين بأنه من السخافة الاعتقاد أن بوسع جزيرة أن تستعمر قارة استعمارًا دائمًا. إذ عندئذٍ يجب أن تنعكس الأوضاع.

أكد سميث على ضرورة استقلال المستعمرات الأمريكية إذا لم يكن تسوية الخلافات سلميًّا بينها وبين إنجلترا، ولو أنه اعترف بالواقع، فقال: «إن الاقتراح بأن تتنازل بريطانيا العظمى عن كل سلطة لها على مستعمراتها، وتتركها تنتخب حكامها وتشرع قوانينها، وتصنع السلم أو تعلن الحرب كما يتراءى لها الأصلح لنفسها، يعني اقتراح نظام لم يحدث قط من قبل، ولن تتخذه أية أمة في العالم … فما أصعب ما يصير حكمها، وما أقل الدخل الذي تدفعه بالنسبة إلى النفقات التي أنفقت عليها!»

يتجلَّى رأي سميث النير وبصيرته الثاقبة في هذه الفقرة التي يتنبأ فيها بمستقبل أمريكا:

«لقد تحوَّل أهالي المستعمرات الأمريكية، من بائعين وتجار وقضاة إلى سياسيين ومشرعين، استخدموا في تكوين صورة جديدة من الحكومة الإمبراطورية واسعة، معللين أنفسهم بأنها ستصير أعظم وأقوى إمبراطورية شهدها العالم، ومن المتوقع أن يحدث هذا.»

إن أشهر قِسم، وهو بيت القصيد، في كتاب «ثروة الأمم»، هو الجزء الرابع وعنوانه «عن أنظمة الاقتصاد السياسي». تناول فيه سميث نظامين مختلفين؛ نظام التجارة ونظام الزراعة، وشغل موضوع التجارة مكانًا يبلغ ثماني مرات ما شغله الكلام عن الزراعة. فتناول مبادئ «حرية العمل» التي اقترنت باسمه منذ ذلك الوقت. وقد انتهت المناقشة الخاصة بكلٍّ من العمل والأراضي والسلع والنقود والأسعار والزراعة والماشية والضرائب إلى نقطةٍ واحدةٍ هي حرية التجارة داخليًّا وخارجيًّا. لن تحصل الأمة على التقدم الكامل والرخاء إلا عن طريق التجارة غير المقيدة، في الداخل وفي الخارج … ناشد سميث الأمم إلغاء الرسوم الجمركية والتبرعات والتحريم من النظام التجاري، والاحتكارات التجارية للشركات المتعهدة. فكل هذه القيود تعوق النمو الطبيعي للصناعة والتجارة وحرية وصول السلع إلى المستهلكين. كما تترك المبدأ الزائف، مبدأ «التوازن التجاري» الذي يحبذه التجار. ليست النقود سوى أداةٍ «وليس هناك مقياسٌ يمكننا بواسطته معرفة على أي

جانبٍ يقع ما يُسمَّى بالتوازن التجاري بين دولتَيْن أو أي منهما تصدر بأكبر قيمة … ليست الثروة في النقود ولا في الذهب ولا في الفضة، وإنما فيما تشتريه النقود ويستحق الشراء فعلًا.»

وتقسيم العمل ضروري ومنطقي بين الأمم كما هو بين الأفراد.

«الميزات الطبيعية لدولةٍ على أخرى في إنتاج سلعٍ بعينها، عظيمة في بعض الأحيان، لدرجة أن العالم كلَّه يُعلن أنه من العبث منافستها في تلك السلع. فبواسطة الأقبية الزجاجية والأحواض والحوائط الدافئة يمكن إنتاج أنواع من العنب بالغة الجودة في اسكتلندا. وكذلك يمكن صنع نبيذ جيد جدًّا منها بنفقات تبلغ ثلاثين ضعفًا، على الأقل، لما يمكن جلبه من الدول الأجنبية ويكون مماثلًا له في الجودة. فهل يكون من المعقول إصدار قانون يحرم استيراد جميع الأنبذة الأجنبية لمجرد تشجيع صنع النوعَيْن المعروفَيْن بالكلاريت Claret والبرجندي Burgundy في اسكتلندا؟»

لخَّص سميث الميزات الاقتصادية للتجارة الحرة في هذه الحقائق:

«شعار كل رب أسرة حازم ألَّا يُحاول أن يصنع في منزله ما يكلفه صنعه أكثر مما يدفع في شرائه … وما هو حزم في مسلك كل أسرة قلَّما يكون غباء في مملكة عظمى. فإذا كان بوسع دولة أجنبية أن تورد لنا سلعة بأرخص مما يكلفنا صنعها بأنفسنا، فمن الخير أن نشتريها منها نظير نوعٍ ما من منتجات صناعتنا، مستخدمة بطريقة تحقق لنا بعض الميزات.»

أكد سميث المنافع المتبادلة من التجارة الأجنبية بقوله:

«إذا تمَّت تجارة أجنبية بين أي مكانين، حصل كلٌّ منهما على فائدتَيْن واضحتَيْن. تأخذ تلك التجارة فائض إنتاج أرضٍ وعمل كل منهما الذي ليس له طلب فيهما، وتجلب بدلًا منه شيئًا له طلب … وبهذا التبادل لا يعوق ضيق السوق المحلية تقسيم العمل في أي فرع بعينه من الفنون أو الصناعة أن يسير إلى أعلى درجات الكمال. وإذا ما فتحت دولة ما سوقًا أوسع لأي جزء من إنتاج عملها يفيض عن الاستهلاك المحلي فيها، فإنها تشجع بذلك قوتها الإنتاجية وتحسنها وتزيد في إنتاجها السنوي إلى أقصى حد، وبذا تزيد في الدخل الحقيقي والثروة الحقيقية للمجتمع.»

يتضح أن سميث كان عقيديًّا محضًا في تأكيده على حرية التجارة مع بعض استثناءات أو تحديدات معينة رغب في إبدائها لتطبيق هذا المبدأ، فأشار في بضع حالات بقوله: «ومن المفيد عمومًا إلقاء بعض الأعباء على الصناعة الأجنبية لتشجيع الصناعة

المحلية. وأول تلك الأعباء هو عندما يلزم نوع معين من الصناعة للدفاع عن الدولة حتى ولو لم يكن تحقيق ذلك لأسبابٍ اقتصاديةٍ محضة؛ لأن «الدفاع أهم بكثيرٍ من الرخاء».» ولما كان سميث يعيش في دولةٍ محاربة، فقد سلَّم بأن الأمم الغنية التي من المفيد لنا أن نتبادل معها التجارة في وقت السلم تغدو أعداء أشد خطرًا في وقت الحرب من الدول الفقيرة. كما وافق على أن إصدار تعريفةٍ جمركيةٍ وقائيةٍ على «الصناعات الناشئة» يُساعدها على النمو بسرعةٍ أكثر، ربما إلى درجةٍ تسمح بإمكان الدفاع عنها اقتصاديًّا. وزيادة على ذلك، أوصى سميث بأن كل تخفيضٍ في التعريفة الجمركية يجب أن يتم «ببطء وتدريجيًّا وبعد تحذيرٍ طويلٍ جدًّا.» وذلك لحماية الاستثمارات النباتية في الصناعة غير القادرة على الصمود أمام المنافسة الأجنبية، ولتزويد العمال بمهلة يبحثون فيها عن أعمال جديدة. كانت هذه اعترافات واقعية لمجادلات خصوم التجارة الحرة.

إذا رفعت الحكومة أيديها عن الأعمال والصناعة والزراعة ومعظم الأنشطة اليومية للأمة، كما قال سميث، فما الذي يعتبره وظائف مناسبة للحكومة؟ سيكون نطاق المسئولية ضيقًا؛ فالوظيفة الأساسية للحكومة تقتصر على صدِّ الهجوم الأجنبي وإقامة العدل، وكذلك يرغب سميث في أن تقوم الحكومة «بتشييد وصيانة أنواع معينة من الأشغال العامة، وبعض المؤسسات العامة، التي لا يمكن إطلاقًا أن تكون لصالح أي فرد أو لصالح عدد بسيط من الأفراد تشدُّها وتصونها؛ لأن الفائدة لأي فرد أو لعدد بسيط من الأفراد، لا يمكن أن تعوض نفقاتها، ولو أنها كثيرًا ما تفيد المجتمع الكبير بأكثر من نفقاتها.» وقد ذكر سميث في القائمة البسيطة التي حدَّدها لوظائف الحكومة؛ صيانة الطرق الرئيسية وإضاءة شوارع المدن، وإمداد الأهالي بالماء. وهكذا رأى آدم سميث عذرًا بسيطًا لبقاء ما أطلق عليه «الحيوان المراوغ المكَّار الذي يحمل اسمًا مبتذلًا نُسميه: السياسي.» خارج المحافظة على الأمن الخارجي والنظام الداخلي.

كان سميث في أحد استثناءاته سابقًا كثيرًا لعصره — إسهام الحكومة في تعليم الشعب، ويعلِّق في تدعيم حجته بخصوص التعليم الشعبي، بقوله:

«الرجل الذي لا ينتفع الانتفاع المناسب بالمواهب العقلية للإنسان، يستحق الازدراء، إن أمكن، أكثر من ازدرائنا للجبان، ويبدو مشوهًا في عضو رئيسي من أعضاء أخلاق الطبيعة البشرية. ورغم أن الحكومة لا تجني فائدةً من تعليم الطبقات الدنيا من الشعب، فمما يستحق اهتمامها ألَّا يكونوا غير متعلمين تمامًا. ومع ذلك، فلا تجني الحكومة فائدةً كبيرة من تعليمهم. فكلما كانوا متعلمين، كانوا أقل عرضة للانسياق في تيار الخزعبلات

والخرافات التي تسبب أفظع حالات الإخلال بالنظام بين الأمم الجاهلة. وزيادة على ذلك، فإن الشعب المتعلم الذكي أكثر احتشامًا ونظامًا من الشعب الجاهل الغبي. يشعر كل فردٍ منهم بأنه محترمٌ وبأنه جديرٌ باحترام رؤسائه الشرعيين. وعلى ذلك، يكون أكثر استعدادًا لأن يحترم أولئك الرؤساء ... وفي الدول الحرة، حيث يتوقف أمن الحكومة كثيرًا جدًّا على الحكم الذي يكونه الشعب على مسلك هذه الحكومة؛ ولهذا يكون من المهم جدًّا ألا يكون الشعب ميَّالًا إلى الحكم عليها بتهورٍ أو بتعصُّب.»

إن تقدير آدم سميث وكتابه غير المتحيز وغير المحابي، معقد، حتى بعد مرور حوالي مائتي عام. فمثلًا هناك نظرة باكل Buckle في كتابه «تاريخ المدنية» إذ يقول: «ربما كان كتاب ثروة الأمم ... أهم كتاب وضع، سواء اعتبرنا ما يضمه من كمية الفكر الأصلي، أو نفوذه العملي.» ويقول ماكس ليرنر Max Lerner، ولو أنه كان أقل ميلًا إلى سميث: «ربما فعل كتاب ثروة الأمم مثل ما فعله أي كتاب حديث في تشكيل منظر الحياة كله كما نعيشها اليوم.» أبدى ليرنر ملاحظته ببصيرة، فقال: «من قرءوا ذلك الكتاب هم الذين أرادوا الإفادة من نظرته إلى العالم — الطبقة الثائرة من رجال الأعمال ولجانهم التنفيذية السياسية في برلمانات العالم، ولجانهم التنفيذية الذهنية في الأكاديميات. وعن طريق هؤلاء استطاعت تلك الطبقة أن يكون لها نفوذ ضخم على سكان العالم الآخرين، رغم أنهم عمومًا، لم يكونوا معروفين لهم، وعن طريقهم أيضًا كان لهم نفوذ عظيم على الآراء الاقتصادية والسياسية القومية.»

أيَّد حكم هذين الحجتين، العالم الاقتصادي الإنجليزي الشهير ج. أ. ر. ماريوت J. A. R. Marriott الذي أبدى ملاحظته قائلًا: «ربما لا يوجد أي مؤلفٍ في اللغة كان له، في عصره، مثل ذلك الأثر العميق على كلٍّ من الفكر العلمي الاقتصادي وعلى العمل الإداري، على حدٍّ سواء. وهناك أسباب قوية في أنه لا يزال له هذا الأثر.» وأضاف عالم اقتصادي آخر هو و. ر. سكوت W. R. Scott: «كان سميث، من الناحية الذهنية، أستاذًا في رؤية الحياة الاقتصادية باستمرار وككل.»

ومن ناحية أخرى، وجد كثير من المفكرين الأحرار المتطرفين، أنه من الصعب عليهم أن يغتفروا لسميث تماديه في مبدأ «حرية العمل» الذي مارسه رجال الأعمال ورجال الصناعة الذين اعتبروا مؤلف سميث إنجيلهم. هذا، وأن المذاهب التي دافع عنها لحماية العامل والمزارع والمستهلك والمجتمع عمومًا قد حرَّفها أناسٌ عديمو المبدأ مغرضون، إلى قذف دنيء لا ضابط له من أجل نفوسهم، تحت سمع الحكومة وبصرها دون أن تتدخَّل.

كذلك هناك الجدل القديم عن أيهما أسبق، أهو الكتكوت أم البيضة. هل كان لمبادئ سميث أن تتبع في نمو التجارة والصناعة لو أنه لم يكتب كلمة واحدة، أو هل كان لكتابه «ثروة الأمم» أن يحدث تلك التغيرات الواسعة التي تلت نشره، مقدمًا فلسفة وخطة للحركة الجديدة؟ ربما كانت الحقيقة في موضعٍ ما بمنتصف الطريق.

وإنَّا لنعترف بأن آدم سميث اختار العصر الصحيح لميلاده فوقف في منتصف الطريق بين حقبتَيْن تاريخيتَيْن. نادى بالحرية الاقتصادية الجديدة فأصغى إليه عالم متقبل، وأفاد من مبادئه للحصول على تحوُّلٍ اقتصادي عظيم. وفي أثناء الانقلاب الصناعي، أدرك رجال الأعمال البريطانيون سلامة مذاهب سميث، فنبذوا القيود والامتيازات التجارية. وفي القرن التاسع عشر أبرزت هذه المذاهب بريطانيا إلى العالم كأغنى أمة. وقلَّما كانت آراء سميث أقل تأثيرًا على كبرى الدول التجارية الأخرى. وقليلون هم الذين يُنكرون أن آدم سميث يستحقُّ بجدارةٍ لقب «أبو علم الاقتصاد الحديث».

الفصل الرابع

أفواه كثيرة: ثوماس مالثوس[1]

مقال عن: مبدأ السكان

مما أثار المتعة المحبوبة في أواخر القرن الثامن عشر، خيالات الحالمين وقتذاك. فقد أوحت المثالية المقترنة بالحركات الثورية في أمريكا وفرنسا، إلى الخياليين بأن يستنتجوا أن كمال الإنسان قد لاح فوق الأفق، واقترب خلق جنة أرضية.

ومن بين أولئك الحالمين اثنان، أحدهما وليم جودوين William Godwin في إنجلترا، والماركيز دي كوندورسيه Marquis de Condorcet بفرنسا. وكان لهذين أتباع بالغو الإخلاص، نادوا بعددٍ كبيرٍ من الأماني والخيالات لانبثاق يومٍ جديد. وقد ذكر جودوين في كتابه «العدل السياسي» آراء نموذجية بالمتفائلين الراسخين في التفاؤل، مؤدَّاها أنه «سيأتي يوم نكون فيه ممتلئين بالحيوية فلا نحتاج إلى أن ننام، ومفعمين بالحياة فلا نحتاج إلى أن نموت، ويتغلَّب تأكيد تنمية القوى الذهنية على الحاجة إلى الزواج. وبالاختصار، يغدو الناس كالملائكة.» تغنى بأنه يتوقَّع أن «تتمشى تحسينات أخرى مع تحسن الصحة وطول العمر. لن تكون هناك حروبٌ ولا جرائم ولا إقامة عدل، كما يسمُّونها، ولا حكومة. وعلاوة على هذا، لن تكون هناك أمراضٌ ولا آلامٌ ولا أحزانٌ ولا غيظ. سيسعى كل إنسانٍ بحماسٍ شديدٍ إلى خير الجميع.»

---

[1] Thomas Malthus.

كتب جودوين لإزالة الخوف من مواجهة عددٍ كبير جدًّا من السكان مع وجود كمياتٍ قليلةٍ جدًّا من الطعام، كتب يقول: «قد تمرُّ بلايين القرون ذوات عدد السكان المتزايد باطِّراد، والأرض دائبةٌ على إعطاء الطعام الكافي لحياة سكانها.» وأخيرًا فكَّر في أن النزوة الجنسية قد تضمحل، كما اقترح كوندورسيه أنها قد تتمُّ بغير نسبةٍ عاليةٍ من التكاثر.

أغرت هذه الفقاقيع الجميلة بوخزها، فأعد الإبرة شاب إكليريكي سليط اللسان اسمه توماس روبرت مالثوس، يبلغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة، كان زميل كلية يسوع بكامبريدج. كان رده على أنصار الكمال الاجتماعي أن أصدر «مقالًا عن مبدأ السكان» في سنة ١٧٩٨م، صار أحد الكتب الكلاسيكية العظمى في الاقتصاد السياسي.

عاصر مالثوس آدم سميث وتوماس بين ولو أنه يصغرهما كثيرًا. وهو ثاني أبناء دانيل مالثوس، الرجل الريفي الميسور الحال وصديق روسو Rousseau ومدير مزرعته، وكان من أشد المعجبين بجودوين. وكان الأب والابن مولعين بالجدال. فكان توماس يهاجم الآراء الخيالية، بينما يدافع عنها دانيل. وأخيرًا، قرر توماس، تلبيةً لرغبة والده الملحة، أن يُبين آراءه كتابة، فكانت النتيجة ذلك المقال، وهو كتاب أحدث أثرًا عميقًا خلال الـ ١٥٦ سنة الماضية على الفكر البشري والحياة البشرية، وربما لم يكن هذا الأثر واضحًا في أي عصرٍ أكثر مما هو في العصر الحاضر. وما عمله آدم سميث قبل ذلك باثنتين وعشرين سنةً في استفساره عن طبيعة وأسباب الثروة، أكمله مالثوس بتحليلٍ فاحصٍ عن طبيعة وأسباب الفقر.

كان «مقال عن مبدأ السكان» وأثره على تحسين المجتمع في المستقبل، مع ملاحظاته عن آمال المستر جودوين والماركيز دي كوندورسيه وغيرهما من الكتَّاب الذين نشروا آراءهم دون ذكر أسمائهم، كان أكثر قليلًا من كتيب (٥٠٠٠٠ كلمة) في طبعة ١٧٩٨م، ومن الجلي أنه طبع منه عددًا قليلًا من النسخ؛ لأن النسخ الموجودة الآن من تلك الطبعة نادرةٌ جدًّا. وقال المؤلِّف بعد ذلك: «وضعت هذا الكتيب بناءً على حافز ذلك الوقت، وبالمواد القليلة التي كانت في متناول يدي في مركزٍ ريفي.» لم تكن فكرة ذلك المقال جديدة؛ لأن كثيرين من كتاب القرن الثامن عشر، ومنهم بنيامين فرانكلين، قد ناقشوا مسألة زيادة السكان، ولكن ما من أحدٍ منهم قدَّمها بمثل تلك القوة ولا بمثل هذا الحماس ولا بمثل هذه البصيرة الواضحة، كما فعل مالثوس.

ذكر مالثوس فرضَيْن أساسيَّيْن في بداية ذلك المقال:

أولًا: الطعام ضروري لحياة الإنسان، وثانيًا: الغريزة الجنسية ضرورية بين الجنسين، وستظل في حالتها الراهنة تقريبًا.

لم يفكر الخياليون أنفسهم في أن الإنسان قد يستطيع، في النهاية، أن يعيش بغير طعام.

ولكن المستر جودوين أعلن تخمينه بأن الرغبة الجنسية بين الذكر والأنثى ستخمد في الوقت المناسب ... وتكونت خير المجادلات عن كمال الإنسان، من التأمُّل في التقدم الذي أحرزه حتى الآن منذ حالته الوحشية ... ولم يحدث أي تقدمٍ نحو خمود الغريزة الجنسية بين الذكر والأنثى، ويبدو أنها لا تزال الآن بنفس القوة التي كانت عليها منذ ألفي سنة أو أربعة آلاف سنة خلَت.

وإذ افترض مالثوس أن «رسالاته» لم تكن قابلة للنقض، أخذ يضع مبدأه الشهير:

«... إن قوة الإنسان أعظم كيدًا من القوة التي في الأرض لإنتاج المادة للإنسان. وإذا لم يوقف نمو عدد السكان، فإنهم سيزيدون بمتوالية هندسية، بينما تزيد خيرات الأرض بمتوالية حسابية ليس غير. وإن الإلمام البسيط بالأرقام ليُبين ضخامة القوة الأولى بالنسبة إلى الثانية.»

نمَّق مالثوس اقتراحه أفضل من ذلك، فأبرز قضيته بهذه الطريقة:

«بين المملكتين الحيوانية والنباتية، نثرت الطبيعة بذور الحياة إلى الخارج بيدٍ سخيَّة جدًّا، وفي حرية. كانت تقتصد في المكان والغذاء اللازم لتغذيتهما. فينكمش جنس النبات وجنس الحيوان تبعًا لهذا القانون المقيد العظيم، ولا يستطيع جنس الإنسان، مهما كانت قوة الأسباب، أن يفلت منه. كانت آثاره بين النباتات والحيوانات ضياع البذور والمرض والموت قبل الأوان. أما بين الجنس البشري فالبؤس والرذيلة.»

وفي تقدير مالثوس، وضعت هذه الحقائق الصعبة والواقعية، عقبات لا يمكن تخطِّيها في طريق كمال المجتمع ... وما من إصلاحٍ ممكنٍ استطاع إزالة ضغط القوانين الطبيعية، تلك العقبات التي تمنع «وجود مجتمع، يعيش كل أعضائه في رخاءٍ وسعادة وراحة نسبية، ولا يشعرون بأي اهتمامٍ نحو تزويد أنفسهم وعائلاتهم بوسائل الحياة.»

اختار مالثوس لتوضيح عمل متواليته الهندسية زيادة عدد السكان في الولايات المتحدة «حيث وسائل الحياة أكثر ملاءمة، فإن أخلاق الناس أكثر نقاء.» وبالتالي، يقلُّ تقييد الزواج المبكر ... وجد مالثوس أن عدد السكان، باستثناء الهجرة، قد تضاعَف في مدة ٢٥ سنة، فاستنتج من هذا البرهان أنه حيث لا توضع قيود على الطبيعة، وحيث لا يوجد تحديد للنسل ولا توازن، يتضاعف عدد سكان الدولة في كل جيل. غير أن النقاد لفتوا النظر إلى وجود عيوبٍ في قاعدة مالثوس لأن الظروف التي كانت سائدة في

الولايات المتحدة إبَّان الحقبة التي ذكرها مالثوس، لم تكن نموذجيةً لأية حقبةٍ أخرى في التاريخ الأمريكي، ولا في تاريخ أية أمةٍ أخرى.

استخدم مالثوس مقياسه عن زيادة عدد السكان في إنجلترا، أي إن عددهم يتضاعَف كل ٢٥ سنة، ثم عرج على مسألة الغذاء، فاستنتج أنه «باستخدام أحسن سياسية محكمة، أي بزيادة رقعة الأرض وبتشجيع الزراعة، يمكن مضاعفة إنتاج تلك الأرض في الخمس والعشرين سنة الأولى.»

بعد ذلك تبدأ المتاعب تتراكم في الجيل الثاني بينما يتضاعف عدد السكان مرةً أخرى، أي يصير أربعة أضعاف ما كان عليه أولًا بعد مضي خمسين سنة، «ومن المستحيل افتراض أن الإنتاج يمكن أن يصل إلى أربعة أضعاف ما كان عليه أولًا.» فخير ما يمكن أن نأمل فيه هو زيادة موارد الغذاء إلى ثلاثة أضعاف ما كان عليه من قبل. وبالتعبير بالأعداد، يكون قانون مالثوس لعدد السكان هو: ١، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ... وللغذاء: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ... إلخ.

والنتيجة المنطقية لبحث مالثوس هو وجوب إيجاد وسيلةٍ مستمرة لإيقاف ازدياد عدد السكان وأخطر الوسائل جميعًا هو قلة الغذاء. ومجموعة «الوسائل المباشرة» تقع في مجموعة «إيجابية»، وتشمل المساكن غير الصحيحة، والعمل الشاق، والفقر الشديد، والأمراض، وسوء تربية الأطفال، والمدن العظمى، والأوبئة والقحط. ومجموعة «مانعة» وهي: الكبت الأخلاقي والرذيلة.

تبعت ذلك بنتائج عمليةٍ حتمية معينة، في نظر مالثوس. فإذا كان للمخلوقات البشرية أن يتمتعوا بأعظم سعادة ممكنة، وجب عليهم عدم القيام بالالتزامات العائلية إلا إذا كان بوسعهم أن يعولوا عائلاتهم. أما من ليس لديهم موارد كافية ليعولوا أسرة، فيجب عليهم عدم الزواج إطلاقًا والتزام العزوبة. وعلاوة على هذه السياسة الشعبية كقوانين الفقراء التي يجب أن تمنع تشجيع طبقة العمال ومن إليهم على إنجاب أطفال لا يمكنهم أن يكفلوهم.

«فالرجل الذي جاء إلى العالم ولا يستطيع الحصول على القوت من والدَيْه، اللذَيْن له عليهما حق عادل، إذا لم يرغب المجتمع في عمله، فليس له حقٌّ في أقل جزءٍ من الطعام، وليس له، في الحقيقة، عملٌ حيث يكون.»

كتب هذا ردًّا على مقال بين بعنوان «حقوق الإنسان».

ليست الصدقة، سواء أكانت خاصة أم حكومية، مطلوبة؛ لأنها تعطي نقودًا للفقراء دون زيادة كمية الطعام الموجودة، وبذا ترفع الأسعار وتخلق النقص في المواد. كذلك

خطة الإسكان الشعبي ممنوعة لأنها تحث على الزواج المبكر؛ وبالتالي زيادة عدد السكان. ولارتفاع الأجور نفس الأثر الضار. وعلى هذا تكون الوسيلة الوحيدة للفرار من هذه المعضلة المعقدة، هي الزواج المتأخر مع «الكبت الأخلاقي»، أي ضبط النفس عن الشهوات.

الواقع، في نظر مالثوس، أن أي مشروع لتحسين المجتمع وتخفيف انتشار الفقر؛ عرضة لأن ينتهي بزيادة المساوئ التي سعى إلى علاجها. وهذا المسلك المتعنت المعادي للمجتمع من جانب ذلك الشاب الإكليريكي، قد غيَّر وجهات نظر علماء الاجتماع في جيله والأجيال التالية. ومع ذلك، تقبل الأغنياء، في عصر مالثوس، والطبقات القابضة على زمام السلطة، مذاهبه في حماس. إذن يقع اللوم، فيما يختص بالفقر الواسع النطاق والمساوئ الاجتماعية الأخرى، على الزواج المبكر وكثرة النسل بدلًا من وقوعه على سوء توزيع الثروة.

يمكن توضيح مسلك مالثوس نحو برامج المعونة الحكومية، في هذه الفقرة المأخوذة عنه:

«تميل القوانين الإنجليزية الخاصة بالفقراء إلى زيادة سوء الحالة العامة للفقراء، بهاتين الطريقتين؛ الأولى تميل إلى زيادة عدد السكان دون زيادة كميات الطعام اللازم لهم. قد يتزوج الرجل الفقير دون أن يدرك أنه غير قادر على أن يعول أسرته معتمدًا على نفسه فحسب. وعندئذٍ يمكن القول بطريقةٍ ما أن الحكومة تخلق الفقراء الذين تعولهم. ولما كان يجب، في حالة زيادة عدد السكان، أن توزع موارد الدولة على كل فردٍ بنسب صغيرة، فمن الجلي أن عمل أولئك الذين لا تعولهم معونات الأبروشية، يشتري كميةً من الأغذية أقل مما سبق. وهذا يسوق الكثيرين منهم إلى طلب المعونة. والثانية، تنص على أن كمية الأغذية المستهلكة في الملاجئ على فئةٍ من المجتمع لا يمكن اعتبارها عمومًا الفئة القيمة، تنقص من أنصبة الأعضاء الأكثر قيمةً. وهكذا، بنفس هذه الطريقة يجبر عدد آخر على التواكل.»

يختم مالثوس مقاله بملخصٍ لآرائه:

«ينطبق نفس الشيء على ظروفٍ أخرى. يمكن التأكيد بأن كثرة عدد السكان في أمةٍ يتناسب مع كمية غذاء الإنسان التي تنتجها أو التي يمكنها الحصول عليها، وتكون سعيدةً تبعًا للحرية التي يوزع بها هذا الطعام، أو الكمية التي يمكن أن يشتريها عمل يوم واحد. والدول المنتجة للقمح أكثر سكانًا من الدول ذوات المراعي. بيد أن سعادتها لا تتوقَّف على كثرة أو قلة عدد سكانها، ولا على فقرها أو غناها، ولا على شبابها أو شيخوختها، وإنما على النسبة بين عدد السكان وكميات الطعام.»

أثار ظهور مقال مالثوس عاصفة من النقد والاحتجاج والطعن، ولا سيما من مصدرَيْن؛ هما: المحافظون اللاهوتيون والمتطرفون الاجتماعيون. ويقول أهم كاتب لتاريخ حياته، وهو بونار Bonar: «أمطر ذلك المقال الافتراءات لمدة ثلاثين عامًا.» كان مالثوس أكثر رجلٍ مذموم في عصره، ووُصف بأنه «رجل دافع عن الجدري والرق وقتل الأطفال، وهاجم المطاعم الشعبية والزواج المبكر ومعونات الأبروشيات، ذلك الذي بلغت به الوقاحة أن يتزوج بعد أن وعظ عن مساوئ الأسرة، الذي ظن أن حكم العالم سيئ، وأن خير الوسائل يأتي بأسوأ النتائج وأكثرها ضررًا، وبالاختصار، هو الذي سلب الحياة كل مباهجها.»

نبذ عدد قليل من النقاد جميع مبادئ مالثوس باستخفافٍ فهذا هازليت Hazlitt «لم يجد ما يكتشفه بعد أن قرأ قوائم سلالة نوح Noah وبعد أن عرف أن الدنيا مستديرة.»

أما ملاحظة كوليريدج Coleridge فتقول: «أنحن الآن بحاجةٍ إلى كتابٍ ليعلمنا أن البؤس العظيم والرذيلة العظمى ينتجان عن الفقر، وأنه يجب أن يكون هناك فقرٌ في أبشع صوره حيثما يكون هناك أفواه أكثر من الأرغفة، ورءوس أكثر من الأمخاخ؟»

أما المعلِّقون الآخرون فكانوا أكثر إقذاعًا فقد كتب وليم ثومبسون William Thompson رائد الاشتراكية الإنجليزية في أول عهدها، يقول:

«لا توجه إهانة إلى الفقراء أولئك الغالبية العظمى من البشر، بالافتراءات البراقة، إنه بواسطة عدد السكان المحدد، أو بعدم تناول البطاطس تكون سعادتهم في أيديهم، بينما الأسباب باقية، تلك التي تجعل من المستحيل عليهم، أخلاقيًّا وبدنيًّا، أن يعيشوا بغير البطاطس والنسل الذي لا طعام له.»

وجاء تعبيرٌ عنيف آخر من وليم كوبيت William Cobbett «كيف يستطيع مالثوس وأتباعه المعفنون الأغبياء، كيف يستطيع أولئك الذين يريدون نبذ الطبقات الفقيرة، ومنع الفقراء الزواج، كيف تستطيع تلك الفئة الغبية المغرورة أن تنظر في وجه الرجل الكادح وهم، في الوقت نفسه، يطلبون منه أن يحمل السلاح ويخاطر بحياته للدفاع عن الوطن؟»

تصادف أن كان كوبيت هو الذي ما بز مالثوس بلقب «قسيس». وقد تحدث كوبيت إلى أحد المزارعين، فقال:

«كم طفلًا تريد أن تُنجب؟»

أجاب المزارع: «لا يهمني العدد؛ فالله لا يُرسل أفواهًا دون أن يُرسل لحمًا.»

قال كوبيت: «ألم تسمع قط عن قسيسٍ اسمه مالثوس؟»

«لم أسمع عنه، يا سيدي.»

«لو سمع قولك هذا لثارَت ثائرته؛ لأنه يريد من البرلمان أن يُصدر قانونًا يحرِّم على الفقراء أن يتزوجوا في سنٍّ مبكرة، كما يحرم عليهم إنجاب عددٍ كبيرٍ من الأطفال.»

دهشت الزوجة قائلة: «يا له من وحش!» بينما ضحك زوجها وظنني أمزح.

عندما ظهر المذهب المالثوسي لأول مرة، قام ضده اعتراضٌ يقول إنه لا ينطبق وكون الخالق خيرًا. واتهم مالثوس بإصدار كتابٍ يتنافى مع تعاليم الدين. وهذا اتهام محطمٌ ضد كاهن كنيسة مُعترف بها. وبسبب هذا النقد أكد مالثوس في الطبعة الثانية لمقاله، على «الكبت الأخلاقي» بصفته وسيلة تحتفظ بعدد السكان داخل النطاق المحدد، بينما حذف البؤس والرذيلة، وبذا أزال «كل سوء ظن عن مراحم الرب.»

وفي برنامج تخليد الذكرى المئوية لموت مالثوس أي في سنة ١٩٣٥م، قام بونار يُدافع عنه ضد أولئك الذين اعتقد بونار أنهم أساءوا تمثيلَ مالثوس، كما أساءوا قراءته وأساءوا ذكر مقتطفات من أقواله وأساءوا فهمه. كان مالثوس، في نظره، إيجابيًّا وليس سلبيًّا في تقديم مذهبه. وقرَّر بونار أن «رغبة قلب مالثوس للجنس البشري» تتضمن:

(١) نسبة وفيات منخفضة للجميع.
(٢) مستوى معيشة مرتفعًا للفقراء.
(٣) نهاية هلاك الأرواح البشرية صغيرة السن.

رأى مالثوس بوضوح أن الأمم تمنع سرعة ارتفاع نسبة المواليد كلما صارت هذه الأمم متحضرةً وأكثر تعلمًا، واكتسبت مستوى معيشة أعلى. ونتيجة لذلك صارت آراؤه عن مستقبل المجتمع الإنساني متفائلةً تدريجيًّا. لاحظ مالثوس أنه في إنجلترا نفسها «يجب أن يقنعنا أسرع نظرة سطحية عن المجتمع بأن وسائل تحديد النسل بين جميع الطبقات، تسير بدرجة كبيرة.» والواقع أنه تناول مختلف الطبقات الاجتماعية — السادة (الجنتلمان) والحرفيين والمزارعين والعمال وخدم المنازل — كل طبقةٍ على انفرادٍ بسبب اختلاف ظروفهم الاقتصادية فاعتقد أن اللهفة على الاحتفاظ بمركزٍ اجتماعيٍّ معين، تمنع الزواج السريع. فمثلًا:

على الرجل ذي التعليم الحر والدخل الذي لا يكاد يكفي لتمكينه من مصاحبة طبقة السادة (الجنتلمان)؛ أن يتأكد تمامًا أنه إذا تزوج وأنجب أسرة، اضطر، عند اختلاطه بالمجتمع، إلى أن يخالط طبقة المزارعين المعتدلة وطبقة الحرفيين الأقل. أي يهبط درجتَيْن

أو ثلاثَ درجاتٍ في سلم المجتمع، وخصوصًا عند هذا المستوى من السلم الذي ينتهي عنده التعليم ويبدأ الجهل، لن يعتبره عامة الشعب عالمًا وخياليًّا وحشيًّا، بل شرًّا حقيقيًّا وأساسيًّا.

وكما يمكن أن نستنتج من أقوال المعاصرين، لم يهمل مالثوس أثناء حياته. فالأثر الذي أحدثته الطبعة الأولى من «المقال»، جعل الحكومة الإنجليزية تجري تعدادًا للسكان في سنة ١٨٠١م، وهو أول تعداد حقَّق نتائج منذ مجيء الأرمادا Armada هذا، وقد عورضت مقترحات التعداد السابقة على أنها منافية لتعاليم الكتب المقدسة ومنافية للتقاليد الإنجليزية وهناك نتيجة ثانية للمقال، هي تعديل قانون الفقراء الحكومي اجتنابًا لبعض أخطاء حددها مالثوس.

كانت وطأة الأفكار المالثوسية على العلوم الطبيعية بالغة الشدة كما كانت على العلوم الاجتماعية. وقد أعلن كلٌّ من تشارلز داروين Charles Darwin وألفريد رسل والاس Alfred Russell Wallace في حرية، أنهما مدينان لمالثوس في تكوين نظرية النشوء بالاختيار الطبيعي. فكتب داروين يقول:

في أكتوبر سنة ١٨٣٨م، أي بعد مضي خمسة عشر شهرًا على أبحاثي المنظمة، تصادف أن قرأت لغرض التسلية مقال عدد السكان لمالثوس. وإذ كنت على أتمِّ استعداد لتقدير «تنازع البقاء» (عبارة استعملها مالثوس) الذي يحدث في كل مكان، وقد شاهدته أثناء ملاحظاتي الطويلة للحيوانات والنباتات، طرأ على بالي في الحال، أنه تحت هذه الظروف، تميل بعض الأنواع الصالحة إلى أن تبقى بينما تتلف غير الصالحة. وينتج عن هذا جنس جديد. وأخيرًا، أستوعب نظرية يمكن أن أعمل بمقتضاها.»

وفي اتجاه مشابه، كتب والاس:

كان «المقال» أول مؤلف قرأته، حتى ذلك الوقت، ويتناول أي مشكلة في علم الأحياء الفلسفي، وبقيت مبادئه الرئيسية في ذهني كمعلوماتٍ مستديمة وبعد ذلك بعشرين سنة، أمدَّتني بالحل الذي طال بحثي عنه فيما يختص بعامل فعال في نشوء الأجناس العضوية.

عندما خرجت طبعة سنة ١٧٩٨م لذلك «المقال»، قوبلت بالاحتجاجات الغاضبة من رجال الدين والمتمردين الاجتماعيين، ولكن مالثوس لم يهتم بكل ذلك، بل أعجب بموضوعه وعقد العزم على أن يستمر فيه إلى أبعد من ذلك. ولتقوية أدلَّته طاف بأوروبا في سنة ١٧٩٩م بحثًا عن مادة لمؤلفه. «طاف خلال السويد والنرويج وفنلندة وجزء من روسيا، وكانت هذه هي كل الدول المفتوحة أمام السياح الإنجليز في ذلك الوقت.» ثم قام

بجولة أخرى في فرنسا وسويسرا إبَّان فترة السلم القصيرة لسنة ١٨٠٢م. ونشر في خلال هذه المدة كتيبًا عنوانه «بحث أسباب ارتفاع أسعار المواد الغذائية في الوقت الحاضر»، متخذًا وجهة نظره أن الأسعار والأرباح تقدر مبدئيًّا تبعًا لما أسماه «الطلب الفعال».

بعد مضي خمس سنوات من ظهور الطبعة الأولى لـ «المقال»، خرجت من المطبعة طبعة ثانية كبيرة جدًّا عبارة عن مجلد بحجم الكوارتو (ربع فرخ) يتكون من ٦١٠ صفحات. وكان ينقصها حماس الطبعة الأولى وأسلوبها الطلي وتأكيدها الفتي، وصارت على هيئة رسالة اقتصادية دراسية مثقلة بالمستندات والحواشي، ولو أنها باستثناء تطور فكرة «الكبت الأخلاقي» فإن المبادئ الأساسية لم تتغير. ظهرت أربع طبعات أخرى أثناء حياة ذلك المؤلف. وفي الطبعة الخامسة كان «المقال» عبارة عن خمسة أجزاء تبلغ في مجموعها ١٠٠ صفحة. والمؤلف الكبير الوحيد الذي وضعه مالتوس بالإضافة إلى «المقال»، لانشغاله بتنقيح هذا الأخير، كان عنوانه هو:

«مبادئ الاقتصاد السياسي من وجهة نظر تطبيقها»، الذي نُشر في سنة ١٨٢٠م.

كانت حياة مالتوس الشخصية هادئة وآمنة نسبيًّا، كان حرًّا في مزاولة دراساته الاقتصادية وكتاباته، مع قليلٍ من المسئوليات الأخرى حتى سنه عندما تزوج وهو في الثامنة والثلاثين من عمره. وفي السنة التالية عُيِّن أستاذًا للتاريخ الحديث والاقتصاد السياسي في الكلية الجديدة لشركة الهند الشرقية بمدينة هيليبوري Hailybury ليقوم بتعليم موظفي تلك الشركة المدنيين، المعلومات العامة. كان هذا أقدم كرسي للاقتصاد السياسي أسس في كلية أو جامعة إنجليزية. فبقي مالتوس في هيليبوري لمدة ثلاثين عامًا حتى مات في سنة ١٨٣٤م وقد أنجب ثلاثة أولاد، بلغ اثنان منهم، ولد وفتاة، سن الرشد.

لم تخمد جذوة النار التي أشعلها مالتوس؛ إذ ظلت المجادلات المناصرة والمعارضة على أشدها. فبرزت عناوين حديثة تؤيد نظرية مالتوس، منها: «النضال عن مستقبل الإنسان» و«الطريق إلى البقاء» و«حدود الأرض» و«كوكبنا المغتصب» ضمن مقالات عناوينها: «خيال المقات المالثوسي» و«كل بشهية» و«الشر المالثوسي» و«لن تجوع البشرية». وما هي وجهة النظر الحديثة المبنية على نظريات مالثوس اليوم؟

ظهر عامل في مشكلة الانفجار السكاني، منذ منتصف القرن التاسع عشر، وهو الإقبال المتزايد على طرق منع الحمل، التي نشأ عنها تحديد منظم لعدد أعضاء الأسرات، باستثناء الذين ينقصهم الوعي ومن تمنعهم الوساوس الدينية. وظهرت حركة عرفت بأسماء مختلفة، منها: «المالثوسية الجديدة» و«تحديد النسل» و«الأمومة المخططة» فأطلق عليها عمومًا اسم «أعظم حركة لإحصاء الشعوب في العالم الحديث». غير أن مالثوس

نفسه اشمأز من فكرة منع الحمل، نوعيًّا، واستقبحها، واعتبرت في عصره شيئًا «سيئًا وغريبًا وغير طبيعي.» ومع ذلك، فقد صارت إحدى الطرق الرئيسية لوقف التضخم السكاني في المجتمع الحديث، وبذا أضاف مالثوس عاملًا رابعًا إلى الثلاثي الخاص به: «الرذيلة والبؤس والكبت الأخلاقي.»

وفي سنة ١٨٠٠م عندما كان مالثوس يكتب مؤلفه، قدَّر تعداد العالم ببليون نسمة. وفي المائة والخمسين عامًا الماضية وصل تعداده إلى بليونين ونصف البليون. وهذه نسبة عالية في النمو السكاني نتجت عن زيادة طول العمر أكثر منها عن أية ظاهرة في ارتفاع نسبة المواليد، ففي الأمم المتقدمة من العالم، أنقذت حياة الكثيرين بسبب التغيرات الطبية والصحية والاجتماعية وجاء الانقلاب الصناعي في إنجلترا بزيادة كبيرة في إنتاج السلع المصنوعة، فبودل على هذه بالأطعمة والمواد الخام من الدول غير الصناعية، وتحسنت جميع وسائل النقل لتزيد في سرعة التحرك. فانتقل فائض السكان بالهجرة إلى القارات الناشئة حديثًا. وتأخر، على الأقل، تكهنات مالثوس البغيضة، وربما أُجِّلت إلى ما لا نهاية، فيما يختص بالعالم الغربي.

ومع ذلك فهناك مساحات شاسعة من الكرة الأرضية تمثل تمامًا نظريات مالثوس … يتميز الشرق الأدنى ومعظم قارة آسيا وغالبية دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية بدرجةٍ عاليةٍ من الخصب الجنسي تناظرها نسبة وفيات عالية. فالأرواح التي ينقذها الطب والوسائل الصحية في تلك المساحات، عرضة لأن يهلكها الفقر والمجاعات.

وعلى عكس نظرية هذا الموقف، دخلت بعض أمم الأرض البالغة التحضر والثقافة، عصرًا من الاستقرار أو تناقص عدد السكان، وأهمها فرنسا والسويد وأيسلندة وأستراليا وإنجلترا وويلز وأيرلندة. جاء هذا الاستقرار نتيجة انخفاض درجة الخصب الجنسي ونقص عدد الشباب وزيادة طول العمر.

زاد إنتاج الأطعمة زيادة كبيرة منذ عصر مالثوس، وتتفق الدول على أنه سيصير بالإمكان زيادتها أكثر من ذلك بطرق إنتاج أكثر فاعلية، كالري وإصلاح الأراضي البور والاستعاضة بالأطعمة النباتية بدل الأطعمة الحيوانية، وبمقاومةٍ أفضل للآفات الزراعية الحشرية. ويمكن أن يكون فائض المحاصيل في الولايات المتحدة وكندا دليلًا على خطأ في المبدأ المالثوسي، ولكن على الرغم من إنتاجنا الضخم من الغذاء، هناك مئات الملايين من البشر، في الشرق وفي أماكن أخرى، تقف على حافة الموت جوعًا، أو في مستوى القوت الضروري، ولكن كون ثلثي سكان العالم يُقاسون سوء التغذية والقحط واعتلال الصحة

والمرض، يجعل النظرية التي أثارها مالثوس منذ قرنٍ ونصف قرن حقيقيةً وحيويةً اليوم، كما كانت وقتذاك.

وحتى أولئك النقَّاد، الذين يقولون إن نظرية مالثوس أضعفَت في نواحٍ معينة بالتطوُّرات التي لم تحدث في عصر مالثوس، والتي لم يستطع مالثوس أن يتكهَّن بها، حتى هؤلاء النقاد يوافقون على أن نتائج عظمى نشأَت عن أفكاره. وكما لاحظ هوبهاوس Hobhouse بشدةٍ: «كانت نظرية مالثوس أحدَ الأسباب في هزيمة ما تنبَّأَت به هي نفسها. كان الاعتقاد بأن عدد السكان يزداد بسرعةٍ كبيرة هو الذي عمل بطريقةٍ غير مباشرة لإيقاف ذلك.»

لم يعط أحدٌ من المعلقين الكثيرين عن مقال مالثوس (مقال عن مبدأ السكان) ثناءً أكثر عدلًا ولا أقوى بصيرة، من جون ماينارد كينيس John Maynard Keynes، الذي اعتقد أنه:

«يحقُّ لهذا الكتاب أن يتبوأ مكانًا بين تلك الكتب التي كان لها تأثير عظيم على تقدم الفكر. لقد تغلغل عميقًا في التقاليد الإنجليزية للعلوم البشرية — في تقاليد الفكر الاسكتلندي والإنجليزي الذي كان فيه على ما أظن استمرارٌ خارق للشعور إذا صحَّ لي أن أعبِّر عنه هكذا، منذ القرن الثامن عشر إلى الوقت الحاضر — تلك التقاليد التي اقترحتها الأسماء: لوك Locke وهيوم Hume وآدم سميث وبالي Paley وبنثام Bentham وداروين وميل Mill، تقاليد تتميز بحب الحقيقة والوضوح الأعظم نبلًا، وبسلامةٍ عادية خالية من كل عاطفةٍ أو ميتافيزيقيا، وبعدم المتعة العظيمة والروح الشعبية. هناك استمرار في تلك العبارات، ليس عن الشعور فحسب، بل وعن المادة الواقعية. إلى هذه الصحبة ينتمي مالثوس.»

الفصل الخامس

حالة الفرد المختصرة: هنري دافيد ثورو[1]

العصيان المدني

يرسم اسم دافيد هنري ثورو في المخيلة شخصًا دقيق الملاحظة في الطبيعة، محبًّا للعزلة وحياة الخلاء، ونموذج الحياة البسيطة، وشاعرًا متصوفًا، وأستاذًا لأسلوب النثر الإنجليزي.

كثيرًا ما يتذكر الناس ثورو كمؤلفٍ لبعضٍ من أشد التقارير تطرفًا في التاريخ الأمريكي، وكمحامٍ، كما يصفه أحد كاتبي تاريخ حياته، «أعظم المذاهب العلنية للمقاومة، سبق أن ظهر في هذه القارة.» وقد تمادى إلى أكثر مما قاله ثوماس جافرسون Jafferson «خير حكومة هي التي تحكم بأقل ما يمكن.» ولكن ثورو استنتج أن «خير حكومة هي التي لا تحكم إطلاقًا.»

كانت هذه الألفاظ مقدمة مقالة ثورو الشهيرة «العصيان المدني» التي ظهرت أولًا كمجلة دورية غامضة قصيرة الأجل، وهي مجلة إليزابيث بيبودي Elizbeth Peabody بعنوان: «صحف فلسفة الفنون»، في مايو سنة ١٨٤٩م، وكان اسمها الأصلي «المقاومة المدنية للحكومة» ثم غيَّر هذا العنوان إلى «عن واجب العصيان المدني»، ثم مجرد «العصيان المدني». وعندما نُشرت لأول مرة، لم تسترعِ كثيرًا من الانتباه، وقرأها قليلون. وفي أثناء المائة سنة التالية، قرأها ألوف، وأثَّرت في حياة ملايين البشر.

---

[1] Henry David Thoreau.

هل كان ثورو فوضويًّا فلسفيًّا في معتقداته؟ وبتحليل مقاله «العصيان المدني»، أساسه وماضيه، نحصل على إجابة لهذا السؤال المعقد.

أما عن ثورو نفسه، فلا شيء في بَدْء حياته يمكن أن ينتج متمردًا اجتماعيًّا. وُلد من أبوين أحدهما فرنسي والآخر اسكتلندي في بلدة كونكورد Concord بولاية ماساشوزتس Massachusetts في سنة ١٨١٧م شبَّ في بيئةٍ محافظة فقيرة وحسنة التربية ... قضى أربع سنوات في هارفارد Harvard لم تتميز بشيء، ولو أنه كانت هناك لمحة عن مستقبل ذلك الشخص غير المنتمي إلى الكنيسة السائدة في أنه كان يرتدي معطفًا أخضر في الكنيسة «إذ كانت الأنظمة تتطلب معطفًا أسود». كان يقضي كثيرًا من الوقت في مكتبة الكلية. وتثار متعة ثورو في الكتابة بواسطة اثنين من خيرة الأساتذة: إدوارد ت. تشاننج Edward T. Channing وجون فيري John Very وإذ كان ثورو سعيدًا بعودته إلى حقول كونكورد الخضراء وغاباتها، لم يغادرها بعد ذلك إلا لزيارات قصار. فقام بعددٍ من الأعمال المختلفة. فبعد أن اشتغل مدةً قصيرةً يُعلم في مدرسة شعبية لم يسعد فيها بحال ما، قضى ثلاث سنوات شريكًا مع أخيه جون في إدارة مدرسةٍ خاصةٍ بهما. وتلا ذلك مدد متقطعة ساعد فيها أباه في عمل الأسرة لصناعة الأقلام الرصاص، وقام بعمل موظف عام في المجتمع، ومسَّاحًا في البلدة، وإلقاء المحاضرات من آنٍ إلى آخر، وحاول أن يصير مؤلفًا محترفًا.

عاش ثورو فترتين قصيرتين في بيت رالف والدو إميرسون Ralph Waldo Emerson حيث تعرَّف على أعضاء النادي الراقي، وأسهم بنشاطٍ في مناقشات هذه الجماعة الشهيرة من الكتَّاب والمفكرين في ولاية نيو إنجلاند New England وقد كان تأثير إميرسون قويًّا على نموه الذهني، ويشمل تزويده ببعض الآراء لكتابه «العصيان المدني».

لم يطمح ثورو، بحالٍ ما، إلى جمع ثروة أو القيام بأي عمل سوى ما يمده بأقل ضروريات الحياة. كان شغفه دائمًا الحصول على وقت فراغ للأمور ذات الأهمية الأساسية، كما يراها هو، وهي التجول في حقول كونكورد ودراسة الطبيعة على الطبيعة والتفكير والقراءة والكتابة، وعمل الأشياء التي يرغب في عملها. كان بوسعه الحصول على حاجاته البسيطة دون شغل نفسه في حياة الأعمال الشاقة، التي رأى جيرانه يقومون بها. فبدلًا من آية التوراة القائلة بالعمل ستة أيام والراحة يومًا واحدًا، آثر ثورو أن يعكس النسبة — مكرسًا اليوم السابع فقط للعمل. وبالاختصار كان يسير على عكس تعاليم آدم سميث والحكم التي ذكرها فرانكلين في كتابه «مسكين ريتشارد»، والمثل الأمريكية التقليدية التي تحث على العمل الشاق والثراء السريع.

ولتمثيل فكرة ثورو عن الحياة البسيطة الخالية من جميع السطحيات، قضى سنتين في والدين بوند Walden Pond بالقرب من كونكورد حيث بنى كوخًا وعاش يزرع الفول والبطاطس ويأكل أبسط الأطعمة (وأهمها الأرز ودقيق القمح والبطاطس والعسل الأسود). وعاش منفردًا بعيدًا عن المجتمع.

كانت فترة تفكير وتدوين أفكاره، فأنتج كتابًا من أعظم الكتب في الأدب الأمريكي بعنوان: «الغابة Walden» أو «الحياة في الغابات» (١٨٥٤م).

وبكل فخرٍ كان كتاب «الغابة» سجلًّا لحياة ثورو في عزلته الريفية، وزاخرًا بالأوصاف التذكارية للفصول والمناظر الطبيعية وحياة الحيوان حوله. ولكن «الغابة» كان أكثر من ملاحظات عالم طبيعي، مثلما كان كتاب إسحاق والتون Izaak Walton «صياد السمك الكامل» أكثر من كتيب عن صيد السمك. بل يعلق على السطحيات وحدود المجتمع والحكومة، فصار ذا أهمية عالمية. وبمرور الأعوام جذب النقد الاجتماعي كثيرًا من القراء، كما فعلت الأجزاء التي تتناول التاريخ الطبيعي. وبالطريقة الخاصة التي وضع بها كتاب «الغابة»، فهو وثيقةٌ متطرفة مثل الكتاب المنشور قبل ذلك «العصيان المدني» الذي يحمل له مشابهة كبيرة.

بينما كان ثورو يزور كونكورد في سنة ١٨٤٣م بعد إقامته في والدين بوند، قُبض عليه وسُجن لعدم دفعه ضريبة الرأس. وقد حذا، في رفضه دفع الضريبة هذا، حذو برونسون ألكوت Bronson Alcott، والد «السيدات الصغيرات»، الذي قُبض عليه قبل ذلك بسنتين لنفس التهمة. استعمل كلٌّ منهما هذه الوسائل احتجاجًا على مساندة الحكومة لتجارة الرقيق. سُجن ثورو لمدة ليلة واحدة فقط؛ إذ تدخَّلت عمته، رغم معارضته، فدفعت الضريبة.

لم يذكر ثورو قصة احتكاكه بالحكومة لرفضه سداد ضريبة الرأس، لم يذكرها في مقاله «العصيان المدني» إلا بعد مرور عدة سنوات. كتب ذلك المقال أصلًا في ١٨٤٨م كمحاضرة. وخرجت النسخة المطبوعة، من المطبعة، في العام التالي ... كانت الحرب المكسيكية لسنة ١٨٤٦–١٨٤٧م قد انتهت منذ مدة قصيرة، وكانت تجارة الرقيق نتيجتها الملهبة. وكان قانون العبيد الهاربين، الذي أثار حنق ثورو بنوعٍ خاص، على وشك أن يصدر. أضِف إلى هذه الأمور معركة ضريبة الرأس، فكانت حافزًا أوحى إليه بكتابة «العصيان المدني».

كانت أية حرب بغيضة لمثل ثورو، فما بالك بالحرب المكسيكية التي مقتها أشد المقت؛ لأن هدفها الوحيد، حسب اعتقاده، هو مد تجارة الرقيق الزنوج، التي كان يمقتها،

إلى مناطق جديدة. فتساءل ثورو: لماذا ندعم بالمال حكومة «مذنبة بمثل هذه المظالم والغباء؟» وهنا كان مولد مذهبه عن العصيان المدني. قرَّر ثورو، وهو السياسي بقلبه وقالبه، أن الوقت قد حان لاختبار طبيعة الدولة وحكومتها. ماذا يجب أن تكون عليه علاقةُ الفرد بالحكومة، وعلاقة الحكومة بالفرد؟ ومن اعتبارات هذه المسائل، برزَت فلسفة ثورو، بوفائه الشخصي ومركزه الإنساني في المجتمع.

كتب ثورو يقول: «ليست الحكومة في خير صورها إلا وسيلة. بيد أن معظم الحكومات ليس وسائل أحيانًا. والمعارضات التي أثيرت ضد الجيش القائم، وهي كثيرة وبالغة الأهمية، وتستحق أن تثار ضد الحكومة القائمة.»

أعلن ثورو أن الحكومة الأمريكية كانت حسنة نسبيًّا.

غير أن هذه الحكومة لم تنفذ أي مشروعٍ من تلقاء نفسها، ولكنها تبدي نشاطًا وسرعة حركة في إزالة ذلك المشروع من أمامها لم تحافظ على حرية الدولة، ولم تسو مسألة الغرب، ولم تنشر التعليم؛ فالأخلاق الكريمة التي فُطر عليها الشعب الأمريكي هي التي أنجزت كل ما تمَّ من مشروعات، وكان بوسعها أن تُنجز أكثر منه لو لم تتدخل الحكومة أحيانًا؛ لأن الحكومة وسيلة ينجح بها الناس في ترك كل واحد وشأنه. وكما قلت من قبل، عندما تكون الحكومة في أقصى كونها وسيلة، فإن المحكومين يُصبحون في أقصى حالات تركهم وشأنهم بواسطة تلك الحكومة.

بعد أن قدم ثورو قضية «ألا تكون هناك حكومة» مباشرة تقريبًا، أدرك أن الإنسان لم يصل بعدُ إلى درجة الكمال حيث يكون من المحتمل عدم وجود حكومة على الإطلاق، فبدأ يعدِّل رأيه، قائلًا:

ولكي أتكلم من الناحية العملية، وكمواطن، بعكس الذين يسمُّون أنفسهم رجال «عدم الحكومة»، فإني لا أطلب في الحال عدم وجود حكومة، بل أطلب في الحال حكومة أفضل. وعلى كل فردٍ أن يوضح نوع الحكومة التي تحظى باحترامه، وستكون هذه خطوة إلى الأمام نحو الحصول عليها.

أكَّد ثورو على حقوق الأقليات في الحكم، والمغالطة التي تطلب حكم الأغلبية، فقال: «تحكم الأغلبية، ليس لكونها عرضة لأن تكون على صواب، ولا لأن هذا يبدو أكثر إنصافًا للأقلية، ولكن لأنها الأقوى طبيعيًّا، ولكن الحكومة التي تحكم فيها الأغلبية، في جميع القضايا، لا يمكن أن يكون حكمها مبنيًّا على العدل، حتى ولو كان على حد مفهوم البشر.» فقد كان يعتقد اعتقادًا راسخًا أن المواطن لن يتخلَّى عن ضميره للمشرع ... «يجب أن

نكون رجالًا أولًا، ثم رعايا بعد ذلك. ليس من الضروري أن ننمي احترام القانون، كما ننمي احترام الحق.»

ازدرى ثورو السياسيين كطبقة، فقال: «يخدم معظم المشرعين والسياسيين والمحامين والوزراء وموظفي الحكومة، الدولة برءوسهم غالبًا. وبما أنهم قلَّما يبدون أي تمييز أخلاقي فإنهم يميلون إلى خدمة الشيطان كإله دون وعي منهم. ويخدم قلة قليلة، كالأبطال والمتحمسين للوطن والشهداء والمصلحين والرجال بمعنى الكلمة، الدولة بضمائرهم أيضًا؛ ولذا فمن الضروري أن يقاوموا الحكومة في أغلب الأحوال؛ ولهذا تُعاملهم الحكومة عمومًا كأعداء.»

بعد ذلك أخذ ثورو يهاجم الحكومة الأمريكية لعصره، قائلًا: «لا يمكنني الاعتراف لحظة واحدة بأن تلك المؤسسة السياسية هي حكومتي، التي هي حكومة العبيد أيضًا.» من واجب المواطن أن يُقاوم الشر في الحكومة إلى حد عصيان قوانينها علنًا وعمدًا.

إذا تعهدت أمة بأن تكون ملجأً للحرية، وكان سدس عدد سكانها عبيدًا … فأعتقد أن الوقت ملائم للأشراف من شعبها أن يتمردوا ويثوروا … يجب أن يكف هؤلاء الناس عن امتلاك العبيد وعن شن الحرب على المكسيك، حتى ولو كلَّفهم هذا وجودهم كبشر.

وكذلك رثى ثورو للمواطن الذي يظن أنه قد أدى واجبه كاملًا بمجرد الإدلاء بصوته.

كل تصويتٍ نوع من المقامرة، كالضامة والطاولة، مع إضافة مسحةٍ أخلاقيةٍ بسيطة إليها. إنه لعب بالحق والباطل، بالمسائل الأخلاقية والمراهنة التي تصحبها بطبيعة الحال. ليست أخلاق المصوتين في خطر … وحتى التصويت على الحق لا يعمل شيئًا من أجله. إنه إنما يُعبِّر للناس عن رغبتك في سيادة الحق … ليس هناك سوى قليلٍ من الفضل في أعمال جموع البشر.

ناقش ثورو الطريقة الصحيحة لعمل المواطن حيال القوانين غير العادلة. هل الأفضل: الانتظار حتى تعمل الغالبية على تغيير القوانين، أم رفض طاعتها على الفور؟ كان جواب ثورو القاطع هو: «إذا أرادت الحكومة منك أن تكون عاملها في إنزال الظلم بشخصٍ آخر، فعندئذٍ أقول لك: اكسر القانون … ما يجب عليَّ أن أفعله هو أن أرى أنني لا أعير نفسي، بأية حال، إلى الظلم الذي أمقته وأحاربه.»

قال ثورو: إنه من خصائص الحكومة أن تقاوم كل تغيرٍ وكل إصلاح، وتُسيء معاملة من ينتقدونها. وتساءل: «لماذا تصلب المسيح دائمًا، وتحرم كوبرنيكوس Copernicus ولوثر Luther وتصف واشنطن وفرانكلين بالتمرد؟»

أكد ثورو على أنه ينبغي لمن يقاومون تجارة الرقيق أن «يسحبوا دعمهم في الحال، الشخصي والمادي، من حكومة ماساشوزتس، وألَّا ينتظروا حتى يصيروا غالبية عظمى، قبل أن يروا سيادة الحق بواسطتهم. وأعتقد أنه يكفي أن يكون الله في جانبهم دون انتظارٍ لتلك الغالبية. وزيادة على ذلك، فكل رجلٍ أكثر إحقاقًا للحق من جيرانه، هو غالبيةٌ في حد ذاته».

وكشعار للعصيان المدني، الذي هو طريق مفتوح أمام كل مواطن، أشار ثورو بأن يرفض المواطن دفع الضرائب. فإذا عبر ألف شخص أو أقل عن امتعاضهم من الحكومة بتلك الطريقة، فلا بد أن يتبع الإصلاح ذلك، حسب رأي ثورو. وحتى إذا كانت مقاومة السلطات تعني العقاب، «ففي ظل الحكومة التي تسجن أي فرد ظلمًا، يكون المكان الصحيح للإنسان العادل هو السجن أيضًا … إذا خيرت الحكومة بين إيداع جميع العادلين في السجن وبين ترك الحرب وتجارة الرقيق، فإنها لن تتردد في الاختيار.» فإذا دفع المواطن الضرائب لحكومة غير عادلة، فإنه إنما يتجاوز عن المظالم التي تقوم بها تلك الحكومة.

ورغم هذا، رأى ثورو أن طبقة أصحاب الأملاك تُخاطر كثيرًا إذا تمرَّدت؛ لأن «الرجل الغني — دون عمل مقارنات تثير الغضب — يُباع دائمًا للمؤسسة التي جعلته غنيًّا. وبتعبيرٍ مركَّز، كلما زاد المال قلَّت الفضيلة؛ إذ يقف المال دائمًا بين الرجل وأهدافه، ويحقِّقها له.»

وإذ لم يكن ثورو غنيًّا، كان بوسعه أن يقاوم. «يكلفني عصيان الحكومة أقل، بجميع المعاني، مما تكلفني طاعتها. أحس بأنني أساوي أقل في هذه الحالة الأخيرة.»

كذلك كان ثورو واقعيًّا في رؤيته قيمة الاعتراضات الاقتصادية التي منعَت حكومة ماساشوزتس من القيام بعملٍ ضد تجارة الرقيق.

إذا تكلمنا من الناحية العملية، فإن المعارضين للإصلاح في ماساشوزتس، ليسوا مائة ألف سياسي في الجنوب، بل مائة ألف تاجر ومزارع هنا، يهتمون بالتجارة والزراعة أكثر من اهتمامهم بالإنسانية. وليسوا مستعدين للوقوف إلى جانب تحريم تجارة الرقيق ومعارضة الحرب مع المكسيك «مهما تكلَّف الأمر».

تمسك ثورو بمبادئه لمدة ستة أعوام، وقرر أنه لم يدفع أية ضريبة رأس. ولم تزحزحه مدة سجنه القصيرة عن اتهاماته للحكومة، بل جعلته لا يهتم بالسجن.

رأيت أن الحكومة نصف ذكية، وأنها جبانة كامرأة تُركت وحيدة مع ملاعقها الفضية، وأنها لا تعرف أصدقاءها من أعدائها، ففقدت كل ما تبقَّى عندي من احترام لها.

وهكذا لن تواجه الحكومة قصدًا مشاعر الإنسان الذهنية ولا الأخلاقية، بل تواجه جسمه فقط وليس مشاعره. ليست الحكومة مسلحةً بذكاء سام ولا بأمانة، وإنما هي مسلحةٌ بقوة بدنية فائقة، لم أولد لأجبر، سأتنفس كما يطيب لي.

فرق ثورو بين الضرائب: «لم أتأخَّر أبدًا عن دفع ضريبة الطرق، ولا ضريبة المدارس؛ لأنني أرغب في أن أكون جارًا طيبًا، بقدر ما أنا رعية سيئ.» إنه يدعم تجارة الرقيق والحرب بدفع الضرائب العامة «أريد، ببساطة، أن أرفض التحالف مع الحكومة، وأن أنسحب وأقف بعيدًا عنها بطريقةٍ فعالة.» في هذه الأمور.

لم تكن هناك رغبةٌ من جانب ثورو للوقوف كشهيدٍ أو قديس، بل قال:

«لا أرغب في العراك مع أي رجلٍ أو أية أَمَة، ولا أريد أن أقومَ بالتمييز بين شخصٍ وآخر، أو أضع نفسي في موقفٍ أفضل من جيراني، بل أسعى إلى عذرٍ يجعلني أتمشَّى مع قوانين البلاد. إنني على أتم استعدادٍ للسير تبعًا لها. والحقيقة أنه لديَّ سبب للشك في نفسي فيما يختص بهذا الأمر. وفي كل عام، عندما يأتي وقت جباية الضريبة، أجد نفسي مستعدًّا لاستعراض القوانين وموقف الحكومة العامة وحكومة الولاية وروح الشعب لأكتشف حجة للتمشي مع القوانين.»

وزيادة على ذلك، اعترف ثورو أنه على الرغم من هبوط القوانين عن المستوى المثالي فإن «الدستور، مع كل أخطائه، جيد جدًّا، والقانون والمحاكم محترمة. وحتى حكومة هذه الولاية والحكومة الأمريكية رائعتان في كثيرٍ من النواحي، ونادرتان لدرجة أننا ندين بالشكر من أجلهما.»

ورغم انتقاده قاعدة الغالبية، فهو يؤمن، بعض الشيء، بحكم الشعب. وفي نظره، فالتشريع ينقصه القدرة على أن يعالج بنجاحٍ «الموضوعات المتواضعة نسبيًّا، للضرائب والمالية والتجارة والصناعة والزراعة. وإذا كان كل اتكالنا على عباراتِ المشرعين في الكونجرس، لكي تقودنا، دون أن تصححها التجارب الموسمية أو شكاوى الشعب المؤثرة، فلن تحتفظ أمريكا بمركزها بين الأمم لمدةٍ طويلة.»

ويختتم ثورو مقالَه «العصيان المدني» بعبارةٍ من فكرته عن الحكومة الكاملة، وتأكيده الملحِّ على اعتقادِه بكرامة الفرد وقيمته.

ولكي تكون سلطات الحكومة عادلةً بالمعنى الحرفي ... يجب أن تحصل على موافقة المحكومين وبركتهم. لا يمكن أن يكون لها حقٌّ مطلق على شخصي أو على ممتلكاتي إلا بقدر ما أوافق عليه. والتقدم من ملكية مطلقة إلى ملكية محددة، ومن الملكية المحددة

إلى الديمقراطية تقدم نحو احترام حقيقي للفرد … وهل الديمقراطية كما نعرفها هي التحسن الأخير الممكن في الحكومة؟ أليس بالإمكان أن نخطو خطوة نحو الاعتراف بحقوق الإنسان وتنظيمها. لن تكون هناك ولاية حرة بحق، ومستنيرة بحق إلا إذا اعترف مجلس الشيوخ بالفرد كقوة عُليا مستقلة، يستمد منها كل قوته وسلطته، ويعامل ذلك الفرد على هذا الأساس. وإني لأمتع نفسي بأن أتخيل حكومة، في النهاية، يمكنها أن تكون عادلة إزاء جميع الناس، وتعامل الفرد بالاحترام على أنه جار لا يظن من الملائم لراحته أن يعيش القليلون بعيدًا عن الحكومة ولا يتدخلون في شئونها ولا تحتضنهم تلك الحكومة التي أدَّت واجبها نحو الجيران والزملاء؛ فالحكومة التي تنتج مثل هذا النوع من الثمار وتدعه يسقط بمجرد نضجه، ستمهد الطريق لحكومةٍ أكثر كمالًا ومجدًا، وقد تخيلت هذه أيضًا، ولكني لم أرَها في أي مكان.

وبالاختصار، كان خصام ثورو للحكومة في كتابه «العصيان المدني» هو أن الحكومة تعيش للأفراد ولا يعيش الأفراد لأجل الحكومة. يجب ألَّا تخضع الأقلية للأغلبية إذا وجب تصحيح المبادئ الأخلاقية لتفعل هذا. ثم إنه ليس للحكومة الحق في إهانة الحرية الأخلاقية بإجبار المواطن على دعم المظالم. يجب أن يكون ضمير المرء دائمًا هو روحه المرشدة العليا.

يمكن إهمال أثر «العصيان المدني» في عصر ثورو … لم يُشر إليه معاصروه من الكتَّاب في مؤلَّفاتهم. وإذ كانت الحرب الأهلية بعد ذلك بعشر سنوات أو أكثر قليلًا، فيمكن افتراض أن ذلك المقال قد مسَّ وترًا شعبيًّا حساسًا. ومن الجلي أنه دفن تحت التيار المكتسح لأدب أنصار الإلغاء، وظل غامضًا ومنسيًّا إلى القرن التالي.

والآن ينتقل المنظر إلى جنوب أفريقيا والهند. ففي سنة ١٩٠٧م وقعت نسخة من كتاب «العصيان المدني» في يدي محامٍ هندي في أفريقيا اسمه مهانداس كاراتشاند غاندي Mohandas Karamchand Gandhi كان غاندي يفكِّر من قبل في ميزات المقاومة الإيجابية كدفاع لشعبه. وهاك سردًا لهذا الحدث كما ذكره المهاتما بعد ذلك باثنتين وعشرين سنة لهنري صولت Henry Salt أحد كاتبي تاريخ حياته المبكرين:

كان أول لقاء لي مع مؤلَّف ثورو، على ما أظن، في سنة ١٩٠٧م، أو بعد ذلك، لما كنت في معمعان نزاع المقاومة الإيجابية. أرسل لي أحد أصدقائي نسخةً من مقالٍ عن «العصيان المدني»، فترك في نفسي أثرًا عميقًا. فترجمت جزءًا منه لقرَّاء صحيفة «الرأي الهندي في جنوب أفريقيا» التي كنت أحرِّرها وقتذاك، ونقلت بعض فقراتٍ منه للقسم الإنجليزي

من تلك الصحيفة. يبدو أن ذلك المقال مقنع وصادق لدرجة أنني شعرت بالحاجة إلى معرفة المزيد عن ثورو. فعثرت على كتابك عن تاريخ حياته، وعلى كتابه «الغابة»، وبعض المقالات القصيرة الأخرى، وقرأتها جميعًا بمتعةٍ بالغة، وفائدة مماثلة.

وهناك قصة أخرى تختلف قليلًا عن هذه، رواها أحد الأصدقاء المقربين لغاندي في جنوب أفريقيا وهو هنري بولاك Henry Polak:

لا أستطيع الآن (١٩٣١م) أن أتذكَّر أنه في سنة ١٩٠٧م، هل كان غاندي هو الذي عثر على نسخةٍ من مقال ثورو (نشرته مكتبة سكوت Scott) أم أنا الذي عثرت عليها. ولكن كلًّا منَّا تأثر به غاية التأثُّر، لمطابقة معنى مبادئ المقاومة الإيجابية، والعصيان المدني ... في مقال عن واجب العصيان المدني. وبعد التشاور مع المستر غاندي، كتبت المقال في أعمدة صحيفة «الرأي الهندي» وترجم إلى اللغة الجيجاراتية Gujarati التي كانت تلك الجريدة تظهر بها، كما تظهر باللغة الإنجليزية أيضًا. وبعد ذلك، نشر ذلك المقال في صورة كتيبات أو نشرات. وفي السنة نفسها، نظمت جريدة «الرأي الهندي» مسابقة في مقال عن الفلسفة الأخلاقية للمقاومة الإيجابية، مع إشارةٍ خاصة إلى مقال ثورو، الذي جذب انتباه المستر غاندي.

لما كان غاندي غير راضٍ عن المصطلح «المقاومة الإيجابية»، وفي الوقت نفسه لم يجد مصطلحًا بديلًا ملائمًا، وافق من فوره على استعارة «العصيان المدني» لوصف حركته. قرَّر أن هذا المصطلح تعبير عن مبدأ الصلابة في غير عنف، مع تمسك بالحقيقة والعدالة — وهذه سياسة دبلوماسية تنطبق تمامًا وفلسفة غاندي. فصار «العصيان المدني» في يدي المهاتما غاندي إنجيلًا لعدم المقاومة ... صاغ غاندي لأتباعه الهندوكيين مصطلحًا معادلًا «ساتيجراها Satygraha» ويتكون من كلمتَيْن سانسكويتيتين ترجمتهما «قوة الروح» أو «القوة المولودة من الحقيقة والمحبة، أو عدم العنف».

يقول كريشنالال شريدهاراني Krishnalal Shridharani وهو أحد كتَّاب تاريخ حياة غاندي: «إن نضال ثورو ضد تجارة الرقيق في الولايات المتحدة، قد شبع غاندي بالإيمان بأن عدد المقاومة ليس هو ما يهم في «قوة الروح» وإنما الذي يهم هو نقاء روح التضحية.» وقرر غاندي:

الأوامر مستحيلة عندما تنحصر في عددٍ قليلٍ من الممتعضين، وهي متعبةٌ عند وجوب تنفيذها ضد الكثيرين من ذوي النفوس السامية، الذين لم يقترفوا إثمًا، والذين يرفضون دفع الضريبة دفاعًا عن مبدأ. وعندما يلجأ الأفراد العزَّل إلى هذه الطريقة للتعبير عن

احتجاجهم، فقد لا يسترعون كثيرًا من الانتباه. بيد أن الأمثلة الظاهرة تنتهج طرقًا غريبة لمضاعفة أنفسها. إنها تتحمَّل الإعلان، وبدلًا من أن تعاني الكراهية، تحظى بالتهاني … حقق أناس، أمثال ثورو، إلغاء تجارة الرقيق بمُثُلهم الشخصية.

بهذه العبارات كان غاندي يردِّد ألفاظ ثورو عن قوة الأقلية الصغيرة ذات العزيمة الثابتة. وبذا، كما علَّق شريدهاراني: «لم يصنع ثورو سلاح العصيان المدني الذي هو قاعدة هامة في مقال غاندي «قوة الروح»، لم يصنع ثورو هذا فحسب، بل وأبرز قوة عدم التعاون التي كبرها غاندي بعد ذلك كوسيلةٍ لتحطيم حكومة فاسدة.»

بقي غاندي في جنوب أفريقيا طوال عام ١٩١٤م يقوم بمعركة مع قوات الحكومة التي يقودها الجنرال جان سمطس Jan Smuts، وقد تميزت تلك الحملة بالاضطهاد والعنف المتعدد الصور، والسجن وجميع الوسائل الأخرى المتوفرة لدى حكومة قوية لمحاولة قمع أقلية غير شهيرة … أفادَت طرق غاندي من عدم التعاون وعدم المقاومة والعصيان المدني أو «قوة الروح»، وفي النهاية وافق رئيس الوزراء سمطس وحكومته، على كل طلب هام للهنود، ومن ذلك إلغاء قانون بصمات الأصابع، وإلغاء ضريبة الثلاثة الجنيهات على الرأس، والتصديق على صحة زواج الهندوس والمسلمين، وإزالة القيود المفروضة على هجرة الهنود المتعلمين، والوعد بحماية الحقوق الشرعية للمواطنين الهنود.

وقرر أندروز Andrews، وهو كاتب آخر لتاريخ حياة غاندي، أنه يجب اعتبار حملة جنوب أفريقيا «ليس المثال الأول فحسب، بل والمثال الكلاسيكي لاستخدام عدم المقاومة بواسطة جموع الناس المنظَّمة لدفع المظالم.»

وتبعًا لما قاله شريدهاراني، كان تفسير غاندي للعصيان المدني هو أن:

بوسع أولئك الراغبين في طاعة القانون وحدهم … أن يكون لهم الحق في ممارسة العصيان المدني ضد القوانين غير العادلة. ويختلف هذا الأمر تمام الاختلاف عن مسلك طريدي القانون؛ لأنهم يمارسونه علنًا وبعد سابق إنذار مناسب … لم يكن من اللائق، إذن، تنمية عادة كسر القانون أو خلق جو من الفوضى. وإنما يلجئون إليه فقط عندما تخفق جميع الوسائل الأخرى كالشكاوى والمفاوضات والتحكيم، في دفع الظلم.

عاد غاندي إلى الهند في أوائل سنة ١٩١٥م، وبقي هناك حتى قُتل في سنة ١٩٤٨م، اغتاله مجرم هندوكي، وهو يقود القوات التي جلبت الحرية للهند وباكستان. وحدث شغبٌ ومذابح وأحكام بالسجن لمدد طويلة وكبت للحريات المدنية وقوانين ظالمة للنضال بها. وكثيرًا ما استخدم العصيان المدني إبان هذه السنين، وشحذه غاندي حتى جعله

سلاحًا ذا أثر عجيب. كانت الخطوات الأولى اضطرابات ومظاهرات ومفاوضات، وإن أمكن تحكيمها. وإذا لم تأتِ هذه بنتائج، كانوا يلجئون إلى الطرق الاقتصادية كالإضراب والمقاطعة التجارية والاعتصام. ومن الطرق الأخرى عدم دفع الضرائب.

وفي أغسطس سنة ١٩٤٧م منحت بريطانيا الهند الهندوكية وباكستان الإسلامية حق تقرير المصير.

لا شك في أن المستقبل سيرى فوائد أخرى لاستخدام مبادئ العصيان المدني كما وضعها ثورو ونقَّحها غاندي. وإن قوى الشعوب المظلومة في كل مكان، حتى في الدكتاتوريات الحديثة الوحشية، لَتستطيع بهذه الوسائل إرغام السلطات على الإحساس بها. ومن الأمثلة السائرة نضال شعوب جنوب أفريقيا الملونة ضد حكومة ستريجدون Strijdon وهو تحديد لنضال غاندي.

قال غاندي: «فحتى أكثر الحكومات استبدادًا لا يمكن أن تقوم إلا بموافقة المحكومين، تلك الموافقة التي كثيرًا ما يحصل عليها المستبد باستخدام القوة. وعلى الفور تكف الرعية عن الخوف من القوة المستبدة. لقد ذهب ريح ذلك المستبد، وتعوضت القلوب من رعبها منه، الجرأة عليه.»

نبذ ثورو الحكومة التسلطية والحكومة المطلقة في أية صورة من صورهما. كانت مذاهبه، على طول الخط، ضد الشيوعية والاشتراكية، أو أي مذهب آخر يجعل الحكومة فوق حقوق الفرد. ويجب التنويه عن أن اتجاه الحكومة في منتصف القرن العشرين يدلُّ على أن أفكار ثورو تُقاتل في حرب خاسرة. ومع ذلك، ففي العالم عمومًا، نجد مسألة علاقة المواطن بحكومته — أي طبيعة ومدى طاعته لها — لم تكن عاجلةً أكثر من هذا.

كتب بارنجتون Parrington يقول: «إن فلسفة الفردية في القرن الثامن عشر، والإباحية القوية التي أطلقها جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau وقد بلغَت ذروتها في ميوانجلاند عن طريق ثورو. كان التجسد الكامل لرد فعل مبدأ «حرية التعامل» على النظام الاجتماعي المدعم بالقوة العسكرية، وأقسى ناقد للاقتصاديات الدنيا، التي تحبط أحلام الحرية البشرية. وكان سعيد الحظ في عدم تكهُّنه بمقدار بعد ذلك المستقبل، مستقبل الأحرار الذي ثبت عليه آماله.»

الفصل السادس

مغامرة من أجل المساكين: هاريت بيتشر ستو[1]

كابينة العم توم

اتفق نقَّاد «كابينة العم توم»، من مادحين وقادحين، في نقطة واحدة؛ فقد اعترفوا جميعًا، بغير استثناء، بالأثر الهائل لذلك الكتاب على عصره، وبنفوذه القوي في التحريض على الحرب الأهلية. وقد وصف أحد المعلقين المعاصرين القادحين، هذا المؤلف بأنه: «تشويه وحشيٌّ أوحى به التعصب لإلغاء الرق، وأنه موضوع لإثارة الشقاق بين الأقسام.» وأبدى أحد مشاهير المحاضرين والكتَّاب، في أوائل القرن الحالي، ملاحظته بقوله: «أحدث كتاب كابينة العم توم ضررًا للعالم يفوق ما فعله أي كتاب آخر.»

وعلى نقيض هذين، عبَّر عددٌ كبير من المعجبين، عن عاطفتهم بخطابٍ جاء من لونجفلو يصف كتاب كابينة العم توم بأنه: «أحد الانتصارات العظمى التي سجلها تاريخ الأدب علاوة على أثره الأخلاقي.» وقرظ آخرون ذلك الكتاب على أنه «انتصار للحقيقة» و«خالد» وأن المؤلف «سيدة نابغة بدون جدال.»

ما من كتاب آخر كان أكثر موضوعية ولا أحسن توقيتًا وظيفيًّا ... زادت حدة النضال من أجل مسألة الرقيق. وزاد في حدتها التصديق على قانون العبيد الهاربين — ظل المطالبون بإلغاء الرقيق عشرين سنة يصعدون من إثارة الرأي العام ضد الرق،

[1] Harriet Beecher Stow.

وانقسم الكونجرس من الوسط قسمين، بتزايد المعارضين للرق من رجال الدين — من الشمال والجنوب — وهم يصيحون من منابرهم بالآيات المقدسة المحرمة استخدام العبيد وامتلاكهم. وبلغ الجو الثائر ذروته ينتظر شرارة فحسب لحدوث انفجار يهز العالم كله، وقد زودهم كتاب كابينة العم توم بهذه الشرارة.

لم يكن الوقت مناسبًا فقط، بل ظلَّت الوراثة والبيئة تشكِّلان الشخص الملائم بالضبط لإثارة المغامرة ضد استرقاق البشر.

وإذ كانت هاريت بيتشر ستو ابنة رجل من أشهر الناس قداسة في القرن التاسع عشر، وهو لايمان بيتشر Layman Beecher وشقيقة واعظ أكثر عاطفة من أبيه وهو هنري وارد بيتشر Henry Ward Beecher وزوجة واعظ، وشقيقة ووالدة وعاظ آخرين، قضت حياتها كلها في جو ديني بحت. وزيادة على ذلك، كان تعليمها الديني كلفينيًّا متعصبًا، متمسكة بروح جوناثان إدواردز Jonathan Edwards وصموئيل هوبكنز Samuel Hopkins وغيرهما من متصوفي نيو إنجلاند، كما أحاط بها باستمرار منذ نعومة أظفارها تعاليم لاهوتية «كالنار والكبريت» … قلما كانت هاريت تستطيع إلا أن تكون واعظة — إن لم يكن من منبر، فعلى الأقل بالقلم. تجلَّى الأساس الديني في جميع مؤلفاتها المتنوعة ومنها كابينة العم توم، يحفزها إلى الحماس الإنجيلي وفصاحة التعبير بالآيات المقدسة.

ولدَت هاريت بيتشر ستو في ليتشفيلد Litchfield بولاية كنكتيكت Connecticut في سنة ١٨١١م ونالت قسطًا من التعليم في هايرتفورد Hartford أفضل مما جرت العادة أن تناله النساء في عصرنا. وكان حوالي ثلثي تعليمها دينيًّا في طبيعته. وكانت مولعة بالقراءة. وزيادة على علم اللاهوت، كان المؤلفان المفضلان لديها هما بايرون Byron وسكوت Scott اللذين كان لهما تأثير كبير في أسلوب كتابتها.

انتقل لايمان بيتشر، الكثير التنقُّل، مع أسرته من ليتشفيلد إلى أبروشية في بوسطون Boston، وكانت هاريت عندئذٍ في الرابعة عشرة من عمرها، وبعد ذلك ببضع سنين انتقل ثانيةً إلى سنسناتي Cincinatti حيث استُدعي رئيسًا للمجمع اللاهوتي في لين Lane حيث بقيت هاريت إلى سنة ١٩٥٠م تقوم بالتعليم في مدرسة هناك، وتزوجت عضوًا من كلية ذلك المجمع، هو كالفين ستو Calvin Stowe، فأنجبت ستةً من أطفالها السبعة. وبين آنٍ وآخر، كانت ترسم وتكتب القصص للنشر في المجلات هناك.

كانت السنوات التي قضَتْها في سنسناتي شكليةً في كثيرٍ من النواحي. وتقع سنسناتي هذه على نهر أوهيو Ohio في مواجهة مزارع شاسعةٍ يفلحها العبيد في ولاية كنتكي Kentucky وكانت مركزًا لحركة ثائرة ضد الرق. وكان الرعاع المعارضون لإلغاء الرقيق يجوبون شوارعها يحطمون المطابع المضادة للرق، ويسيئون معاملة الزنوج الأحرار. فألقيت الخطب العنيفة لإبطال الرق. كما كانت سنسناتي ملجأ للعبيد الهاربين، وهم في طريقهم إلى الشمال بالسكة الحديدية تحت الأرضية إلى الحرية في كندا. وكان المجمع نفسه مُربيًا للعاطفة المناوئة للرق، ولم يحمِه من هجوم الرعاع إلا موقعه في شارع وعرٍ موحل يبعد عن المدينة بمسافة ميلَيْن. وقد أوى بيت لايمان بيتشر الهاربين في عدة مناسبات. وصل إلى أذني هاريت، مباشرة، من أفواه العبيد الهاربين قصص عن عائلات تفككت، عن قسوة ملاحقي عمل العبيد، وفظائع مبنى المزاد، وأهوال مطاردة الهاربين.

رأت مسز ستو بعيني رأسها، مرةً واحدة، العمل في أنظمة الاحتفاظ بالعبيد. ففي زيارةٍ قصيرةٍ مع بعض الأصدقاء لمدينة مايزفيل Maysville بولاية كنتكي، سنة ١٨٣٣م، شاهدَت عددًا من المزارع بها عددٌ كبير من البيوت الريفية وعنابر العبيد. هنا وجدَت نموذج المزرعة التي تخيلتها لكتاب «كابينة العم توم» وهي مزرعة شلبي Shelby، كما حصلت على أفكار عملية لنظام عمل العبيد. وزادت ذخيرتها من عند أخيها شارلز الذي يعمل رجل أعمال ويسافر إلى نيو أورليانز New Orleans وريف النهر الأحمر؛ إذ جاءها بقصصٍ بشعة عن الرق في أقصى الجنوب. كانت هاريت مدينةً لشارلز بنموذج بطل كابينة العم توم، وهو سيمون لجري Simon Legree الذي يتميَّز بوحشية ملاحظ العبيد، وقد التقى به شارلز على ظهر سفينة في نهر المسيسبي Mississippi.

وفي السنوات التي قضتها هاريت ستو في سنسناتي، لم تكن من محبذي إلغاء الرق المتحمسين، وربما شاركت أباها رأيه في أن الإلغاء يتكون من «الخل وحامض النتريك وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) مع الكبريت وملح البارود والفحم النباتي، ليتفجر فتتناثر المادة الأكالة.» والواقع أن مسز ستو كانت متفرجة أكثر منها بطلة عاملة في معركة الرقيق، حتى عادت إلى نيو إنجلاند إذ عُيِّن كالفين ستو أستاذًا بكلية بودوين Bowdoin بولاية مين Maine، فانتقل إليها مع أسرته في سنة ١٨٥٠م.

كانت نيو إنجلاند كلها ثائرة حنقًا على إقرار قانون العبيد الهاربين وخصوصًا ضد أحداث ذات صلة بتطبيق ذلك القانون في بوسطون. فأصحاب العبيد في الجنوب يمكنهم مطاردة العبيد الهاربين داخل الولايات الحرة مع إلزام موظفي هذه الولايات بمساعدتهم

في استعادة مملوكيهم. وزيادة على ذلك، فإن الزنوج الذين نعموا بالحرية قانونًا منذ مدة طويلة، جمعوا وأعيدوا إلى أصحابهم السابقين، وغالبًا ما انفصلوا عن عائلاتهم في هذه العملية.

تسلمت هاريت ستو خطابًا من زوجة أخيها مسز إدوارد بيتشر ترجوها فيه أن تكتب شيئًا يجعل أمة بأسرها تشعر بفظاعة الرق. وتبعًا لتقاليد أسرة ستو، قالت هاريت: «بمساعدة الرب سأكتب شيئًا إن أحياني الله.» وفي تلك الأثناء، كان أخوها إدوارد ثائرًا ضد الرق في كنيسة بوسطون، بينما يعقد أخوها الآخر هنري وارد مزارات في كنيسته بمدينة بروكلين Brooklyn لتخليص العبيد من رقهم ومنحهم الحرية.

كان القسم الأول من كتاب «كابينة العم توم»، الذي كان ما يزال في طور التأليف، هو غاية الموضوع، ويصف موت توم. وبينما كانت مسز ستو حاضرة في كنيسة برنسويك Brunswick أثناء توزيع الذبيحة المقدسة، استرجعت كافة المناظر المتجمعة في عين ذهنها. وفي مساء ذلك اليوم نفسه ذهبت إلى حجرتها وأقفلت بابها وطفقت تكتب رؤيتها حتى نفد ما لديها من ورق الكتابة فاستعملت ورق اللف البني اللون وأكملت فيه قصتها. وعلى ذلك كونت هذه القصة الباب الذي عنوانه «الشهيد» في كتاب «كابينة العم توم». ولما قرأته لأولادها وزوجها تأثَّروا جميعًا تأثرًا عميقًا. ويُقال إن كالفين ستو، صاح يقول: «أي هاتي، هذه ذروة قصة الرق التي وعدت شقيقتي إيزابيل بكتابتها. ابدئي من البداية حتى تصلي إلى هذه، تحصلي على كتابك.»

بعد أسابيع قليلة، كتبت هاريت ستو إلى جماليل بايلي Gamaliel Bailey محرر صحيفة «العصر الفومي»، وهي جريدة مناصرة لإلغاء الرق تصدر في واشنطون، وكان بايلي يعرف أسرة بيتشر في سنسناتي حيث كان يصدر جريدة أخرى مناهضة للرق عنوانها «الخير»، حتى طُرد من هناك في كثيرٍ من العنف. ذكرت مسز ستو في خطابها أنها تعتزم كتابة قصة اسمها «كابينة العم توم» عن «الرجل الذي كان شيئًا»، وهذا عنوان غُيِّر فيما بعد إلى: «الحياة بين المساكين» في صورة حلقات تصل إلى ثلاث أو أربع. فعرض عليها بايلي ثلاثمائة دولار لحقوق النشر، وبدأت صحيفة «العصر القومي» تنشر الحلقات في شهر يونية سنة ١٨٥١م.

توقعت مسز ستو أن ينتهي ذلك المؤلف في شهر، ولكنه امتدَّ باستمرار في مناظر وأحداث وشخصيات ومحادثات كانت مكدسة في ذاكرتها من تجاربها السابقة أو قراءة ما جاءها بالأكوام، بينما كانت قوى خيالها وابتكارها تتأجج حماسًا. امتدت الحلقات

الأسبوعية لمدة سنة تقريبًا قبل أن تتمكن المؤلفة المتعبة من الوصول إلى خاتمة كتابها، بعد ذلك، أصرَّت على أن الله نفسه هو الذي كتبه، «ولم أكن أنا سوى أداة في يده.»

لم تكن الخطة الأصلية لقصة «كابينة العم توم» معقدة، ولو أنها تتضمن عدة شخصيات. ففي المنظر الافتتاحي: لكي يسدد المستر شلبي، وهو صاحب عبيد خير من كنتكي، ديونه، اضطر إلى أن يبيع بعضًا من خيرة عبيده، ومنهم العم توم، إلى نخَّاس في نيو أورليانز اسمه هيلي Haley. فاسترقت السمع فتاة نصف زنجية اسمها إليزا Eliza فعرفت أن طفلها هاري سيباع أيضًا. وفي ديجور الظلام ليلًا، هربت مع ابنها وعبرت نهر أوهيو المتجمد طلبًا للحرية في كندا. وكان زوجها جورج هاريس George Harris عبدًا في مزرعة قريبة، فهرب هو أيضًا ولحق بها. وأخيرًا، وبعد عدة مغامرات مع قوات القبض على العبيد الهاربين التي طاردتهم، وبمساعدة أعضاء جمعية الأصدقاء التي أسسها جورج فوكس، وغيرهم من البيض المشفقين عليهم، على طول الطريق، وصلوا إلى كندا، ثم بعد ذلك إلى أفريقيا.

أما العم توم فكان سيئ الحظ؛ إذ رفض الهروب لئلا يربك سيده، وفُصل عن زوجته وأولاده. وإبَّان الرحلة في نهر المسيسبي إلى نيو أورليانز، أنقذ توم حياة الصغيرة إيفا Eva ولكي يعبر أبوها سانت كلير St. Claire عن شكرِه لتوم، اشتراه من النخاس ... كانت السنتان التاليتان مدة سعادة لتوم كخادم في بيت سانت كلير المنيف في نيو أورليانز مع الطفلة القديسة إيفا ورفيقها الزنجي الصغير توبسي Topsy. ثم ماتت إيفا، وفي ذكراها، اعتزم سانت كلير أن يعتق توم وزملاءه العبيد الآخرين، ولكن سانت كلير قُتل فجأةً وهو يحاول أن يفرق بين اثنين من المتشاجرين، فأمرت زوجته بإرسال توم إلى سوق الرقيق ليباع بالمزاد العلني، فاشتراه مزارع متوحش سكير من منطقة النهر الأحمر اسمه سيمون لجري. وعلى الرغم من سلوك توم المسالم وبذله كل جهد لإرضاء سيده القاسي، فإن لجري سرعان ما بدأ يمقت توم، وكان يسوطه كثيرًا. وحدث أن اعتزمت اثنتان من الإماء كاسي Cassy وإملين Emmeline الهرب من المزرعة والاختباء في مكان ما. فاتهم لجري توم بمساعدتهما واشتبه في أنه يعرف أين تختبئان. وعندما رفض توم الإفضاء بأية معلومات، ظل لجري يسوطه حتى فقد وعيه. وبعد ذلك بيومين، جاء جورج شلبي الصغير ابن صاحب توم السابق ليشتريه ويستعيده ولكن بعد فوات الأوان؛ إذ مات توم متأثرًا بجراح ضربه الوحشي القاتل. فما كان من جورج إلا أن ضرب لجري فطرحه أرضًا، ثم عاد إلى كنتيكي فأعتق جميع العبيد باسم العم توم، واعتزم تكريس بقية حياته لقضية إلغاء الرق.

رغم أن توزيع صحيفة «العصر القومي» لم يكن ضخمًا. فقد حظي كتاب «كابينة العم توم» بإقبالٍ حماسي في خلال بضعة أشهر. وقبل ظهور الباب الأخير أخرج وليد أفكار مسز ستو من المطبعة في صورة كتاب. تعهدت مؤسسة جون ب. جيويت John P. Jewett في بوسطون بهذا العمل في خوف عظيم بسبب طوله، من جهة، وكون مؤلفته امرأة من جهة أخرى، وعدم شعبية موضوعه. ولكي يحتاط جيويت ضد أي خسارة مالية، عرض على مسز ستو ٥٠٪ من الأرباح نظير أن تدفع نصف تكاليف الإنتاج. ولكن، بدلًا من ذلك، اختارت أسرة ستو أن تحصل على ١٠٪ من ثمن النسخ المبيعة — فأضاع عليهم هذا القرار ثروة.

لم يكن كلٌّ من الناشر والمؤلفة متفائلًا من نجاح «كابينة العم توم». فعبرت مسز ستو عن أملها في أن يأتيها ذلك الكتاب بما يكفي لشراء ثوب جديد من الحرير. كانت الطبعة الأصلية ٥٠٠٠ نسخة من جزءين، وقد رسم على وجه الغلاف صورة كوخ زنجي.

بيعت ٣٠٠٠ نسخة في اليوم الأول للنشر، وبيع الباقي كله في اليوم التالي، بينما تدفقت الطلبات. وفي خلال أسبوع بيعت ١٠٠٠٠ نسخة، وفي نهاية السنة الأولى كانت المبيعات ٣٠٠٠٠٠ نسخة في الولايات المتحدة وحدها. كانت ثماني آلات طباعة آلية تعمل ليل نهار لسد المطلوب، وتحاول ثلاثة مصانع للورق توريد الورق اللازم. ورغم هذا، كان الناشر لا يزال في حاجة إلى ألوف من النسخ لسد الطلبات. ويبدو أن كل شخص يعرف القراءة والكتابة في الدولة قد قرأ هذا الكتاب.

كانت شهرة «كابينة العم توم» في الخارج تزيد على المبيعات في الولايات المتحدة نفسها. أرسل موظف صغير لدى بوتنام Putnam نسخة إلى ناشر إنجليزي، فنال خمسة جنيهات نظير أتعابه. فظهرت عدة طبعات مسروقة؛ إذ لم تكن هناك حماية دولية لحق التأليف. وسرعان ما كانت هناك ثماني عشرة مؤسسة إنجليزية تمد السوق بالنسخ المطلوبة بأربعين طبعة مختلفة. وقدِّر أنه في خلال سنة بيع مليون ونصف مليون نسخة في بريطانيا العظمى والمستعمرات. ولم تحصل مسز سنو على أي شيء من ثمن كل هذه المبيعات وفي الوقت نفسه، كان الناشرون الأوروبيون مشغولين بجني ثمار ذلك المحصول الذهبي؛ فقد تُرجم هذا الكتاب إلى اثنتين وعشرين لغة على الأقل، ولقي النجاح في فرنسا وألمانيا والسويد وهولندة والدول الأخرى بمثل النجاح الذي لقيه في الدول المتكلمة بالإنجليزية.

وزيادة على ذلك، حولت هذه الرواية إلى مسرحية وصارت واحدة من أشهر المسرحيات التي مثلت في المسارح الأمريكية، وظهر منها عددٌ لا يحصى من الطبعات قام بها جماعات

مسرحية عديدة طافت حول العالم خلال القرن الماضي. ومرة أخرى، لم تكسب مسز ستو شيئًا ماليًّا؛ إذ إن قانون حقوق الطبع والنشر والتأليف الذي كان سائدًا في سنة ١٨٥٢م لم يُعطها إشرافًا على تحويل روايتها إلى مسرحية. وعلى أية حال، لم تستحسن مسز ستو تحويلها إلى مسرحية، ورفضت أن تطلب تصريحًا بتحويل كتابها إلى مسرحية.

وبالجملة، فإن ما أحرزه كتاب «كابينة العم توم» من شهرة وربح، لم يحرزه أي كتاب آخر في تاريخ النشر، فيما عدا التوراة الذي ضرب الرقم القياسي في المبيعات. صار هذا الكتاب ملكًا للملايين في شتى صوره: الخيالية والمسرحية والشعرية والموسيقية، كما طاف حول الكرة الأرضية.

كان تأثير كتاب «كابينة العم توم» على الرأي والعواطف المعاصرة هائلًا مثل ضخامة مبيعاته. وفيما بعد وصف ابن مسز ستو وحفيدها إقبال الناس، بقولهما: «كان مثل إشعال حريق ضخم، عمل على تألق السماء كلها بطوفان العواطف الجارف الذي اكتسح أمامه كل شيء وعبر المحيط الشاسع نفسه، حتى بدا أن العالم كله قلَّما كان يفكر في شيء أو يتحدث عن شيء سواه.»

بيد أنه جاءت من الجنوب عاصفة هوجاء من الغضب والإنكار والقدح، انصبَّت على مؤلفة «كابينة العم توم». وسرعان ما وضع اسمها بين قوسين مع أمير الشرور. وامتلأت أعمدة في الصحف من النقد المفصل بقصد إظهار أخطاء ومغالطات تصوير مسز ستو للرق. ومن التعليقات النموذجية، تقرير صحيفة «الرسول الأدبي الجنوبي» القائل بأن ذلك الكتاب «بغاء إجرامي لوظائف الخيال السامية.» وأن مسز ستو، إذ اقترفت إثمًا بتأليفه، «قد وضعت نفسها خارج نطاق العلاج الطيب على يدي النقد الجنوبي.» وتسلمت مسز ستو شخصيًّا، ألوفًا من الخطابات الغاضبة وخطابات السباب ... وفي البداية، انتشر توزيع كتاب «كابينة العم توم» في الجنوب بحرية، غير أنه بعد رد الفعل العنيف المرير، صار مجرد حوزة نسخة من هذا الكتاب خطرًا أي خطر.

ومن قبيل التهكم، كانت مسز ستو تأمل وتؤمن بأن روايتها «كابينة العم توم» قد تكون وسيلة لحل نزاع الرق الذي طال أمده. وبعد أن قرأ أحد الأصدقاء الجنوبيين هذا الكتاب، كتب إليها يقول: «سيكون كتابك مصلحًا عظيمًا يوحِّد بين الشمال والجنوب.» حاولت مسز ستو في كتاب «كابينة العم توم» أن تقدم في عدل طرفي النزاع في جدال الرق — التصوري والديني من ناحية، والقاسي المتشائم من جهة أخرى. صُوِّر اثنان من أصحاب العبيد في ذلك الكتاب، هما المستر شلبي وأوجستين سانت كلير، وهما أخوان

من الجنوب عظيما الفضل. وربما كانت إيفا الصغيرة، ابنة سانت كلير أكثر الأطفال ملائكية في الأدب كله. أما الوغد الأعظم سيمون لجري فهو رجل ملحد من ولاية فيرمونت Vermont. كما تحدث كثير من كوميدية الكتاب عن شخصيتين أخريين من نيو إنجلاند هما مس أوفيليا Miss Ophelia وماركس Marks. وقد أبانت مسز ستو بوضوح أن أهالي الشمال ينقصهم الوعي الكافي بصفة قاطعة عن الزنوج، ومع ذلك، فقد يعطفون عليهم في شيء من الغموض.

بيد أن هذه الاعترافات لم تكن كافية لإرضاء استياء الجنوب؛ فقد توالت الهجمات العنيفة من كل جانب واتهمت مسز ستو بتشويه الحقائق. مثال ذلك: أشير إلى أن قوانين الجنوب صارمة وملزمة إزاء قتل العبيد مثلما هي صارمة إزاء قتل البيض، وتحرم اللوائح عادة فصل الأطفال، الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات، عن أمهاتهم. هذا، والعبيد كممتلكات بالغو القيمة فلا يجب إساءة معاملتهم إساءة خطيرة.

أما في الشمال، فاستقبل كتاب «كابينة العم توم» استقبالًا مختلطًا؛ فحتى البعض، الذين يمقتون الرق، يتهمون هذا الكتاب لخوفهم من أن يثير حربًا أهلية. كما ذمَّه أهل الشمال المستثمرون أموالًا في أعمال قطن الجنوب خشية أن يعرِّض استثماراتهم للخطر. وعبرت صحيفة التجارة النيويوركية عن وجهة نظرهم هذه في نشرة معادية تتساءل عن مدى صدق مسز ستو. ومع ذلك، فعمومًا، تقبل القراء الشماليون «كابينة العم توم» على أنه اتهام حق لنظام الرقيق. ولما لم يعمل شيء غير ذلك، تحرك الضمير القومي والغرائز الإنسانية فأثارت هذه القصة وأصابت نغمات عباراتها الدينية القوية هدفها من أن الرق يتناول أرواحًا بشرية.

ومن الآثار المباشرة لكابينة العم توم، استحالة التصديق على قانون العبيد الهاربين؛ فكان عدم التعاون مع القانون إجماعيًّا خارج الجنوب. والأشد من ذلك، أن ذلك الكتاب ألهب مجموعة ضخمة من العاطفة ضد الرق، وربما جعل من المحتم نشوب حرب أهلية وبالتأكيد، كان هذا الكتاب السبب الأكبر في ذلك الالتحام المنتهي بكارثة، كما أدرك أبراهام لنكولن Abraham Lincoln وهو يصافح مسز ستو عندما زارت البيت الأبيض في سنة ١٨٦٢م، وقال عنها إنها «السيدة الصغيرة التي كتبت ذلك الكتاب المسبب لهذه الحرب الكبيرة.» وأبدى تشارلز سمنر Charles Sumner ملاحظته بأنه «إذا لم يؤلف كتاب «كابينة العم توم»، فما كان لأبراهام لنكولن أن يُنتخب رئيسًا للولايات المتحدة.»

أما القيمة الأدبية لكابينة العم توم، فلم تلقَ إلا اهتمامًا سطحيًّا في بادئ الأمر، رغم أن النقاد جميعًا ناقشوها فيما بعد. ولاحظ المؤرخ جيمس فورد رودز James Ford Rhodes

أن «الأسلوب عادي، واللغة، في أغلب الأحوال، مبتذلة وغير أنيقة، وتنقلب أحيانًا إلى اللغة العامية، والدعابة متكلفة.» وناقش أحد النقاد الجنوبيين وهو ستارك ينج Stark Young استخدام مسز ستو للهجة الزنوج، فيقول: «رأت كثيرًا من السود، ولكنها لم تجعلهم يتكلمون. أذنها مستحيلة، ليس لديها إحساس بوقع لغتهم أو حيويتها.» ويشير فان ويك بروكس Van Wyck Brooks إلى «عيوب الكتاب الواضحة من حيث التركيب والعاطفية.» ورغم هذا، يصفه بأنه «وثيقة إنسانية عظمى.» وتعتقد معلقة حديثة أخرى، هي كاثارين أنثوني Katharine Anthony أن «كابينة العم توم قصة وصورة للأخلاق الأمريكية ... وتستحق التقدير السامي بغير ما ريب. ومن الجلي أن مسز ستو مولعةٌ بالجنوب. فبينما هي تمقته لأنه في جانب الرق، نراها تصور جوه بحرارة وعطف. كانت طليعة الكُتَّاب الأمريكيين في تناول مسألة الزنوج بجدية، وتتخيل قصة بطلها رجل أسود. ورغم أنها كتبت لغرض أخلاقيٍّ، فقد نسيت المؤلفة الغرض الأصلي أحيانًا في متعة انسياقها في سرد قصتها.» أما من حيث الوجهة التاريخية فبالطبع لهذه الرواية أهمية عظمى كوثيقة اجتماعية أكثر منها عملًا فنيًّا أدبيًّا أو كلاسيكيًّا. وبالتأكيد هي أكثر من مجرد قصة، كما وصفها قلم «كاو» فيقول إنها: «مفعمة بالقتل والشهوة والحب المحرم والانتحار والتعذيب البالغ القسوة والنجاسة والسكر وشجار الحانات.»

أكسب كتاب «كابينة العم توم» مسز ستو، في الحال، شهرة عالمية. ففي السنة التالية لنشر هذه الرواية قامت مسز ستو بثلاث رحلات إلى الخارج، زارت فيها إنجلترا واسكتلندا، حيث التقى ورحَّب بها مئات من النبلاء وأفراد العائلة المالكة وعِلية القوم ومن بينهم الملكة فيكتوريا والأمير ألبرت وديكنز Dickens وجورج إليوت George Elliot وكنجزلي Kingsley ورسكين Ruskin وماكولي Macauly وجلادستون Gladstone وفي رحلتها المظفرة هذه، استقبلها، بحماسٍ بالغ، عامة الشعب الذين رأوا فيها بطلة المساكين وفي إدنبره Edinburgh قدَّموا لها هدية بنسًا قوميًّا بلغت حصيلته ألف جنيه ذهبي لمساعدتها في محاربة الرق ... لم يسبق قط أن مؤلفًا أمريكيًّا خلق مثل هذه الإثارة البالغة، ولا استُقبل بمثل ذلك الاستقبال الحار في الجزر البريطانية.

وقد حاولت مرارًا البرهنة على أن صورة الرق المرسومة في كتابها ليس فيها أية مبالغة، ولا هي «وليدة الأكاذيب» كما اتهمها البعض بأنها كدست تلك الأكاذيب لتجعل منها مفتاحًا لكابينة العم توم، التي قالت إنها «ستضم جميع الحقائق الأصلية والوقائع والوثائق التي ستبني عليها القصة مع بعض القصص الممتعة والمؤثرة الملائمة لقصة

العم توم.» وينقسم هذا المؤلَّف إلى أربعة أقسام تبدأ بوصف الشخصيات لتثبت أنهم أشخاص حقيقيون من الحياة الواقعية. ويشمل القسم الثاني قوانين العبيد مبينًا أن اللوائح القائمة لا تحمي العبيد، ثم يأتي سرد حياة العبيد كأفراد، وإخفاق الرأي العام في حماية العبيد ومناقشة الأثر غير الأخلاقي للرق على الأعمال الحرة في الجنوب. وأخيرًا، وُجِّه اتهام للكنائس لموقفها المنقسم وغير الفعال حيال الرق.

كانت نشرة «المفتاح» ضعيفة، وعيبها الخطير أنها جمعت مادتها بعد ظهور «كابينة العم توم»، وكان الكثير من تلك المادة مبنيًّا على الشائعات. وعلى ذلك لم تحرز نجاحًا مع الشعب، ولم تضف إلا القليل من القوة لاتهام رواية «كابينة العم توم». وكمثال للعدل الإلهي، قام الناشر الإنجليزي الذي سرق «كابينة العم توم» وطبعها في إنجلترا، بطبع خمسين ألف نسخة من نشرة «المفتاح» متوقعًا ضربة حظ أخرى، ولكن هذه الأخيرة كانت سبب إفلاسه.

كتبت مسز ستو بقلمها الكثير التصانيف، مؤلفًا آخر عن الرق، هو رواية «دريد Dred» وهي «قصة المستنقع العظيم المشئوم»، التي نُشرت في سنة ١٨٥٦م، وبيع منها مائة ألف نسخة في أربعة أسابيع، رغم أنها لم تصل إلى شهرة «كابينة العم توم» كانت فكرة المؤلفة في «دريد» هي الأثر السيئ لنظام الرق على الرجل الأبيض — كل من المالك، ومستأجر المراعي الأبيض الفقير. كان الخلطُ بين الجنسين ونتائجه السيئة على كل الأشخاص مسرحيًّا … ورواية «دريد» هذه غزيرة بتصوير البيض الفقراء، والوعَّاظ المطالبين بإنعاش الفقراء، وحياة المزارع ولكن ليست بها شخصية أساسية واحدة، مثل العم توم، لتحظى بعطف القارئ.

أنتجت مسز ستو، منذ ذلك الوقت حتى آخر عمرها وهو خمس وثمانون سنة، سيلًا لا ينتهي من الروايات والقصص وتواريخ الحياة والمقالات والمواضيع الدينية. ولمدة ثلاثين عامًا تقريبًا، كان متوسط إنتاجها كتابًا واحدًا في كل عام، ولكنها تركت موضوع الرق في معظم إنتاجها. وفي أثناء الحرب الأهلية، كان أهم ما أسهمت به خطابًا إلى نساء إنجلترا تذكِّرهن باستجابتهن الشاملة والمحبذة لكتاب «كابينة العم توم»، والحادثة قبل ذلك بثمانية أو تسعة أعوام، وتلومهن على تعاطفهن مع الجنوب، وأعمالهن بعد نشوب الحرب. ونتيجة لذلك الخطاب، عُقدت اجتماعات كبيرة في الجزر البريطانية بقصد تغيير الرأي الإنجليزي الحاكم نحو قضية الاتحاد. وعلى هذا، فربما لعب خطاب مسز ستو دورًا هامًّا في منع التدخل الإنجليزي، في وقتٍ كان يمكنه فيه تعريض الجانب الشمالي للخطر.

عند تقرير مركز هاريت بيتشر ستو في التاريخ، قال كيرك مونرو Kirk Monroe: «إنها لا تقف فقط في مقدمة الصف الأمامي بين نساء العالم، بل وفي تشكيل مصير الشعب الأمريكي، في فترةٍ حرجة أشد الحرج في تاريخهم، كان نفوذها أقوى من نفوذ أي فردٍ آخر ... وبالطبع لا يمكن لأي فردٍ إنجاز منع الرق وحده، ولا يمكن أن يقوم به أي شخص واحد.» وأشار مونرو وهو يستعرض العناصر التي حققت النصر النهائي. قائلًا: «ولكن أعظم هذه العناصر كلها، وأقواها تأثيرًا هو «كابينة العم توم».»

ربما كان التقدير النهائي لكتاب «كابينة العم توم»، والذي أمكن ذكره بعد قرن، هو ما قررته مؤلفة أخرى اسمها كونستانس رورك Constance Rourke؛ إذ قالت: ولو أنه تهشَّم من فرط الهياج الذي صاحب حياته المستقبلة، ورغم عيوبه في بعض الأمور الأساسية، فما زال يحتفظ بصفات ترفعه فوق مركزه المعاصر كرسالة، صفات تفند التهمة السهلة العادية، وهي المبالغة. والواضح أن هذا الكتاب يفتقر إلى الواقعية الحقيقية، ولكن ربما كان من الواجب ألَّا نحكم عليه بالواقعية إطلاقًا. ومن الجلي أنه ينقصه الصلابة ووضوح الرؤية الخاصَّان بالكتابة العظيمة. ليست عاطفيته حرةً قط، ولكنها صلبة وجامدة من الناحية العقلية ومريضة وعاطفية بحسب الاختيار، إنها تجري في سباقٍ لا نهاية له، ويبدو أن الهستيريا قد خلقت هذا السباق. بيد أن القوة السليمة لتلك العاطفة أنتجَت اتساعات في امتدادها، واتزانات غير محسوبة، ويذكر امتصاصها المتدفق بالنتيجة الضخمة للعمل، ومجموعاتها المفككة للأقدار المتشابكة، يذكران على الأقل بمعنى يميز شعر الملاحم. كما أنها تتصف، قبل كل شيء بالحركة المؤثرة نحو أهدافٍ مجهولةٍ على مسافاتٍ طويلةٍ تغدو الفكرة التي لا تقاوم للسرد الأعظم. المذكور هنا بالعواطف العميقة؛ لأن المغامرة ليست حرةً أبدًا، وإنما تقطع دائمًا عند نهايتها، أو تُساق إلى الخطر.

وقد أكَّد فان ويك بروكس Van Wyck Brooks أن «كابينة العم توم» قد نقل من الجو الذي كتب فيه، ورغم ذلك، بقي صورة شعبية عظمى لعصر ولأمة.

الفصل السابع

عراف طبقة العصاميين: كارل ماركس[1]

رأس المال Das Kapital

قال فريدريك إنجلز Friedrich Engels في رثائه لكارل ماركس: «كان ماركس، قبل كل شيء، ثوريًّا هدفه العظيم في الحياة أن يتعاون بهذه الصورة أو تلك، لقهر المجتمع الرأسمالي ومؤسسات الحكومة التي خلقها.» بهذه الألفاظ لخص معاون ماركس وتلميذه وأخلص أصدقائه، في إيجاز، القوة الدافعة في حياة ذلك المتمرد الاجتماعي الشهير.

وُلد ماركس في عصر كثير الشغب. كان الجو مشحونًا بالتمرد والقلق. كانت ذكرى الثورة الفرنسية ما زالت عالقة بالأذهان، وثورة أخرى قريبة. وتميزت السنوات العشر التالية بمرارة عامة واسعة النطاق، وبالتذمر والنقد ضد الحكومة القائمة. وفي سنة ١٨٤٨م نمَت هذه الحالة إلى قوةٍ متفجرة، ونشبت الثورات خلال أوروبا. وحتى في إنجلترا، قامَت حركة العمال مطالبين بإشراكهم في السياسة، وهدَّدت الحكومة القائمة وقتذاك. سرى الضغط في كل مكان لتخفيف حدة سوء المعاملة الناتج عن مبدأ العمال الجديد، وإلغاء بقايا الإقطاع. كان الوقت مناسبًا جدًّا لميول كارل ماركس الهدَّامة والمناهضة للكنيسة.

---

[1] Karl Marx.

درس ماركس الصغير القانون والفلسفة في بون Bonn وبرلين بهدف الحصول على منصب أستاذ، ولكن الباب أُقفِل في وجهه بسبب آرائه الملتوية والمتزايدة باطِّراد، فاتجه نحو الصحافة. تأسَّست صحيفة دورية جديدة اسمها Rheinische Zeitung، في سنة ١٨٤٢م، فصار ماركس أول مكاتب لها، ثم ما لبث أن صار رئيس تحريرها. وبسبب الهجوم المتكرر لتلك الصحيفة على حكومة بروسيا Prussia، واتجاهها المتطرف عمومًا، أُوقِفَت عن الصدور وعمرها لا يزيد على السنة إلا قليلًا.

انتقل ماركس إلى باريس ليدرس الاشتراكية، ويكتب في جريدةٍ أخرى قصيرة الأجل اسمها Franco-German Year Books فتعرَّف هناك على أهم ممثلي الفكر الاشتراكي والشيوعي. وأهم حادث في حياته ومستقبله هو بداية صداقته التي استمرَّت طول حياته مع فريدريك إنجلز وهو زميل ألماني غنيٌّ نسبيًّا، وابن صاحب مصنع للقطن، ومن أنصار المثل الاشتراكية، مثل ماركس نفسه. وضع إنجلز أساس كتاب ماركس «Das Kapital أي رأس المال» في سنة ١٨٤٥م مع نشر كتابه «حالة الطبقات العاملة في إنجلترا».

وإذ استمر ماركس في إثارة الآراء ضد الحكومة البروسية، طردَتْه السلطات الفرنسية على أنه أجنبي غير مرغوبٍ فيه. فلجأ إلى بروكسل Brussels وبقيَ فيها ثلاث سنوات ثم عاد إلى ألمانيا لمدة قصيرة، ونُفيَ ثانية فعاد إلى باريس إبان ثورة ١٨٤٨م، وفي تلك السنة، بالاشتراك مع إنجلز، كتب ونشر كُتَيبه «الشيوعي البين» الشهير، وهو أحد الأعمال الأدبية المتطرفة ذات الأثر القوي والبالغة العنف، التي أخرجتها المطابع. ويختتم هذا الكتيب كلامه بصيحة تحريض على الثورة:

«يعتبر الشيوعيون أنه من الأمور السطحية أن يُخفوا آراءهم ونواياهم. إنهم يقررون في صراحةٍ أن أهدافهم لا يمكن تحقيقها إلا باستخدام العنف في قلب النظام الاجتماعي المعاصر كله. فلترتجف الطبقات الحاكمة أمام الثورة الشيوعية. لن يخسر العمال غير قيودهم. وأمامهم العالم كله ليربحوه. إذن، فاتحدوا يا عمال العالم!»

أينما ذهب ماركس، كان بالغ النشاط ومثيرًا عدائيًّا، ينظم حركات العمال، ويرأس تحرير الصحف الشيوعية، ويثير التمرد.

جعل تدهور الثورات الأوروبية ١٨٤٨–١٨٤٩م الدنيا ضيقة جدًّا لا تتسع لماركس. هاجر إلى إنجلترا في صيف عام ١٨٤٩م وهو في الحادية والثلاثين من عمره، وقضى آخر حياته في لندن. وتزوج قبل ذلك جيني فون وستفالين Jenny Von Westfalen ابنة موظف بروسي، بقيت معه حوالي أربعين سنة شريكته الوفية تقاسمه فترات الفقر

المدقع والحرمان وسوء الحظ لم يعش من أولادهما الستة غير ثلاثة. ومن هؤلاء الثلاثة انتحر اثنان. ومما لا شك فيه، أن ثلاث سنوات من الشدائد المتناهية قد لونت آراء ماركس، وتعد مسئولة عن الحقد والمرارة في كتابته. ولم ينقذ أسرة ماركس من الموت الحقيقي جوعًا سوى المساعدات المالية، في كثير من المرات، من فريدريك إنجلز. وكان دخل ماركس الوحيد مما يكسبه، جنيهًا واحدًا في الأسبوع يتسلمه من صحيفة نيويورك تريبيون New York Tribune، وبعض الأجر المتقطع من كتابة بعض الموضوعات القصيرة.

ورغم البؤس والدائنين الملحِّين، والمرض والحاجة، التي أحاطَت به باستمرارٍ في منطقة سوهو Soho القذرة، التي أقام بها في لندن ... كان كعادته دائمًا، لا يكلُّ في تقدمه في القضايا الاشتراكية سنة بعد سنة. كان يذهب إلى المتحف البريطاني لفترات تصل إلى ست عشرة ساعة في اليوم، يجمع الكميات الهائلة من المواد لمؤلفه الذي سيكون عنوانه Das Kapital أي رأس المال. ومع عدم حساب فترات التعطل عن التأليف بسبب الأعمال الأخرى والمرض استغرق إعداد هذا الكتاب أكثر من ثماني عشرة سنة. أما إنجلز الذي كان يعول أسرة ماركس في تلك الأثناء، فقد يئس من إكمال الكتاب، وقال: «اليوم الذي تذهب فيه النسخة الخطية إلى المطبعة، سأسكر طينة.» كما أشار إليه هو وماركس بقولهما: «ذلك الكتاب اللعين.» واعترف ماركس بأنه «كابوس حقيقي.»

كان أعظم حادث في حياة ماركس إبَّان هذه السنين هو تأسيس أول جمعية دولية للعمال الرجال في سنة ١٨٦٤م، والتي تُعرف الآن باسم الدولية الأولى. إنها مجهود لضم الطبقات العاملة في العالم كله معًا في جمعية دولية. هذا، ورغم أن ماركس كان متقاعدًا أمام الجمهور، فقد كان القوة المحركة وراء العرش، وكان يكتب معظم مستندات الجمعية وعناوينها ولوائحها وبرنامجها. غير أن العراك الداخلي والمنافسة على الرئاسة والنزاع الذي وقعت فيه الجمعية بعد فشل تمرُّد باريس في سنة ١٨٧١م، كل هذه أدت إلى حلِّ الجمعية. وبعد ذلك أعقبتها الجمعية الدولية الثانية، وتمثِّل الجماعات الاشتراكية الغربية. ثم الجمعية الدولية الثالثة أو الكومنترن Comintern للعالم الشيوعي.

وأخيرًا انتهت مدة تأليف كتاب «رأس المال». ففي أواخر سنة ١٨٦٦م، أُرسِلَت النسخة الخطية للجزء الأول إلى هامبورج Hamburg. وفي أوائل السنة التالية خرج الكتاب المطبوع من المطبعة باللغة الألمانية. ولم تكن هناك ترجمةٌ إنجليزيةٌ له إلا بعد حوالي عشرين سنة. وأول ترجمة إلى لغة أخرى على ضوء أحداث المستقبل — كانت باللغة الروسية في سنة ١٨٧٢م.

كانت إنجلترا في عصر ماركس المعرِض الأول لأعمال النظام الرأسمالي. وعلى ذلك أُخِذت الأمثلة الموضحة لنظرياته الاقتصادية، كلها تقريبًا، من تلك المملكة. كانت الأمثلة المروِّعة كثيرة؛ لأن تنظيم الرأسمالية في منتصف العصر الفيكتوري كان في أسوأ حالٍ بها فكانت الأحوال الاجتماعية بين عمال المصانع سيئةً بما يعجز عنه الوصف. وإذ بنى ماركس أبحاثَه على التقارير الرسمية لمفتشي الحكومة. فقدم الحقائق دقيقةً في كتاب «رأس المال». قامَت السيدات بجر القوارب في الترع بالحبال المربوطة في أكتافهن، طوال الطريق. ورُبطت السيدات إلى العربات كما تربط دواب الحمل، لنقل الفحم إلى خارج المناجم البريطانية. أما الأطفال فكانوا يعملون في مصانع النسيج عندما يبلغون التاسعة أو العاشرة من العمر، ولمدة خمس عشرة ساعة في اليوم. ولما جاءت أدوار العمل ليلًا، كانت الأسرة التي ينام فيها الأطفال دافئة دائمًا لا تبرد إطلاقًا؛ إذ كانت تستعمل بالدور. وقد أنشب السل وغيره من أمراض الأماكن المزدحمة أظفاره فيهم وقتلهم في نسب عالية.

لم تكن الاحتجاجات على هذه الأحوال الفظيعة قاصرةً على ماركس بحال ما، فإن الكتَّاب الرقيقي القلوب المختصين بالأمور الإنسانية أمثال تشارلز ديكنز وجون رسكين وثوماس كارليل، كتبوا كثيرًا في حماس شديد، يطلبون الإصلاح. وأثير البرلمان أخيرًا إلى إصدار تشريع إصلاحي.

زها ماركس كثيرًا بشرحه العلمي للمسائل الاقتصادية والاجتماعية. وكما قال إنجلز: «كما أن داروين اكتشف قانون التطور في الطبيعة العضوية، كذلك اكتشف ماركس قانون التطور في التاريخ الإنساني.» ذكر ماركس أن الظواهر الاقتصادية «يمكن ملاحظتها وتسجيلها بالدقة الملائمة للعلوم الطبيعية.» ويشير كثيرًا إلى مؤلفات علماء الأحياء والكيمياء والفيزياء (الطبيعة)، ومن الجلي أنه كان يأمل في أن يصير «داروين علم الاجتماع» أو ربما «نيوتن الاقتصاد»، وبالتحليل العلمي للمجتمع، اعتقد ماركس أنه اكتشف كيف يمكن تحويل العالم الرأسمالي إلى عالم اجتماعي.

أسهمت طريقة ماركس «العلمية» كثيرًا في تفهم الناس له على نطاقٍ واسع، لأن فكرة التطور في جميع المجالات قد جذبت خيال القرن التاسع عشر، ويربط نظريته عن التنازع التاريخي بنظرية داروين عن النشوء أو التطور، فأضفى الوقار على آرائه، وفي الوقت نفسه جعلها، حسب اعتقاده، غير قابلةٍ للدحض.

في رأي ماركس وأتباعه، أن إسهامه البالغ في دراسة الاقتصاد والتاريخ وغيرهما من العلوم الاجتماعية الأخرى، كان تقدمًا لمبدأ أطلق عليه «المادية الجدلية» وهو مصطلح

غامض عسير الفهم، ولو أنه مشروح شرحًا وافيًا في كتاباتٍ سابقة، فإن كتاب «رأس المال» يستخدم هذه النظرية بالتفصيل.

أخذ ماركس الطريقة الجدلية عن الفيلسوف الألماني هيجل Hegel، وتقول في جوهرها إن كل شيء في الدنيا في حالة تغير مستمر. ويتحقق التقدم بتفاعل القوى المتعارضة، كل مع الأخرى. فمثلًا: بتعارض النظام الاستعماري الإنجليزي مع الثورة الأمريكية نتجت عن ذلك الولايات المتحدة. وكما عبَّر عن ذلك لاسكي Laski بقوله: «قانون الحياة هو تجارب المتناقضات، وينتج عنها النمو.»

قاد هذا التمهيد ماركس إلى تكوين نظريته عن «المادية التاريخية» أو «التفسير الاقتصادي للتاريخ» قال ماركس وإنجلز في جدالهما: «ما تاريخ كل المجتمع الحاضر سوى تاريخ نضال الطبقات؛ الحر والعبد، والنبلاء والعوام، السيد والمسود، رئيس المؤسسة وعامل المياومة، وبالاختصار، وقف الظالم والمظلوم، كلٌّ منهما في مواجهة الآخر، ونشبَت بينهما حرب مستمرة.»

قال إنجلز وهو يقرظ ماركس:

«لقد اكتشف الحقيقة البسيطة المختبئة تحت «الأعشاب» الفكرية، وهي أن الكائنات البشرية يجب أن تحصل على الطعام والشراب والملبس والمسكن، أولًا وقبل كل شيء، وقبل أن تجد المتعة في السياسة والعلوم والفن والدين، وما إلى ذلك. وهذا يتضمن أن إنتاج اللوازم الضرورية للحياة، وطور التقدم الاقتصادي الحالي لأمة أو لحقبة من الزمان، تكون الأساس الذي بنت عليه الحكومة نظراتها القانونية والأفكار الفنية والدينية لأولئك المختصين.»

وقُصارى القول أن التنازع من أجل الطعام والمأوى نزاع بالغ القوة ويقرر كل شيء آخر من الأمور البشرية.

وتاريخ البشرية، تبعًا لماركس، هو أولًا قصة استغلال طبقة لأخرى. وفي عصور ما قبل التاريخ، كان هناك مجتمعٌ قبائلي أو مجتمع لا طبقي. أما في العصور التاريخية فيقول ماركس: «تكوَّنت الطبقات وصارت جموع السكان البشرية أولًا عبيدًا ثم خدمًا (الحالة الإقطاعية) ثم عبيدًا بالأجر لا يمتلكون شيئًا (العصر الرأسمالي).» وبتطبيق نظرية «المادية الجدلية» اقتنع ماركس أن الخطوة الحتمية بعد ذلك هي تمرد العمال و«دكتاتورية الطبقة العصامية» يتبعه الملكية الشيوعية والعودة إلى نظام المجتمع اللاطبقي.

طور ماركس في كتابه «رأس المال» قضيته ضد النظام الرأسمالي؛ ليبرهن، في تقديره، على أن هلاكه أخيرًا واختفاءه أمران لا مفرَّ منهما. وهنا كون ما يعتبره الشيوعيون عمومًا

إسهامه الثاني البالغ الأهمية في العلوم الاجتماعية، وهي نظرية قيمة العمل. كذلك لم تكن هذه أصلًا نظرية من تفكير ماركس. فإذ سار على نهج علماء الاقتصاد الأكبر منه سنًّا، وهما آدم سميث ودافيد ريكاردو، أكد أن العمل مصدر كل القيم. وذكر ماركس فقرة من بنيامين فرانكلين، الذي لاحظ منذ قرن مضى أن «التجارة ليست إلا مبادلة عملٍ بعمل. وتُقاس قيمة كل شيء بالعمل.» وأخذ عن سميث تعريف رأس المال بأنه «كمية معينة من العمل مكتلة ومحفوظة في صورة احتياطي.» كما أن ريكاردو اقترح أن ثمن أية سلعة وقيمتها يجب أن يُقدر بكمية العمل الداخلة فيها.

اتخذ ماركس هذه الأقوال كمقاييس بنى عليها نظريتَه عن «قيمة الفائض». فذكرها أولًا في مقاله «نقد الاقتصاد السياسي» (سنة ١٨٥٩م)، ثم نقحها وذكر الصورة المنقحة في كتابه «رأس المال»، ولما كان العامل لا يملك شيئًا، فليس لديه غير سلعة واحدة ليبيعها — وهي عمله. ولكي يتحاشى الموت جوعًا، يجب عليه أن يبيعها. وتبعًا للنظام الاقتصادي السائد، يشتري صاحب العمل هذه السلعة بأقل ثمنٍ ممكن. إذن، فالقيمة الفعلية للعمل تزيد كثيرًا على الأجر المدفوع؛ فالعامل الذي يدفع له صاحب العمل أربعة شلنات في اليوم، يكسب هذا المبلغ فعلًا في ست ساعات، ولكن يطلب منه أن يعمل عشر ساعات، إذن فصاحب رأس المال يسرق من العامل تلك الساعات الأربع الزائدة. وإذ فسَّر الأمر على هذا النحو، فإن الأرباح وفوائد المبالغ والأوراق المالية، وإيجار المساكن ونحوها، مشتقةٌ كلها من قيمة كد العمل الزائد المسروق من العمال. إذن، يمكن أن نستنتج منطقيًّا أن نظام صاحب رأس المال ليس سوى طريقةٍ شريرةٍ وُضعت لاستغلال طبقة العمال وسرقتهم.

ولو أن نظريات ماركس عن القيمة وقيمة الفائض كانت قيمة لأغراض الدعاية والتحريض على الثورة، فإن علماء الاقتصاد عمومًا يعتبرونها الآن غير صحيحةٍ وعديمة الأهمية. ومن العوامل التي جعلتهم ينبذونها ازديادُ استخدام الآلات التي تنتج أنواعًا كثيرة جدًّا من كميات العمل المطلوب لمختلف السلع. وقال فريهوف Freehof: «يكتشف الكيميائي اكتشافًا واحدًا عن خصوبة التربة، فيضاعف مائة مرة إنتاج عشرة ملايين من العمال الزراعيين. إذن فالكيميائي هو الذي خلق قوة الإنتاج.» وقال ناقد آخر في دحض هذه النظرية: «يغوص الناس من أجل اللآلئ لأنها عظيمة القيمة. وليست اللآلئ ذات قيمةٍ عالية لأن الناس يغوصون من أجلها.» لم يعلن ماركس أن العلم أو التكنولوجيا أو الفن أو التنظيم يُضيف شيئًا إلى القيم والأسعار.

والواقع أن علماء الاقتصاد لم يتفقوا أبدًا على طريقةٍ لقياس القيمة رغم قرنَيْن من التفكير والكتابة عن هذا الموضوع. ويبدو أن الطلب والمنفعة هما المعايير الأكثر قبولًا على

نطاق واسع. وكما علق بارزون Barzun: «حطَّم علم الاقتصاد الحديث نظرية ماركس، ولكنه لم يقدم نظرية علمية لتحل محلها.»

أمَّا نظرية ماركس عن قيمة الفائض فقادَته إلى الخطوة التالية في فرضه. فلكي يقابل كل رأسمالي المنافسة الوحشية، يحاول استخراج مزيد من القيمة الفائضة بطرق شتى، مثل: إطالة ساعات العمل، أو تخفيض الأجور أو استخدام طريقة المد Stretch out ويستخدم مزيدًا ومزيدًا من الآلات لتقلل العمل وتسرع الإنتاج. وباستخدام الآلات التي تحتاج في إدارتها إلى قوةٍ بدنية أقل، ويمكن استبدال الرجال بعمل النساء والأطفال الأرخص أجرًا. ويصف ماركس نتيجة ذلك، هكذا:

إنهم يشوهون العمل إلى جزء من رجل، وينزلونه إلى مستوى قطعة زائدة بالآلة، ويحطمون كل بقية من الجمال في عمله ويحولونه إلى كد مقيت. ويبعدون عنه القوى العقلية لعملية العمل بنفس نسبة وجود العلم في ذلك العمل كقوةٍ مستقلة. ويشوهون الظروف التي يعمل فيها ويعرضونه أثناء عملية العمل إلى استبدادٍ مقيت جدًّا لوضاعته، ويحولون عمره إلى وقت عمل، ويجرون زوجته وطفله تحت عجلات تمثال رأس المال.

وهكذا يلحُّ ماركس بأن استخدام الآلات لإسراع الإنتاج وزيادته، لا يفشل فقط في تسهيل حظ العامل، ولكن له آثارًا ضارة، مثل خلق البطالة، وزيادة إنتاج السلع على القدر المطلوب، وقتل لذة العامل في عمله، ويستطرد ماركس قائلًا:

«الآلات أمضى سلاح لقمع الإضرابات التي هي التمرد الدوري للطبقة العاملة ضد السلطة المطلقة لرأس المال … كانت الآلة البخارية، منذ البداية، خصمًا مكن الرأسمالي من أن يطأ تحت قدميه المطالب المتزايدة للعمال الذين هددوا نظام المصانع المولود حديثًا، بأزمة. من الممكن كتابة تاريخ بأكمله عن المخترعات التي ظهرت منذ عام ١٨٣٠م لغرضٍ وحيدٍ هو تزويد رأس المال بسلاح ضد تمردات طبقة العمال.»

وبتحريف نظرية مالثوس تحريفًا معينًا، يقول ماركس إن زيادة عدد السكان يتبع دائمًا طريق الرأسمالية. يحتاج هذا النظام إلى «جيش صناعي احتياطي» لعصور امتداد الإنتاج الضخم عند خلق صناعات جديدة أو إحياء صناعات قديمة. وفي طبيعة الأشياء، يجب على قوة العمل الفائض أن تتحمل مددًا طويلة من البطالة بعد ذلك تظهر أعظم لعنة للرأسمالية؛ الكساد والذعر. فبما أن العمال يتقاضون أجورًا لا تكاد تفي بما يسد الرمق، فلا يستطيعون شراء جميع ما تنتجه المصانع، فتكتظ الأسواق بالبضائع، وتقل قوة العمل، ويتبع ذلك كسادٌ عنيف.

ولكي يبحث الرأسمالي عن مخارج للبضائع الكثيرة المكدَّسة في مخازنه، يتجه إلى المجالات الأجنبية فيحاول إيجاد أسواقٍ في الدول المتخلفة في الخارج ليشحن إليها السلع التي لا يستطيع عماله شراءها. وهذه المحاولة والبحث عن المواد الخام التي تمكن مصانعه من الاستمرار في العمل بغير انقطاع؛ تؤدي إلى الالتحامات الدولية والحروب الاستعمارية.

اعتقد ماركس أن النتيجة النهائية لنضال الرأسمالي وشغبه هي زيادة التركيز والاحتكار؛ لأن «أحد الرأسماليين يقتل الكثيرين دائمًا.» تختفي الطبقة المتوسطة عندما يلتهم كبار الرأسماليين صغارهم. وأخيرًا تبقى حفنة من كبار الرأسماليين تواجه جموع العصاميين. وعندما يأتي ذلك الوقت، يجد العصاميون فرصتهم، وتصف إحدى فقرات كتاب «رأس المال» الأكثر حيوية والجديرة بالتذكر، الخطوات المؤدية إلى حل المشكلة:

«بينما هناك انكماش مستمرٌّ في عدد النبلاء الرأسماليين، فإنه يقابله ازدياد في عدد الفقراء وفي الظلم والاستعباد والانحلال والاستغلال. غير أنه، في الوقت ذاته، تزداد باطرادٍ حدة غضب طبقة العمال، تلك الطبقة التي يزداد عددها، وهي مطيعةٌ ومتحدةٌ ومنظمة بنفس ميكانيكية طريقة الرأسمالي للإنتاج. وإن احتكار الرأسماليين لَيغدو قيدًا يغلُّ طريقة الإنتاج التي ازدهرت به. هذا وتصل مركزية وسائل الإنتاج واشتراكية العمل إلى نقطة تبرهنان عندها على عدم ملاءمتهما لبقاء الرأسمالية. ينفجر هذا، ويدقُّ ناقوس موت ممتلكات الرأسمالي الخاصة؛ إذ إن المالكين السابقين صاروا مملوكين سابقين.»

ينتهي صراع الطبقات بانتصار العصاميين.

لما استولى العصاميون على الحكومة، ثبتوا دكتاتوريتهم. ومع ذلك، فقد تنبَّأ ماركس بأن هذه المرحلة «ليست إلا فترة انتقال إلى إلغاء جميع الطبقات، وخلق مجتمع من الأحرار المتساوين.» لم يحدد الوقت اللازم لاستمرار الدكتاتورية — وهذه نقطة اعتبار ممتعة في نظر الثماني والثلاثين سنة في روسيا السوفيتية التي ظلت في القبضة الحديدية لنظام سلطةٍ لا تبدي أية علامة على إرخاء تلك القبضة. والحقيقة أن ماركس غامضٌ تمامًا في وصف طبيعة مجتمع طبقاته. وبعد أن تقوم الدولة بدورها في التعليم والتنظيم، ستذبل الحكومة، ولن يكون هناك أية قوة أو اتصال وسيسود السلام والرخاء لكل فرد. وسيكون الهدف الرئيسي للمجتمع هو: «التطور الكامل الحر لكل فرد.» وسيكون المبدأ المرشد هو «لكل شخصٍ حسب مقدرته، ولكل فرد حسب حاجاته.»

علق كثير من النقاد على تناقض هذا الحلم الخيالي الجميل، ذلك التناقض البرَّاق وغير المطابق للحقبة السابقة، حقبة حرب الطبقات الدموية والوحشية. وعلى أية حال، فكما كتب هاليت Hallett.

إن «المجتمع اللاطبقي» لماركس مجتمعٌ غامض غموض سماء الفكتوريين الأرثوذكس، ويوحي بقليلٍ من الثقة وقليل من الحماس، فما إن تطرد الثورة العالمية إلى الخلف، حتى يكون من الصعب أن تجد شيئًا في عظام الماركسية الجافة يُثير حماسَ الناس أو يسوقهم إلى قوة احتمال جديدة، أو محاولات جديدة.

ورغم هذا، فالماركسية لها قوة الدين لملايين الشيوعيين المناصرين للشيوعية. أما المادية الجدلية فيمكن أن تكون عقيدة تفوق كل العقائد الأخرى. ويقول ماركس إن الديانات القديمة مثل المسيحية، تعلم إيمانًا إيجابيًّا بنصيب الإنسان المقسوم له في الحياة، كما تمجِّد الإذعان والوداعة والهوان. إذن فهي تعمل كـ «أفيون الناس» تعمي العصاميين وتقودهم إلى حتفهم، وتضع عقبات ضخمة في طريق الثورة.

إلى أي حدٍّ يصدق ماركس؟ هذا سؤال شغل الكثير من العلماء الاجتماعيين واللاهوتيين وغيرهم من الكتاب والمفكرين طوال القرن الماضي. ففي كثير من الأساسيات، أظهر الزمن أخطاء جوهرية في نظرياته وتكهناته، وما عاد أي عالم اقتصادي غير ماركسيٍّ يأخذ، بعين الجد، نظرياته عن العمل فيما يختص بالقيمة وقيمة الفائض، وهذه نقطة أساسية في الفكر الماركسي. ولم يحدث، في أية دولة، نزاع بين الطبقات أدى إلى ثورة العصاميين، كما تنبأ ماركس. وأكد أحد أتباع ماركس المشهورين، وهو سيدني هوك Sidney Hook، أن هذا المذهب أيضًا، أساسي للعقيدة الشيوعية؛ لأنه كتب يقول:

«إذا أمكن اعتبار حقائق نزاع الطبقات بنجاح، فإن جميع الهيكل النظري لماركس يتهدَّم ويسقط أرضًا.»

اتبع النظام الرأسمالي طريقًا مخالفًا تمامًا، على الأقل في الأمم الأقل استنارة، لما تنبأ به ماركس. فبدلًا من البؤس والفقر والآلام بين طبقة العمال، حدث العكس تمامًا. قامت اتحادات عمل قوية، وأنظمة حكومية، لتوقف فائض المنافسات الرأسمالية ومنافسات المشاريع. ورغم احتقار ماركس «لعلماء الاقتصاد والخيرين، ومن يعطفون على الإنسانية، ومن يعملون على تحسين أحوال طبقة العمال، ومنظمي الصدقات، وأعضاء جمعية الرفق بالحيوان، والمتعصبين للاعتدال، والمصلحين الباحثين من كل نوع يطرأ على المخيلة.» نجح أمثال هؤلاء الناس في تخفيف أسوأ شرور الرأسمالية وجعلوا النظام يسير بسهولةٍ معقولة يمكن أن تتوقعها في أية لحظة مؤسسة بالغة التعقيد من صنع الإنسان. وكما علَّق تقرير حديث في القرن العشرين كتبه فند Fund «من بين جميع الأمم الصناعية العظمى، أن الأمة التي تشبثَت بالرأسمالية الخاصة، جاءت أقرب إلى الهدف الاشتراكي

الذي يوفر الرخاء للجميع في مجتمعٍ لا طبقيٍّ، وهذا مستوى من الرفاهية المادية فوق ما تدركه الغالبية العظمى لسكان العالَم.»

علَّق ماركس آمالًا قوية على إضعاف الروابط القومية بين العصاميين بقصد أن يعد لهم إحساسًا بالتضامن الدولي بين العمال في كل مكان. وقد ثبت فشل الحصول على هذا الهدف المرغوب في حربين عالميتين، وبواسطة الحماس القومي المتمثل في منظر العالم الحالي — ليس أكثر وضوحًا مما هو في روسيا والصين وغيرهما من البلاد الشيوعية. وتبعًا لحكم ماركس، تحدث ثورة العصاميين أولًا في الأمم الأكثر تحولًا إلى صناعية، مثل إنجلترا وألمانيا والولايات المتحدة بينما روسيا أقل نضجًا للتمرد — وهذا تكهن آخر لم تتمخض عنه الأحداث التالية.

أثرت الطريقة الجدلية التي استخدمها ماركس تأثيرًا بالغ القوة على المؤرخين اللاحقين، ولو أنه كما علق وليم هنري تشمبرلين William Henry Chamberlin بقوله:

«تفشل طريقة المادية التاريخية لماركس في أن تكون السبب في الاختلافات الواضحة بين الناس الموجودين في نفس مستوى النمو الاقتصادي. أهمل ماركس في حساب بعض العوامل الحيوية مثل: الجنس والدين والجنسية. لم يحسب الأهمية العظمى للشخصية البشرية. ومن المشكوك فيه ما إذا كان يمكن تفسير حادث تاريخيٍّ واحد تفسيرًا صحيحًا بمصطلحات هذه النظرية.»

ومع ذلك، فبينما ندرس المغالطات في أفكار ماركس، نجد من الصعب التغلب على تأثيره في عصرنا. وقد كان تأثيره على العالم الرأسمالي مفيدًا في نواحٍ معينة هامة. فبتأكيد عيوب النظام الصناعي، وبخداع خطر ثورة العمال، حدثت إصلاحات أساسية. وبالاختصار أجبر تكرار الشيوعيين والاشتراكيين المستمر لعيوب الرأسمالية، على تصحيح كثيرٍ من تلك الشرور. وبذا قلَّل كثيرًا، إن لم يمنع تمامًا، إمكان تمرُّد العصاميين الذي تنبَّأ به ماركس.

أما غزو الماركسية لروسيا والصين وغيرهما من المناطق الواسعة الأخرى، جارفة في طريقها حوالي تسعمائة مليون شخص، فكان هو المشكلة الأكثر إلحاحًا في العالم الحديث. ومن قبيل التهكُّم: كان ماركس يُضمر احتقارًا بالغًا للروس عمومًا، وللثوريين خصوصًا. فإن استنتاجاته فيما يختصُّ بالحكم القيصري في عصره، لتليق بروسيا الشيوعية: «سياسة روسيا لا تتغير. قد تتغير طرقها وتكتيكها ومناوراتها، ولكن النجم القطبي لسياستها (سيادة العالم) نجم ثابت.»

الواقع الآن، أن روسيا تنفذ القليل من آراء ماركس ومثله عن الشيوعية. وكما لاحظ الرئيس ترومان Truman في عام ١٩٥٠م، ليست روسيا دولة شيوعية، ولم يكن ستالين Stalin شيوعيًّا أحمر. فمثلًا هناك دكتاتورية في الحزب الشيوعي، أو بالحري سلطة كهنوتية، أكثر منها دكتاتورية حقيقية للعصاميين.

يقول ماركس: سرعان ما «ستذبل» الحالة السياسية. ولكنها ازدادت قوةً أكثر فأكثر بمرور الزمن. فابتداءً من لنين Lenin، وجد القادة الشيوعيون أن الوعظ بمبادئ ماركس أسهل من ممارستها. فبينما هم دائبون على ذكر الفلسفة الماركسية شفويًّا، عدَّلوا العقيدة التي ورثوها عن ماركس تبعًا لمقتضيات الأحوال السياسية والوسائل الملائمة. وإذ رأى ماركس نشاط أتباعه، قال ذات مرة: «لست ماركسيًّا.» ويبدو من المحتمل أنه ربما خالجه شكٌّ في استخدام نظرياته في منتصف القرن العشرين. ومن الأمثال الاشتراكية المحبوبة: «لو عاش ماركس أثناء حكم ستالين لما عاش طويلًا.»

لم ينشر في حياة ماركس سوى الجزء الأول من «إنجيل الطبقات العاملة»، فبعد موته في سنة ١٨٨٣م أخذ إنجلز مذكرته الخطية غير الكاملة وغير المرتبة بنظام، للجزءين الثاني والثالث. فظهر الجزء الثاني في سنة ١٨٨٥م والثالث في عام ١٨٩٤م قبل موت إنجلز بعام واحد. ويضمان تنقيحات واستعمالات للنظريات الأساسية الخاصة بـ «تداول رأس المال» و«عملية الإنتاج الرأسمالي ككل». وترتكز شهرة ماركس على الجزء الأول أما الجزءان الآخران فلم يُقرآ إلا قليلًا، ورغم هذا فإن مؤلفًا آخر عن «نظرية قيمة الفائض» التي كانت مخصصة للجزء الرابع من كتاب «رأس المال» تعهَّد به كارل كاوتسكي Karl Kautsky، من مخطوطات ماركس، ونشر في ألمانيا (١٩٠٥–١٩١٠م).

حقيقة أن كتاب «رأس المال» صعب القراءة، ويصفه الناقد بارزون بأنه «رديء التأليف وسيئ الترتيب ويفتقر إلى النظام والمنطق وتناسق المواد.» ويقول ناقدٌ آخر «كروس Croce» إنه لاحظ «التأليف الغريب لهذا الكتاب والخلط في النظرية العامة، والجدل والتهكم المريرين والصور التاريخية أو الانحرافات.» ويعتبر هذا المؤلف غير متماثلٍ وسيئ الترتيب ومعدوم التناسب. بينما يقرر ناقد ثالث (ستاندين Standen) أن «خطة الأجزاء الثلاثة رائعة على نطاقٍ واسع.» نراه يقول: «طريقة تقديم كتاب رأس المال مملة في انحرافاته المطولة، وبطئه المتعب.»

ومن المشكوك فيه وجود شخص في التاريخ أوحى بآراء أكثر تناقضًا عنيفًا من كارل ماركس. فمن الناحية العلمية، ليس به عرض وسط بين الرأي الذي يجعله «يهوديًّا أوحى إليه الشيطان فخطط لسقوط الحضارة.» وبين صورته المضادة تمامًا «كقديس محبوب

أنكر ذاته وكرَّس نفسه لطبقة العالم غير الموروثة في القرن التاسع عشر.» وبدأ ناقد لاذع حديثه بقوله: «باسم التقدم الإنساني، أقرِّر أن ماركس قد سبب موتًا وبؤسًا وتدهورًا ويأسًا أكثر مما سببه أي شخصٍ آخر عاش على ظهر البسيطة.»

إذن فما هو السر في نفوذه وقوته على الملايين من سكان الأرض، وانجذابهم إليه؟ واقترح نيل Neill أن ماركس هو القائد الرمزي لمن لا يملكون شيئًا في نضالهم ضد من يملكون، ويعتقد بارزون أن «قوة ماركس هي بالضبط في أنه شارك المغبونين مشاعرهم. وإن تعصب المساواة لَيكمن في أعماق كبده، يرتبط به الطموح والغيرة من السلطة وكلاهما على استعدادٍ لتحطيم النظام الأخلاقي الحاضر باسم نظامٍ أسمى يراه هو.» ويأتي تفسيرٌ آخر من هارولد لاسكي: «العاطفة الرئيسية الكامنة في أعماق نفسه، والتي تحركه، هي شغفه بالعدالة. ربما يكون قد مقت بشدة، ولكنه كان غيورًا وكان فخورًا. ولكن المحرك الرئيسي لحياته هو أن يرفع عن كواهل الناس ذلك العبء الذي ظلمهم.» ويأتي تقدير تفهمي آخر من فريهوف؛ إذ كتب يقول: «إن هدية كارل ماركس الإنشائية العظمى إلى المجتمع الحديث، سواء أكان اشتراكيًّا أو رأسماليًّا، على حد سواء، هي صورة ضرورة وجود مجتمع ينعدم فيه الفقر والمعاناة. صار هذا المثل الأعلى تحديًا لكل نظام اجتماعي، وحتى أي نظام اجتماعي، مثل نظامنا، الذي ينبذ نظرياته الاقتصادية، لا بد أن يقبل ذلك المثل الأعلى بطريقته الخاصة. وهكذا، فإن ذلك الرجل الذي عاش هو نفسه فقيرًا، قد وهب العالم أملًا في انعدام الفقر تمامًا. هذا هو إنجاز كارل ماركس، وهذه هي الطريقة التي غيَّر بها عقلية العالم الحديث.»

الفصل الثامن

عملاق بحريٌّ ضد فيل: ألفريد ت. ماهان[1]

أثر القوة البحرية على التاريخ

عندما وصف ناقد معاصر كتاب القائد البحري ألفريد ت. ماهان، الذي عنوانه «أثر القوة البحرية على التاريخ» بأنه «كتاب مدهش، ولكنه أعظم قنبلة حارقة في العصور الحديثة.» إذ أبدى بصيرةً رائعة. صور ماهان القوات البحرية الحديثة للعالم بأكثر مما صوَّرها أي فرد آخر. وأطلق على قلمه «الأقوى من أي أسطول»، بينما كانت البوارج العاتية الضخمة أطفاله، وليس قصف مدافع عيار ١٦ بوصة غير صدى صوته، وبالتأكيد ما من مؤرخ آخر قد أحدث بكتابته مثل ذلك التأثير المباشر الواسع النطاق، مثلما فعل ماهان.

أوضح ماهان، طوال التاريخ المسجل، أن القوة البحرية هي العامل الحاسم في السيطرة العالمية؛ فالسيطرة على البحر ضرورية لكل أمة تصبو إلى القيام بدور أعظم في الشئون العالمية، وتحصل في الوقت نفسه على أكبر قدرٍ من الرخاء والأمن في وطنها؛ فالقوة البرية غير المتصلة بالبحر، مهما كانت عظيمة، فمصيرها الانهيار والزوال؛ لأن البر كما أشار ماهان «هو تقريبًا كل العقبات، بينما البحر هو تقريبًا كل السهل المفتوح.» فالأمة القادرة على السيطرة على هذا السهل بقوتها البحرية، والاحتفاظ بأسطول تجاريٍّ قوي، يمكنها استغلال ثروة العالم.

---

[1] Alfred T. Mahan.

أي نوع من الرجال كان ذلك «القنبلة الحارقة ماهان»؟ ربما كان آخر رجلٍ يختاره المرء كثوري أو غير استقراريٍّ من الطراز الأول، أو مقلق للسم. وُلد ماهان في سنة ١٨٤٠م، ابن مهندس حربي ومدني، في وست بوينت West Point وتخرَّج في جامعة أنابوليس Annapolis، وقضى مدة طويلة من حياته على وتيرةٍ واحدة كضابط بحري يتناوب العمل بين البحر والبر، باستثناء عمل محدود إبان الحرب الأهلية الأمريكية ... لم يمارس قط أي التحام مسلح. واتسعت خبرته بالعمل في البرازيل والشرق والرحلات خلال أوروبا.

مرَّت خمس عشرة سنة بعد تلك الرحلات دون أي عمل مميز، فيما عدا تأليف كتاب صغير عنوانه «خليج المياه الساحلية»، خاص بالتاريخ البحري للحرب الأهلية، الذي عهد إلى ماهان بكتابته في سنة ١٨٨٣م. جاءت بعد ذلك الفترة التي أبرزت شهرته وأحدثت تغييرًا متطرفًا في مستقبل حياته ... دعا القائد البحري ستيفن ب. لوس Stephen B. Luce ماهان ليُحاضر عن التكتيك والتاريخ البحري في الكلية الحربية المنشأة حديثًا في نيوبورت Newport.

هذا بالضبط هو نوع الفرصة التي كان ماهان ينتظرها. وإذ لم ينجح قط كضابطٍ بحريٍّ شهير، وملَّ الروتين البحري، وما زال برتبة كابتن (رُقِّي إلى قائد مؤخرة الأسطول بعد تقاعده). بدا أن المهمة الجديدة مرسلة من عند الله. مُنح إجازة مدتها سنة للقراءة والتفكير قبل الذهاب إلى نيوبورت. وبعد ذلك، في سبتمبر سنة ١٨٨٦م، بدأ سلسلة من المحاضرات في مجموعة صغيرة من الضباط، تلك المحاضرات التي قُدِّر لها أن تنشر بعد ذلك بأربع سنوات في صورة منقحة باسم «أثر القوة البحرية على التاريخ» (١٦٦٠–١٧٨٣م).

ذكر ماهان في خطاب بعث به إلى ناشره الإنجليزي أنه اختار المصطلح «القوة البحرية Sea Power» كعنوان لكتابه كي يجذب الانتباه ويحظى بالتداول ... وقال: «لقد نبذت تمامًا الصفة (بحرية maritime) لضعفها في جذب انتباه الناس أو الالتصاق بأذهانهم.» ومن الجلي أيضًا أن كلمة «قوة Power» تضرب على وتر حساس في عصر البخار والكهرباء والقوة السياسية. إذن، فقد اختير العنوان «أثر القوة البحرية» بعنايةٍ ليحدث انطباعًا خاصًّا في أذهان القرَّاء. وإن هذا الكتاب الشهير، الذي تتوقف عليه، قبل غيره، شهرة ماهان، هو في جوهره سرد وتفسير لسمو وتقدم القوة البحرية البريطانية من منتصف القرن السابع عشر إلى نهاية الحروب النابليونية.

يبدأ ماهان بتتبع تقدم وتدهور القوة البحرية العظمى في خطوط عريضة، مستعرضًا بالتفصيل تلك العناصر اللازمة لأمة تهدف إلى بلوغ القوة في البحر. ويختصر ماهان هذه الظروف إلى ستة، هي: الموقع الجغرافي، والملاءمة الطبيعية (ومنها الإنتاج الطبيعي والجو) وامتداد الحدود، وعدد السكان، ونوع الشعب، ونوع الحكومة.

أخذ ماهان يتناول «عناصر القوة البحرية»، فأوضح في كل مثالٍ كيف تغلبت بريطانيا على خصومها. وتبعًا لتفسيره، تكون القوة البحرية أوسع بكثيرٍ من «القوة الحربية البحرية» إذ لا تتضمن الأولى الأسطول الحربي فحسب؛ بل والسفن التجارية وقاعدة قوية في الوطن. فكتب ماهان يقول: «بينما يضمُّ تاريخ القوة البحرية في اكتساحه العريض كل ما من شأنه أن يجعل الأمة عظيمة في البحر أو بجانب البحر، فهو في أكثر معانيه تاريخٌ حربيٌّ.» ومع ذلك، فقد أكد دائمًا، أن القوة البحرية الحربية، والحملات والمعارك ليست إلا وسائل لتحقيق هدف. لا يمكن أن تزدهر البحرية التجارية، ولا تنجح البحرية الحربية، كل منهما بغير الأخرى. يتوقف الرخاء القومي على المجموعة المكونة من الاثنتَيْن معًا.

وبدراسة الموقع الجغرافي، وهو أمرٌ ذو أهميةٍ أولية، أكد ماهان على المزايا البالغة الكامنة لدى أمةٍ ذات موقع «لا يجبرها على الدفاع عن نفسها برًّا، ولا يغريها على توسيع رقعة أرضها عن طريق البر ... بالقياس إلى أمة أحد حدودها قاري.» ومن أمثلة ذلك إنجلترا في ناحية، وفرنسا وهولندة في الناحية الأخرى. فمنذ وقت مبكرٍ في تاريخ هولندة الحديث، أنهكت قواها لاضطرارها إلى الاحتفاظ بجيشٍ ضخم ليحارب من أجل المحافظة على استقلالها. كما أن فرنسا ضعفت بتقسيم ثروتها وقوتها البشرية بين بناء قوة حربية بحرية، وبين مشاريع التوسع. كذلك كان موقع فرنسا أكثر تعرضًا للهجوم، لوجود سواحل لها على كلٍّ من المحيط والبحر المتوسط، الأمر الذي يمنعها استخدام أسطول موحد. فأشار ماهان إلى أن موقع الولايات المتحدة على محيطين، يجعلها في نفس المركز من الضعف. وأن المركز المتوسط ذا الموانئ القريبة من طرق التجارة العظمى، وإذا القواعد القوية للعمل ضد الأعداء الأقوياء، رأس مال استراتيجي عظيم. ثم إن إنجلترا، بسيطرتها على طرق التجارة في بحر المانش وفي البحر الشمالي تمكَّنت من أن تحظى بالسيادة البحرية.

حلل ماهان عنصره الثاني، وهو الملاءمة الطبيعية، فقرر أن «ساحل الدولة هو إحدى جبهاتها، وكلما سهلت هذه الجبهة الوصول إلى المنطقة التي وراءها، وهي البحر في هذه

الحالة، سهل اتصال هذه الدولة ببقية العالم، بواسطة هذه الجبهة.» ورغم هذا، فالمرافئ العديدة العميقة ذات أهمية حيوية لها. فإذا لم تعامل الطبيعة إنجلترا وهولندة بسخاءٍ من ناحية التربة والمناخ، اضطرتا إلى الاتجاه نحو البحر، بينما حوبيَتْ فرنسا «بأرض خصبةٍ جميلة.» وكذلك بوركت الولايات المتحدة، فلم تجدا ما يغريهما شطر البحر.

والعنصر الثالث، وهو آخر العناصر الطبيعية المؤثرة في نمو الأمة كقوة بحرية، هو امتداد الحدود ... لم يقصد ماهان بهذا المصطلح «عدد الأميال المربعة التي تتألف منها مساحة هذه الدولة، ولكنه يقصد طول ساحلها، وطبيعة مرافئها.» كذلك عدد سكان أمة بالنسبة إلى طول ساحلها، ذو أهمية عظمى، ومثل لذلك من الحرب الأهلية الأمريكية:

«لو كان عدد شعب الجنوب مثل مقدرته الحربية، وكان لدى ذلك الجنوب قوة بحرية حربية تتناسب مع مواردها الأخرى، لكان امتداد ساحلها البحري العظيم ومداخله الكثيرة؛ عنصرًا عظيم القوة ... أما الجنوب، فليس فقط أنه لا يملك بحرية حربية، وليس فقط أنهم لم يكونوا قومًا ملاحين، ولكن ... لم يكن عدد سكانها متناسبًا في طول ساحلها البحري، الذي كان يجب على هؤلاء السكان أن يدافعوا عنه.»

بعد أن استعرض ماهان الشروط الطبيعية الثلاثة المؤثرة في القوة البحرية، وهي: الموقع الجغرافي والملاءمة الطبيعية وامتداد الحدود، عرج على تناول السكان وحكومتهم. وهنا أكَّد على عدد السكان في ناحية خاصة؛ لأنه «ليس مجموع السكان الكبير هو الهام، وإنما عددهم المشتغل بالملاحة البحرية، أو على الأقل، الممكن استخدامه على ظهور السفن، وفي صنع الأدوات البحرية.» وأخذت الأمثلة التاريخية من إنجلترا وفرنسا. كان عدد سكان فرنسا يزيد كثيرًا على عدد سكان إنجلترا، ولكن ميول سكان الأخيرة نحو البحرية والتجارة كانت ميزة لها على سكان فرنسا ذوي الميول الزراعية. واستنتج ماهان أن «عدد السكان الكبير ذوي الميول البحرية هو الآن، كما كان من قبل، عنصرًا عظيمًا في القوة البحرية.» ووجد أن الولايات المتحدة «متخلفة في هذا المضمار.»

أما النقطة الخامسة لماهان فهي تأثير الصفة القومية الملائمة، على تكوين القوة البحرية. فكتب يقول إن التاريخ يبين أنه «بدون استثناء تقريبًا، صلاحية القوم للأغراض التجارية، يجب أن تكون ظاهرة مميزة للأمم التي كانت في وقتٍ ما عظيمة في البحر.» وعلى الرغم من أن الإنجليز والهولنديين وُصفوا كثيرًا بأنهم «شعوب تجارية» فإنهم حقَّقوا مكاسب دائمة وأساسية من تجارتهم البحرية، أكثر مما ربح الباحثون عن الذهب من الإسبان والبرتغاليين أما الفرنسيون المسرفون غير الراغبين في المخاطرة باستثمار أموالهم

في التجارة الخارجية. وقد أبدى ماهان ملاحظته بأن «الميل إلى التجارة، ويشمل ضرورة إنتاج شيء ما للمتاجرة به، هو الصفة البالغة الأهمية في تكوين القوة البحرية.»

اعتقد ماهان أن للذكاء أو النبوغ القومي أثرًا أيضًا بالقدرة على تكوين مستعمرات صحيَّة. ففي هذا المجال يتفوَّق الإنجليز على الفرنسيين لأن «المستعمر الإنجليزي يستقر طبيعيًّا ومباشرة في وطنه الجديد، ويربط مصالحه بمصالح ذلك الوطن، ورغم أنه يذكر بالخير دائمًا وطنه الأصلي، فإنه لا يشتاق إلى العودة إليه.» أما الإسبان فلم يكونوا مستعمرين ماهرين؛ لأنهم يهتمون أولًا بالاستغلال السريع لثروة الدولة الجديدة أكثر من التنمية الكاملة لخيراتها.

وأخيرًا، يتناول ماهان نوع الحكومة وإداراتها بالنسبة لنمو القوة البحرية. وقد اعتقد ماهان أن نوع الحكومة وصفة الحكام «لهما أثرٌ عظيم على نمو القوة البحرية.» وبينما هو يُفضِّل عمليات الحكومات الديمقراطية، نراه يذكر أن «قوة الاستبداد المستخدمة في حكمة وثبات قد تخلق في وقتٍ ما تجارة بحرية ضخمة وقوة بحرية حربية، بقيادة أعظم مما تحققه العمليات الأبطأ للشعوب الحرة. والصعوبة … هي ضمان المثابرة بعد موت المستبد.» ولما كانت إنجلترا قد وصلت إلى الذروة في القوة البحرية، فوق كل أمة حديثة، فإن ماهان يعتبر أن دراسة الحكومة هناك ملائمة بنوع خاص. ويتجه تأثير الحكومة الإنجليزية على عدة دول، نحو السيطرة على البحر. وبغض النظر عن الملك الحاكم، أو عن الأحزاب السياسية، أدرك الإنجليز الأهمية الأساسية لاحتفاظ الأمة بالسيادة البحرية.

وبعد استعراض تاريخي مطول عن أعمال مختلف الحكومات فيما يختص بالحياة البحرية لشعوبها، قرَّر ماهان أن نفوذ الحكومة يعمل بطريقتَيْن؛ أولًا في أوقات السلم:

«تستطيع الحكومة بسياستها أن تحبذ النمو الطبيعي لصناعات الشعب وميوله إلى السعي وراء المغامرة والربح عن طريق البحر، أو يمكنها محاولة تنمية بعض الصناعات وبعض الميول نحو الإبحار. وإذا لم يوجد هذان طبيعيًّا، فإن الحكومة، بنوع الخطأ، توقف التقدم الذي تركه الناس لأنفسهم، أو تفرض عليه القيود.»

ثانيًا في أوقات الحرب؛ تقدر البحرية بميل الحكومة إلى خلق وتسليح أسطول، والاحتفاظ «ببحرية من حجم يتناسب مع نمو سفنها وأهمية الميل إليها.» وبالمثل، من الضروري «الاحتفاظ بمحطاتٍ بحرية ملائمة، في تلك الأجزاء النائية من العالم، ويجب أن تتبع السفن المسلحة السفن التجارية إلى تلك المحطات.» وقد وجد ماهان أن الولايات المتحدة كانَت ضعيفةً في عدم وجود قواعد أجنبية لها، إما ذات طابع استعماريٍّ، أو ذات طابع حربي.

وهكذا، بعد أن فحص ماهان العوامل الستة الأساسية المؤثرة على القوة البحرية، وفكر فيها مليًّا، صار على استعداد للانتقال إلى التحليل التفصيلي للحروب البحرية الأوروبية في المدة من سنة ١٦٦٠ إلى سنة ١٧٨٣م وتبلغ بالتقريب قرنًا وربع قرن. ثم خصَّص بقية كتابه إلى هذا الاستعراض التاريخي. وكنقطة بدايةٍ وصف ماهان الظروف العامة السائدة في أوروبا في أواخر القرن السابع عشر، مشيرًا بنوع خاص إلى إسبانيا وفرنسا وهولندة وإنجلترا — وهي الدول الرئيسية التي يمكن أن تشتبك في حروبٍ بحرية مستقلة. وفي نظر ماهان، كان تاريخ أوروبا إبان السنوات التالية الصاخبة سباقًا بين القوى الغربية للسيطرة على البحر. فبدأ بحثه بالحرب الهولندية لشارلز الثاني، وأكد على المدى الذي بلغته مصالح إنجلترا التجارية في حرب السيادة الإسبانية التي برزت منها إنجلترا كقوة في البحر المتوسط، فاستولت على جبل طارق وميناء ماهون Port Mahon. وفي حرب السنوات السبع، كان نجاح وولف Wolfe ممكنًا بواسطة الأسطول الذي فتح السانت لورانس St. Lawrence، ومنع وصول النجدات من فرنسا. ومرة أخرى ظهر المعنى الرئيسي للقوة البحرية إبَّان الثورة الأمريكية عندما فشلت إنجلترا بقوات بحريةٍ مقسمة، في مواجهة القوة المتحدة لفرنسا وإسبانيا، وهكذا استطاعت المستعمرات الأمريكية أن تنال حريتها.

كانت قضية ماهان الرئيسية طوال كتابه هي أن الحصار البحري المستمر هو الحاسم دائمًا بين القوة البحرية والقوة البرية، أكثر من الجيش البري الذي لا يُقهر.

وفي سرده تفاصيل تكتيك مختلف المعارك، علق أهم كاتبٍ لتاريخ حياته وهو الكابتن و. د. بولستون W. D. Puleston بقوله: «بذل ماهان كل جهدٍ لتوخي الدقة. وإذ أخذ أمثلته من عصر السفن الشراعية، حاول جاهدًا أن يلمَّ بتكنولوجيا الإبحار والمعنى الدقيق للمصطلحات البحرية القديمة، التي بطل استعمالها في عصره الملاحي.»

وفي ذكر ماهان لتاريخ حياته، هو نفسه، وصف الوسيلة الميكانيكية التي استخدمها، مثل نماذج السفن الورقية، لتمثيل وإعادة تصوير المعارك البحرية للسفن الشراعية.

كان هدف ماهان الرئيسي من كتابه «أثر القوة البحرية على التاريخ»، كما أخبر هو القائد لوس، الضابط الذي كان رئيسه السابق، ما يؤخذ من قوله: «هدفي أن أكتب تاريخًا حربيًّا ناقدًا عن الماضي البحري، وليس تاريخًا للأحداث البحرية.» وكان بوسعه أن يُضيف أيضًا أن من أهدافه أن يوضِّح العلاقة بين التاريخ البحري والتاريخ السياسي إذا اقتنع تمامًا بأن القوة الاقتصادية التي ذهبت مع السيطرة على البحر منحَت مالكها مركزًا ثابتًا

في شئون العالم. وهكذا، كما لاحظ برات Pratt «لأن إنجلترا كوَّنت قوةً بحرية، بينما أهمل خصومها ذلك، استطاعت إحباط خطط لويس الرابع عشر ونابليون لاكتساحها. واعتقد ماهان اعتقادًا راسخًا أنها بذلك أنقذَت الحضارة ممن أرادوا تدميرها.»

ذاعت شهرة كتاب «أثر القوة البحرية في التاريخ» عالميًّا فور نشره مباشرة — ولو أن شهرته في الخارج كانت أعظم بكثير من شهرته في الولايات المتحدة. وبعد فترة وجيزةٍ ظهرت تراجم هذا الكتاب إلى الألمانية واليابانية والفرنسية والهندية والروسية والإسبانية. وفي كل مكان، كان هذا الكتاب ذخيرةً لعصر التوسع البحري العظيم الجاري في العالم، وخصوصًا في بريطانيا العظمى وألمانيا وأمريكا.

وكما أبان عدة نقاد، يبقى هناك دائمًا سؤال عمَّا إذا كان كتاب ماهان، لو ظهر في عصر آخر وفي منطقة أخرى، فهل كان يحظى بنفس ذلك الأثر البالغ؟ لا ريب في أن عصره كان ملائمًا جدًّا وسقطت أقوال ماهان عن أهمية القوة البحرية الحربية على أرض خصبةٍ، فوافقت تمامًا الميول إلى الحرب في ذلك العصر. كانت القوى العظمى تستعرض عضلاتها لتصير دولًا بحريةً ساحقة وتقوم بغزو مستعمراتٍ وممتلكات جديدة. إذن، فمن الطبيعي أن تعتبر الأمم ماهان نبيًّا؛ فبراهينه المدعمة بالمستندات القائلة بأن السيطرة على البحر هي المطلب الأساسي لمصالح أية أمة قد أثبتت تلك البراهين صحة السياسات التي اعتنقت من قبل، أو التي هي موضع الدراسة. وكما عبر عنها أحد الكتاب البريطانيين، كانت تعاليمه «مثل البترول يصب على لهب التوسع الاستعماري الجاري في كل مكان.»

قرظ النقاد البريطانيون كتاب ماهان، فوصفوه بأنه «إنجيل عظمة إنجلترا.» وقال بولستون: «ربما كتبه بناءً على طلب من الوزارة البريطانية؛ فقد دعم بوضوح كل جدالهم.» وأكد أحد القواد البحريين أنه من أجل تحسين مركز البحرية الحربية البريطانية بعد سنة ١٩٠٠م فإننا «لا ندين بالشكر للمحافظين ولا للأحرار، وإنما لماهان ولا لأي أحدٍ سواه.» وتقديرًا لماهان عند موته في سنة ١٩١٤م، كتبت جريدة لندن بوست London Post تقول: «إن بريطانيا لَمَدِينة لذلك الأمريكي العظيم بدَين لا يمكن سداده؛ لأنه كان أول من صاغ فلسفة القوة البحرية لبريطانيا في دقةٍ وبطريقةٍ مفهومة.»

ستقدر هذه التعليقات تقديرًا أكثر عندما ندرك أنه في الوقت الذي كتب فيه ماهان كتابه «أثر القوة البحرية على التاريخ» كانَت البحرية الحربية الإنجليزية تُعاني من إهمالٍ مالي منذ مدة طويلة فاختصر موظفوها إلى حجم الهيكل فحسب، وسرعان ما تفوقت على قوتها السفن الفرنسية والإيطالية الأكثر حداثة. ووُصفت القوة البحرية الإنجليزية بأنها تشبه «معرضًا للسفن العتيقة ذات الأشكال المتنوعة الغريبة.» وكان أكثر من ثلثيها غير

مسلح. إذن فقد جاءت نصيحة ماهان لتكوين أسطول إنجليزي حديث قوي، في أوانها المناسب تمامًا، فأسرعت كثيرًا حركة إعادة تنظيم القوة البحرية الحربية وتقويتها.

أظهرت إنجلترا إعجابها وتقديرها لماهان أثناء زيارتَيْن قام بهما لبريطانيا في سنة ١٨٩٣م وسنة ١٩٠٤م، كان ضيف الشرف في حفلات العشاء الرسمية التي أقامتها الملكة فكتوريا ورئيس الوزراء، وكان أول ضيف شرف أجنبي كرَّمه نادي الجيش والبحرية. ومنحَتْه كل من جامعتَيْ أكسفورد وكامبريدج درجات فخرية في بحر أسبوع.

ولكن بما أن كتابه «أثر القوة البحرية على التاريخ» لم يُنشر كما اقترح أحد النقاد بلغة يفهمها الأمريكيون والإنجليز وحدهم، فإن أثره على الألمان واليابانيين كان يمثِّل قوة أثره على البريطانيين. فقال القيصر ولهلم الثاني Kaiser Wilhelm II: «إنني لا أقرأ الآن كتاب الكابتن ماهان، وإنما ألتهمه. إنه موجود على ظهر جميع سفني ... يتوقَّف مستقبلنا على المياه، ويجب أن يكون الرمح الثلاثي الشعاب في قبضة يدنا.» وهكذا صار كتاب ماهان موحيًا ببحرية ألمانية جديدة ... وقال أحد كتاب تاريخ حياته «تايلور Taylor»: «هناك دليل معقول على أنه في الأشهر القليلة الأخيرة من حياة ماهان، كان يُعاني من لثمة عقلية عن الحرب (الحرب العالمية الأولى) والدور الذي لعبه، ولو أنه لم يسبق أن فكَّر فيه من قبل إطلاقًا، في إثارة نمو البحرية الألمانية.»

وكذلك الأمر في اليابان؛ فقد زُوِّد كل ضابط بحريٍّ، وكل سفينة حربية بنسخة من كتاب ماهان، وكجزء من الأمتعة، وقد تلهف اليابانيون إلى تعلم الطرق الغربية، وبدءوا يستجيبون لماهان، على نطاقٍ واسع، في بناء القوة البحرية الحربية، وعيار المدافع وغير ذلك من الأمور البحرية الأخرى. ورفض ماهان دعوة اليابان بأن يكون مستشارها البحري الرسمي. ورغم هذا، اتخذوا آراءه رائدةً لهم، وشرعوا يعملون ليصيروا القوة البحرية العظمى في الشرق الأقصى.

من بين الدول العظمى التي تاق ماهان إلى أن يؤثر عليها، كانت الولايات المتحدة وحدها هي البطيئة في قبول تعاليمه، واقتنع ماهان بأنه يجب على الولايات المتحدة أن تدخل في منافسة عنيفة مع قوات أخرى في أسواق أجنبية، فتبنَّى بحرية حربية ضخمة، وتكسب قواعد بحرية في أعالي البحار، وتتسع بامتلاك مستعمرات خارج نصف الكرة الغربي، وأشار بأن جزيرة هاوائي Hawaii يجب أن تضم وتستعمل كقاعدة أمريكية. كما أشار إلى أن البحر الكاريبي Caribbcan، يجب أن تكون علاقتنا به كعلاقة أوروبا بالبحر المتوسط، وتزداد أهميته للولايات المتحدة بإتمام قناة بناما. أولى ماهان طوال كتابه

«أثر القوة البحرية على التاريخ» انتباهًا خاصًّا إلى الولايات المتحدة، ولاحَظ إمكانياتها كقوةٍ بحرية. وقال الكابتن بولستون: «ألَّف ماهان كتابه لإعادة إشعال حماس مواطنيه السابق ومتعتهم في أن يصيروا قوةً بحرية. اعتقد أن الأمريكيين مشغولون بتطويرٍ داخل القارة وبذا قذفوا بميراثٍ عظيم بعيدًا دون داع، لم يرغب ماهان في أن يحذوَ وطنه حذو فرنسا إبان حكم لويس الرابع عشر ويُصبح قوة برية قبل كل شيء.»

سببت حجج ماهان تحول اثنين في المراكز الرئيسية، هما: ثيودور روزفلت، وهنري كابوت لودج Henry Cabot Lodge تحمس روزفلت في البيت الأبيض ولودج في مجلس الشيوخ لتكوين بحريةٍ حربيةٍ أمريكيةٍ عظيمة. وجد روزفلت تعبيرًا كاملًا لفلسفته عن «العصا الغليظة» فيما كتبه ماهان. واستخدم نظريات القوة البحرية لتساعده في كسب الرأي العام الأمريكي نحو سياسة التوسع عبر البحار، وأن أثر ماهان، على البرنامج الضخم لإقامة بحريةٍ حربيةٍ في الولايات المتحدة، الذي بدأ في التسعينيات من القرن التاسع عشر، واضح وملحوظ.

جرى قلم ماهان الكثير التصانيف في طريق نجاحه العظيم الشهير، فأخرج سيلًا من الكتب ومقالات المجلات فبلغ عدد مجلدات الكتب والمقالات التي جمعت حوالي عشرين، يلحق بها عشرات من مقالات الصحف. وكانت إضافاته إلى «سلسلة القوة البحرية» بالغة الأهمية، ولا سيما «أثر القوة البحرية على الثورة والإمبراطورية الفرنسيتين» في سنة ١٧٩٣–١٨١٢م، الذي اعتبره النقاد مؤلفًا أكثر شمولًا ومدعمًا بالمستندات بعنايةٍ أكثر من «أثر القوة البحرية على التاريخ»، وتواريخ حياة فاراجوت Faraggut ويلسون، والقوة البحرية في علاقتها بحرب سنة ١٨١٢م.

اعترف ماهان صراحة بأن آراءه عن القوة البحرية ليست أصيلة، وأشار مثلًا إلى ما كتبه باكون Bacon ورالي Raleigh عن نفس الفكرة قبل ذلك بثلاثة قرون. وحتى قبل ذلك بوقتٍ أطول عرف الأقدمون أمثال ثوكيديس Thucydides، وكسيركسيس Xerxes وثيموستوكليس Themostocles، أهمية هذه الفكرة. نجح ماهان، في نطاق واسع، أكثر من أي كاتبٍ سابق في موضوعِه الخاص، الذي كان كما قال هو حرفيًّا: «تحليلًا للتاريخ في محاولةٍ لأبيِّن سر الأحداث الجارية خلال سلسلةٍ طويلةٍ من السنين، وبالضبط، أثر السيطرة على البحر، في أحداث معينة. وإذ ترك هذا المجال شاغرًا، أعطاني فرصتي.» ورغم أنه، كما قال كثير من المعلقين، كانت نظرة ماهان إلى التاريخ ضيقةً جدًّا، فتجاهل الكثير من العوامل الحيوية، وخلق نظرة جديدة إلى السياسة والاقتصاد.

وإذا سلَّمنا جدلًا بأن مذاهب ماهان كانت سليمةً منطقيًّا، لعصره وللقرون السابقة، فهل صارت بائدة بواسطة التقدم التكنولوجي للقرن العشرين؟ وبنوع خاص، هل تفوقت القوة البحرية في عالم اليوم؟ اختلف الخبراء في آرائهم؛ ففي الحرب العالمية الثانية، لعبت القوة البحرية دورًا بارزًا، ولكن كان عليها أن تتعاون تمامًا مع القوة الجوية؛ لأن السفن التي لا تحرسها طائرات في الجو عرضة جدًّا للدمار. وإن التطور الذي حدث بعد الحرب وتمخض عن «قنبلة الجحيم» قد ألقى ظلًّا على مستقبل القوات البحرية. فبوسع هذه القنبلة أن تشل تمامًا قدرة أسطول متكتلٍ. ومع ذلك فإن صنع روسيا السوفيتية لأسطولٍ عظيم من الغواصات وتأكيد أمريكا على حاملات الطائرات؛ لدليلٌ قاطع على أن القوة البحرية ما زالت تحتفظ بمكانتها حتى في عصر ذري.

وفي رأي العلماء وحكمهم، أن منزلة ماهان الدائمة كمؤرخ، لن تتعادل مع شهرته المعاصرة. فنجاحه الباهر كان من قبيل الدعاية، وفي وقت وفاته بلغت الولايات المتحدة الأهداف التي رسمها لها، وهي:

بناء بحريةٍ حربية عظيمة، وشق قناة بناما، وإقامة القواعد في البحر الكاريبي والمحيط الهادي. لقد شاهد انتصار فلسفته القائلة بأن «من يحكم الأمواج يحكم العالم.» هذا، وإن الدول العظمى لمشغولةٌ في سباقٍ جنونيٍّ من أجل القوة البحرية. وكما لاحظ ناقد لاذع:

«ما من شخصٍ واحد قد أثر مباشرة وبعمق في المذاهب البحرية والسياسة القومية لمثل هذه الأمم الكثيرة.» بينما قرر خبير بحري فرنسي أن ماهان «عدَّل تعديلًا عميقًا في فترة حياته، عدَّل تاريخ العصر الذي عاش فيه.»

الفصل التاسع

قلب القارة والجزيرة العالمية: السير هالفورد ج. ماكندر[1]

المحور الجغرافي للتاريخ

في خلال فترةٍ تزيد قليلًا على عشر سنوات، بعد أن برهن القائد البحري ماهان، بطريقةٍ مقنعة ونهائية على عدم إمكان قهر القوة البحرية عبر التاريخ. غير أن إمكان استخدام مذاهبه في المستقبل، قد نسف بدرجة خطيرةٍ، إن لم يكن قد فند صحته، وذلك بعاملين جديدين؛ الأول من المملكة المادية وهو أولى التجارب الناجحة للأخوين رايت Wright في سنة ١٩٠٣م بطائرة قوية، وأما العامل الثاني ففي مملكة الأفكار: ورقة علمية كتبها في سنة ١٩٠٤م العالم الجغرافي الإنجليزي هالفورد ماكندر، الذي اشتهر بعد ذلك باللقب «أبو السياسة الجغرافية».

لم يعرف العالم على الفور في أية حالة من هاتَيْن تقع الأهمية المثيرة لهذَيْن الحادثَيْن، ومع ذلك فإن وجه الكرة الأرضية يجب أن يتغيَّر بهما تغيرًا مستديمًا.

لم يعد من غير المحتمل تفكُّك النظريات الثورية ... في ٢٥ يناير سنة ١٩٠٤م قرأ ماكندر ورقته المشهورة «المحور الجغرافي للتاريخ»، في اجتماع الجمعية الجغرافية الملكية بلندن، وتقع تلك الورقة في ٢٤ صفحة مطبوعة، أي إنها لا تزيد على نشرة عادية، غير أن تحليلها الرائع للعلاقة المتبادلة بين الجغرافيا والسياسة في الماضي والحاضر خلال

[1] Sir Halford J. Mackinder.

العالم كله، كان أفكارًا جديدة غزت تفكير القادة السياسيين الحربيين وعلماء الاقتصاد والجغرافيا والمؤرخين في كل مكان.

في نهاية الحرب العالمية الأولى، عدَّل ماكندر نظريته بتفصيل مطوَّل جدًّا عن «المثل العليا الديمقراطية والحقيقية».

ورغم أنه لم يقم بتعديل أساسي على قضيته الأصلية، فهذا الكتاب وموضوعه السابق هما حجر الزاوية في العلم الحديث للسياسة الجغرافية، وهو إدماج الجغرافيا والعلوم السياسية معًا.

كان ماكندر في الرابعة والثلاثين عندما ألَّف محاضرته الشهيرة، كان أبوه طبيبًا ريفيًّا أرسله إلى كلية إبسوم Epsom في سنة ١٨٧٤م، ومنها إلى أكسفورد حيث كان سجَّل دراسته حافلًا بالألمعية، عُيِّن بعدها محاضرًا متجولًا لجامعة أكسفورد في علم الجغرافيا لمدة سنتَيْن، ثم عُيِّن معيدًا للجغرافيا في أكسفورد حيث جذب إليه مئات الطلاب بطرق تعليمه الحركية، وكان لإلحاحه على الجمعية الجغرافية الملكية أكبر الأثر في تمويل هذه الجمعية لأول مدرسة بريطانية في علم الجغرافيا بأكسفورد سنة ١٨٩٩م، وجعلت ماكندر مديرها. كما وجد متسعًا من الوقت في تلك السنوات ليحظى بشهرةٍ في تسلُّق الجبال، فقام بأول مغامرة صعودٍ إلى جبل كنيا Kenya بشرق أفريقيا، ومع استمراره في منصبه بأكسفورد، عمل معيدًا للجغرافيا الاقتصادية في جامعة لندن، ذلك المنصب الذي أدَّى إلى تعيينه مديرًا لمدرسة الاقتصاد بلندن في سنة ١٩٠٣م، وإذ أولع دائمًا بعلوم الاقتصاد، انتخب لعدة مراتٍ في البرلمان من سنة ١٩١٠–١٩٢٢م. ومع ذلك، كانت حياته العملية كلها، أولًا وقبل كل شيء، في الدوائر الأكاديمية، فكرَّس نفسه لتقدُّم الدراسة العلمية للجغرافيا، وخصوصًا الجغرافيا من حيث «وجهة النظر الإنسانية».

قدَّم ماكندر في كتابه «المحور الجغرافي للتاريخ»، الذي قدر له مثل رد الفعل الواسع ذاك. قدم أولًا نظريته عن الفضاء المقفل، وهي فكرة اشتهرت بعد ذلك بأربعين سنة بواسطة وندل ويلكي Wendell Willkie في مقال «عالم واحد»، اعتقد ماكندر أن «الحقبة الكولومبية» وهي حقبة أربعة قرون من الاكتشاف والتوسع الجغرافيين، قد انتهَتْ عند بداية القرن العشرين؛ فكتب يقول: «تمت حدود خريطة العالم في أربعمائة سنة، بدقة تقريبية.»

تتبع ماكندر نفس الفكرة في «المثل العليا الديمقراطية والحقيقية»، فقال:

«وصلنا أخيرًا إلى القطب الشمالي فوجدناه في وسط بحر عميق، وإلى القطب الجنوبي فوجدناه فوق هضبة عالية. وبهذَيْن الاكتشافَيْن الأخيرَيْن، ختم كتاب الرواد، لم تلقَ هذه

المغامرة جزاءها بالعثور على سهلٍ واسعٍ من الأرض الخصبة أو سلسلة جبال هامة، أو نهر من الطراز الأول. وزيادة على ذلك، ما كادت خريطة العالم ترسم قبل تمام ثبوت الملكيات السياسية لجميع أجزاء اليابسة ... سار مبعوث الإرساليات والغازي والمزارع ومستغل الناجم، وحديثًا المهندس، سار هؤلاء جميعًا يتبعون من كثب خُطى الرحالة، حتى إن الدنيا في أقصى حدودها قلَّما اكتشفت قبل أن تقرر ملكيتها الحقيقية الكاملة. فقلَّما توجد منطقة في أوروبا أو في أمريكا الشمالية أو في أمريكا الجنوبية، أو في أفريقيا أو أستراليا، لم تثبت ملكيتها إلا نتيجة لحرب بين القوى المتحضِّرة أو نصف المتحضرة.»

في تسعينيات القرن الثامن عشر، عبَّر مؤرخٌ أمريكي بارع اسمه فردريك جاكسون ترنر Frederick Jackson Turner عن فكرةٍ مشابهة، ولو أن ذلك كان بطريقةٍ محدودةٍ عن الفضاء المقفل، بأن كتب عن الجبهة الماضية وأهميتها في التاريخ الأمريكي. والآن، يقرِّر ماكندر أن تلك الجبهة قد اختفت خلال العالم.

وصف ماكندر الآثار المحتملة لتمهيد ترنر، بقوله:

من الآن فصاعدًا، سيكون علينا ثانية، في العصر بعد الكولومبي، أن نتناول النظام السياسي المقفل، وسيكون أحد المجالات العالمية. فكل انفجارٍ في القوى الاجتماعية، بدلًا من أن يذوب في دائرة الفضاء غير المعروف المحيطة به، وفي الفوضى البربرية، فإنه سيرتدُّ بحدةٍ من الجانب البعيد للكرة الأرضية، وستتحطم نتيجة لذلك، تلك العناصر الضعيفة في الكيانَيْن السياسي والاقتصادي للعالم ... نحسُّ الآن بكل صدمة وبكل كارثة أو فائض، كما يحس بها من يعيشون في الجزء المقابل لنا من الكرة الأرضية. وقد ترتد إلينا ممَّن يعيشون قبالنا ... وهكذا يرتد صدى كل فعلٍ إنساني، ويرجع صداه ثانية ... حول العالم.

وفي النظام المقفل الخاص بعصرنا، وخفة الحركة غير المحدودة المصاحبة له برًّا وجوًّا، نرى القوة البحرية السائدة، قد انقضى عصرها ومضى، تبعًا لرأي ماكندر. ولو كان هذا حقيقيًّا، إذن فقد جاء عصر قوة أرضية. فأين كان المركز الطبيعي للحقبة الجديدة؟ كان بالطبع في كتلة الأرض العظمى من العالم، أي في تلك المساحة الشاسعة التي أطلق عليها ماكندر اسم «المنطقة المحورية لسياسات العالم»، ومن بين خمس خرائط لتوضيح قضيته استحقَّت الأخيرة أن تسمَّى «المراكز الطبيعية للقوى»، وتصور «المنطقة المحورية». صوَّر ماكندر المحور الجغرافي في شمال وداخل المنطقة الأوروبا آسيوية، والممتدة من المنطقة القطبية الشمالية إلى الصحارى الوسطى، وغربًا إلى البرزخ العريض بين بحر البلطيق والبحر الأسود.

وتبعًا للتحليل التاريخي الذي يخصُّ به معظم مقاله، فإن أوروبا وبقية العالم ظلَّت لعدة قرونٍ تحت ضغطٍ مستمر من منطقة المحور.

«نالت أوروبا حضارتها تحت ضغط البربرية الخارجية إذن، فأنا أطلب منكم أن تنظروا لحظةً إلى أوروبا وإلى التاريخ الأوروبي على أنهما تابعان لآسيا وللتاريخ الآسيوي؛ لأن الحضارة الأوروبية، بمعنى حقيقي جدًّا، كانت نتيجة نزاع دنيوي ضد الغزو الآسيوي. وأهم تناقضٍ واضح في الخريطة السياسية لأوروبا الحديثة هو الذي تمثله مساحة روسيا التي تشغل نصف مساحة القارة، ومجموعة من الأراضي الصغيرة تسكنها القوى العربية.»

وبتتبُّع التقلُّص والامتداد في التاريخ الأوروبي أكمل ماكندر حديثه بقوله:

«لمدة ألف سنة، برزَتْ مجموعة من الشعوب راكبي الخيول من آسيا خلال الشقة العريضة الواقعة بين جبال أورال Oral وبحر قزوين Caspian sea، ساروا بخيولهم خلال المسافات المكشوفة لجنوب روسيا، واستقروا في المجر Hungary في قلب شبه الجزيرة الأوروبية نفسه، وكونوا بالمعارضة التي قابلتهم بطبيعة الحال، كوَّنوا تاريخ كلٍّ من الشعوب العظمى المجاورة — الروس والألمان والفرنسيين والإيطاليين والأغارقة البيزنطيين.»

ومن وجهة نظر التأثير الدائر، تركت غزوات المغول في القرنَيْن الرابع عشر والخامس عشر، أعمق الأثر، فاكتسحَتْ كثيرًا من أوروبا الوسطى وروسيا وفارس والهند والصين. جاءت تلك الغزوات مما أسماه ماكندر «منطقة المحور» و«كل الحدود المتفق عليها للعالم القديم، أحسَّت في الحال أو بعد وقتٍ بالقوة الهائلة لتلك السلطة المتحركة التي نشأَت في سهول الاستيس Steppe.»

أسقط ماكندر أشعة تاريخه على أزمنتنا، فرأى منطقة المحور تزيد من ثقلها في شئون العالم متمشية مع نموها في القوة الاقتصادية والحربية. ومن وجهة النظر التاريخية، رأى بالأدلة «إلحاحًا معينًا للعلاقة الجغرافية»؛ لأنه …

«أليست منطقة المحور لسياسة العالم هي تلك المساحة الواسعة أوران–آسيا، التي لا تستطيع السفن أن تصل إليها، ولكنها كانت في قديم الزمان مفتوحة أمام البدو راكبي الخيول، وعلى وشك أن تغطيها اليوم شبكة من السكك الحديدية؟ كانت، ولا تزال هنا ظروف تحرك القوة العسكرية والاقتصادية من نوع يصل إلى مدى بعيد، ولكنه نوع محدود. فروسيا تحل محل الإمبراطورية المغولية، وضغطها على فنلندة وعلى اسكندیناوة

وعلى بولندة وعلى تركيا وفارس والهند والصين، يحل محل غارات رجال الاستيس الممتدة إلى الخارج. إنها تحتل المركز الاستراتيجي المتوسط في العالم كله، ذلك المركز الذي تحتله ألمانيا في أوروبا. يمكنها أن تضرب في جميع الجوانب، وتضرب من جميع الجوانب أيضًا ما عدا الشمال.»

يحدد ماكندر هلالين خارج منطقة المحور يضم الهلال الكبير الداخلي ألمانيا والنمسا والهند والصين بينما يضم الهلال الخارجي بريطانيا وجنوب أفريقيا وأستراليا والولايات المتحدة وكنده واليابان، والحقيقة أن قوة منطقة المحور لم تكن معادلة لدول الحافة الخارجية للهلالين، وهنا أبدى ماكندر خوفه العظيم بقوله: «قد يحدث هذا إلا إذا تحالفت ألمانيا مع روسيا، وفي هذه الحالة، يُصبح بوسع دولة المحور أن تمتدَّ فوق البلاد الساحلية للأورال–آسيا فتستعمل موارد قارية هائلة لبناء أسطول، وعندئذٍ تكون إمبراطورية العالم ظاهرة.»

اختتم ماكندر خطابه الشهير بالتأكيد بأنه تكلَّم بصفته عالمًا جغرافيًّا، وأشار إلى أن «التوازن الحقيقي للقوة السياسية في أي وقتٍ معين هو بالطبع حاصل ضرب الظروف الجغرافية، اقتصاديًّا واستراتيجيًّا في العدد النسبي للرجولة الكاملة والمعدات وتنظيم الشعوب المتنافسة.» وفي تقديره أن «الكميات الجغرافية في هذا الحساب أكثر قابلية للقياس وأكثر ثباتًا تقريبًا، من الكميات البشرية.» لن تتغير الأهمية الجغرافية لموقع المحور إذا سكنه شعبٌ آخر غير الشعب الروسي.

فمثلًا إذا نظَّم اليابانيون الصينيين لهزيمة الإمبراطورية الروسية واحتلال أراضيها، فإنهما تكونان الخطر الأصفر على حرية العالم لمجرد أنهما تضمان جبهة على المحيط إلى موارد القارة العظمى، وهذه ميزة حرم منها الروس ساكنو منطقة المحور.

أحس ماكندر، وهو يكتب عند نهاية الحرب العالمية الأولى «أن الحرب دعمت آراءه السابقة بدلًا من أن تهز كيانها.» ففي «المثل العليا الديمقراطية والحقيقية» استمر في مناقشة «منطقة المحور» التي أشار إليها عندئذٍ على أنها «قلب القارة» الواقعة في وسط «الجزيرة العالمية».

لم تكن أوروبا وآسيا وأفريقيا، كما رآها ماكندر ثلاث قارات، بل قارة واحدة هي «الجزيرة العالمية»، وبما أن البحر كان فيما مضى مسيطرًا على تفكير الإنسان، فإنه لم يعتبر تلك الرقعة الشاسعة جزيرة؛ لأنه كان من المستحيل الإبحار حولها. فأشار ماكندر إلى أنه «يطفو فوق بحر القطب الشمالي طبقة من الثلج عرضها ألفان من الأميال، إحدى حافاتها على الأرض الضحلة في شمال آسيا. إذن، فليست القارة جزيرةً من حيث

غرض الإبحار.» وباستثناء هذه الحقيقة، ومساحتها الشاسعة، فإنها لا تختلف عن الجزر الأخرى، وتطغى الجزيرة العالمية على بقية الأرض في كلٍّ من المسافة وعدد السكان. فمن ناحية الأرض، لهذه الجزيرة الثلثان، بينما الثلث الباقي للأمريكتين الشمالية والجنوبية وأستراليا والمناطق الصغرى الأخرى. وزيادة على ذلك فإن سبعة أثمان سكان العالم يقيمون في هذه الجزيرة، بينما يقيم الثمن فقط في بقية الأراضي الأخرى. إذن، فقد لاحظ ماكندر أن الدنيا القديمة هي «الوحدة الجغرافية العظمى في كرتنا الأرضية.»

وبعد أن أوضح ماكندر «نسب وعلاقات» الجزيرة العالمية، استطرد يقول:

«وُضعت، كما هي، على كاهل الأرض بالنسبة إلى القطب الشمالي، وإذا قسنا المسافة من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي، بطول منتصف آسيا نجد أولًا ١٠٠٠ ميل من البحر المغطَّى بالثلج حتى الشاطئ الشمالي لسيبريا، ثم ٥٠٠٠ ميل من الأرض إلى الجزء الجنوبي من الهند، ثم ٧٠٠٠ ميل من البحر إلى الأرض المغطاة بالثلج عند القطب الجنوبي. أما إذا قسنا بطول منتصف خليج البغال أو البحر العربي فإن آسيا تبلغ ٣٥٠٠ ميل فقط، ومن باريس إلى فلاديفوستك Vladivostok ‏٦٠٠٠ ميل، ومن باريس إلى رأس الرجاء الصالح مسافة مساوية للسابقة.»

قال ماكندر: ليست الأمريكتان وأستراليا صغيرة نسبيًّا من حيث المساحة فحسب؛ بل وإن القوة البشرية والموارد الطبيعية التي فيها أقل بكثير مما في «القارة العظمى» أو «الجزيرة العالمية». ويسأل ماكندر: «ماذا لو أن القارة العظمى أو الجزيرة العالمية كلها، أو الجزء الأكبر منها، صارَت في وقتٍ ما، في المستقبل، قاعدة متحدة من القوة البحرية؟ أَلَا تتفوق على القواعد الجزيرية الأخرى من حيث السفن والرجال المديرة لها؟» هذا، ورغم أن ألمانيا هُزمت فلا يزال هناك احتمالٌ أن جزءًا كبيرًا من القارة العظمى سيتحد في يومٍ ما تحت إمرة حكومة واحدة، وتبنى عليها قوة بحرية عظمى لا يمكن قهرها. وحذَّر ماكندر يقول: «لو كسبت ألمانيا الحرب لكونت قوتها البحرية على أساس أوسع من أية قوة في التاريخ، والحقيقة أنها ستكون على أوسع قاعدة ممكنة.»

لقلب قارة ماكندر أساسًا نفس حدود محوره السابقة؛ فقلب القارة هو المنطقة الوسطى في أوروبا وآسيا النائية، والبعيدة عن متناول سيطرة القوة البحرية. «وتشمل بحر البلطيق ووسط نهر الدانوب الصالح للملاحة، وجزءه من ناحية المصب، والبحر الأسود وآسيا الصغرى وأرمينيا وفارس والتبت ومنغوليا. إذن، يضم قلب القارة في داخله بروسيا براندنبرج Brandenburg Prussia والنمسا والمجر، وكذلك روسيا — إنها مثلثة

الشكل ذات قوة بشرية عظيمة، كان يفتقر إليها راكبو الخيول التاريخيون» ... ذكر ماكندر بحر البلطيق والبحر الأسود في هذه المنطقة؛ لأنه ثبت إبان الحرب العالمية الأولى استحالة الوصول إليها أو السيطرة عليهما من الخارج بأية قوة بحرية.

أكمل ماكندر قوله بتعريفٍ آخر لقلب القارة بأنه: «ظرف طبيعي هام واحد تربطه كله معًا، بيانيًّا، عند حافة جبال فارس المطلَّة على أرض العراق Mesopotamia الشديدة الحرارة، تحت الثلج في زمن الشتاء ... وفي منتصف الشتاء كما نرى من القمر درع واسعة بيضاء وتظهر قلب القارة في أضخم معانيه ... اقتنع ماكندر بأن هذه المساحة هي مفتاح الجزيرة العالمية. وتمتد إجمالًا من جبال هيمالايا إلى المحيط المتجمد الشمالي، ومن نهر الفولجا Volga إلى نهر يانجتسي Yangtze وتمتد مسافة ٢٥٠٠ ميل شمالًا وجنوبًا ومسافة ٢٥٠٠ ميل أخرى شرقًا وغربًا. ولما كانت بمأمن من القوة البحرية بسبب موقعها داخل القارة، ويمكن لقلب القارة هذا إذا نما نموًّا صحيحًا ونظم عسكريًّا، أن يصير مركز ومحور قوة عالمية ذات تأثير عظيم.»

اختصر ماكندر حججه إلى صيغة شائعة على الألسن، نصها:

«من يحكم شرق أوروبا يسيطر على قلب القارة،

ومن يحكم قلب القارة يسيطر على الجزيرة العالمية،

ومن يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على الدنيا.»

ولكي يحال بين أية أمة واحدة، وخصوصًا روسيا أو ألمانيا، وبين التفوق في قلب القارة، إثر الحرب العالمية الأولى، نصح ماكندر بتكوين حاجز من الدول يمتص التصادم من بحر البلطيق إلى البحر الأسود. والدول المستقلة كما يراها ماكندر هي إستونيا Esthonia ولتوانيا Lithuania وبوهيميا العظمى Great Bohemia والمجر والصرب العظمى Graet Serbia ورومانيا العظمى وبلغاريا واليونان — وهذه قائمة تختلف اختلافًا طفيفًا عمَّا قرره مؤتمر السلام في باريس. وعلى ضوء التاريخ الحديث، أخطأ ماكندر خطأً فاحشًا، فلم تحقق منطقة امتصاص الصدام الغرض المطلوب منها؛ إذ اخترقت ألمانيا هذا الحاجز أولًا، ثم روسيا.

وإبَّان الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٤٣م، قبل موت ماكندر بأربع سنين، اختبر نظرية قلب القارة للمرة الثالثة في مقال عنوانه: «العالم المستدير وكسب السلام.» فوجد فكرته «أكثر صحة ونفعًا اليوم مما كانت عليه منذ عشرين أو أربعين سنة مضت.» واستطرد يتنبَّأ بأنه: «إذا هزم الاتحاد السوفيتي ألمانيا في الحرب، فلا بد أن يكون أعظم

دولة في الدنيا، وزيادة على هذا، سيكون القوة ذات المركز الاستراتيجي الأقوى في ناحية الدفاع. فقلب القارة أعظم حصن طبيعيٍّ على ظهر البسيطة، ولأول مرةٍ في التاريخ تسيطر عليه حامية كافية، كمًّا ونوعًا.»

لم تتشبث دولة ما بنظريات ماكندر مثلما فعلت ألمانيا النازية. وتبعًا لتفسير كارل هوشوفر Karl Haushofer، كاتب الموضوعات الجغرافية الكثير التصانيف، فإن فكرة ماكندر الأساسية عن قلب القارة الموجود في جزيرة عالمية، سادت الفكر السياسي الألماني لمدة عشرين سنة ١٩٢٥–١٩٤٥م.

اشتهر هوشوفر في وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٩٠٨م عندما أوفد إلى اليابان كملاحظ حربي لموظفي القائد الألماني، فركز اهتمامه على استيعاب شئون الشرق الأقصى، صار معروفًا كخبير وعن طريق موهبة استثنائية لحفظ اللغات، تعلم التكلُّم بست لغات أجنبية منها الصينية واليابانية والكورية والروسية، كما أنه توسَّع في رحلاته ليلم عن كثبٍ بالشرقَيْن الأوسط والأقصى. رقى هوشوفر في الرتب العسكرية إبان الحرب العالمية الأولى، وتقاعد برتبة ماجور جنرال Major General وبعد استسلام ألمانيا، وللمدة الباقية من حياته العملية، شغل بالكتابة في الجغرافيا السياسية وتعليمها، والتاريخ الحربي في جامعة ميونيخ Munich. فسطَّر قلمه عدة كتب وكتيبات ومقالات للتفسير في المثل العليا النازية بكلمتَيْ سرٍّ هما: السياسة الجغرافية، وتتناول تحركات التغيرات السياسية في العالم أو فضاء السكنى Lebenstraum، ويقصد بها حاجة الشعب إلى أراضٍ للسكنى للتوسُّع والنمو.

لا نعرف متى عثر هوشوفر على مؤلف ماكندر لأول مرة، وربما كان هذا في أوائل عشرينيات القرن العشرين، وعلى الفور أدرك هوشوفر أنه عثر على أستاذه، فصرَّح من تلقاء نفسه بأنه مدين له. فمثلًا كتب في سنة ١٩٣٧م يصف ورقة ماكندر لسنة ١٩٠٤م بأنها «أعظم الآراء الجغرافية في العالم كله» ثم أضاف «أنه لم يرَ في حياته شيئًا أعظم من تلك الصفحات القليلة لروائع السياسة الجغرافية.» وبعد ذلك بسنتين ناقش موضوع تحالف ألماني روسي، مشيرًا إلى أن ماكندر اتخذ وجهة النظر البريطانية عن الخوف من القوة التي ستكون لتلك الدولتَيْن إن اتحدتا. وكثيرًا ما اسْتَشهد هوشوفر بحكمة أوفيد Ovid: «من الواجب أن نتعلَّم لغة العدو» ... أعاد طبع خريطة ماكندر لقلب القارة أربع مرات على الأقل في مجلة Zeitschrift für Geopolitik واعترف بلا تردد، بأن أفكاره مبنيةٌ على الأساس الذي قدَّمه ماكندر.

كان صديقهما رودلف هيس Rudolf Hess حلقة اتصال بين هوشوفر وهتلر. فبينما كان هتلر في السجن بعد قضية خمارة بوتش Beer Hall Putsch الفاشلة لسنة ١٩٢٣م، زاره هوشوفر عدة مرات … أوضح هتلر في عدة فقرات من كتابه «كفاحي Mein Kampf»، أنه استقى من هوشوفر بعض مذاهب السياسة الجغرافية. ولما انتصر النازيون بعد ذلك بعشر سنين كان هوشوفر في مركز قياديٍّ يخوله التأثير على سياسة ألمانيا. وإذ عُيِّن رئيسًا لمعهد السياسة الجغرافية النازي، جنَّد عددًا ضخمًا من الموظفين ليذرعوا الأرض للحصول على معلوماتٍ عن الطبيعة والظروف المعيشية والأثر التهذيبي للشعوب، وغير ذلك من المعلومات الجغرافية ذات الأهمية الحربية القوية.

وإذ أعجب هوشوفر بأفكار ماكندر، تسلَّطت عليه فكرة أن ألمانيا لا بد أن تُسَيطر على قلب القارة. فانتشرت رسومه عبر القارة من نهر الراين إلى نهر يانجتسي، وتركزت على خطته لحدوث تحالف عملاق بين ألمانيا واليابان والصين وروسيا والهند ضد الإمبراطورية البريطانية … وقد وافقت هيئة الموظفين الألمانية العامة على تعاليمه وأيدتها. وبدأ توقيع الميثاق النازي السوفيتي في سنة ١٩٣٩م محققًا لحلم هوشوفر، غير أن سياسته كلها ذهبت أدراج الرياح عندما اقترف هتلر أعظم خطأ عجل بنهاية الحرب العالمية الثانية، عندما أمر قواده بأن يهاجموا الاتحاد السوفيتي، وبعدما انتهت الحرب بفترةٍ وجيزة، انتحر هوشوفر وزوجته في بيتهما البافاري.

وكما هو طبيعي، اتهم النقَّاد هوشوفر بأنه هو الذي وضع أساس المذهب الحربي النازي، بيد أن ماكندر دحض هذا الاتهام في الخطبة التي ألقاها عام ١٩٤٤م؛ إذ قال:

«علمت بسريان شائعات تقول إنني أوحيت إلى هوشوفر الذي أوحى إلى هيس، فاقترح هذا بدوره على هتلر، عندما كان يملي كتابه «كفاحي»، ببعض أفكار السياسة الجغرافية، يقال إنني مصدرها. إنها ثلاث حلقات في سلسلة، ولكني لا أعرف شيئًا عن الحلقتَيْن الثانية والثالثة. ومع ذلك، فإنني أعرف من دليل قلمه، أن كل ما اقتبسه هوشوفر منِّي أخذه من خطاب المحور الجغرافي للتاريخ الذي ألقيته أمام الجمعية الجغرافية الملكية منذ أربعين سنة خلت، قبل وجود أي مسألةٍ عن حزب نازي بزمن طويل.»

لم يكن انتشار مذاهب السياسة الجغرافية بالطبع قاصرًا على ألمانيا وحدها. فقلَّما كان الروس أقل نشاطًا من الألمان فهناك مكتب جغرافي مزدهر، هو معهد موسكو للاقتصاد والسياسة العالمية، الذي اهتم منذ وقت طويل بالنزاع بين الولايات المتحدة والجزيرة العالمية التي يأمل الاتحاد السوفيتي في السيطرة عليها. ومن الممتع في هذا

الخصوص أن نذكر رأي ماكندر في روسيا عام ١٩١٩م عندما كانت الحكومة الشيوعية في حداثة عهدها. كان مقتنعًا بأن الفهد لا يغير مناطقه أبدًا. «يتعارض نوع الحكومة البريطانية والأمريكية والمثل العليا لعصبة الأمم، مع السياسة التي صيغت في قالب الطغيان لشرق أوروبا وقلب القارة سواء أكانت على نظام الأسرات dynastic أو بولشفية Bolshvik. قد تكون حالة الطغيان البولشفي رد فعل أقصى للطغيان الأسري، ولكن من الحقيقي أن السهول الروسية والبروسية والمجرية، مع تناسق حالاتها الاجتماعية المتسعة على نطاقٍ عريضٍ ملائمة لسير العسكرية ودعاية النقابية Syndicalism».

نوقِشَت صحة نظريات ماكندر الجغرافية نقاشًا طويلًا وأحصيت جميع النقاط التي يحيط بها أي شك. ومن العيوب الواضحة إخفاق ماكندر في أن يحسب حساب الإمكانيات الهائلة التي للقوة الجوية، ولكنه اعترف فيما كتبه بعد ذلك، بأن غزو الجو قد فرض على العالم نوعًا من الوحدة. إلا أنه أصرَّ على أن هذا التقدم قد أيد «قلب القارة»، نضال الجزيرة العالمية، ولم يضعفها — ويصر النقاد على أن القوة الجوية قد غدت سلاحًا رهيبًا إلى درجة جعلت نظرية قلب القارة تفقد أهميتها الاستراتيجية؛ فالخطوط الجوية تعبر الآن المحيطات والقارات من جميع الجهات، وكما علَّق هريك Herrick:

الهواء عالمي مشاع للجميع. إنه طريق واسع فرد يقطع حسب الإرادة فوق الأرض أو البحر على حدٍّ سواء، لا يصد القوة الجوية إلا قوة جوية، وهي لا تعرف قلب القارة البعيدة عنها تمام البعد ... والقانون الاستراتيجي الآن قد يكون: «من يركب الطائرات يسيطر على القواعد، ومن يسيطر على القواعد يسيطر على الجو، ومن يسيطر على الجو يسيطر على العالم.»

يدعم وجهة النظر هذه فحص كرة أرضية حيث يرى المرء ما يجاور قلب القارة وأمريكا الشمالية مرئية من أمريكا الشمالية، وبمصطلحات وسائل المواصلات الحديثة. ويقول وايجرت Weigert: ما عادت استحالة الوصول ولا بعد الشقة يحجب عنَّا قلب القارة، لم تعد تقع خلف سور موقع منيع لا يمكن النفاذ إليه؛ إذ قهرت الطائرات الحديثة البعيدة المدى مناطق القطب الشمالي في الخمسين سنة بعد أن ألقى ماكندر تحذيراته المشئومة. وزيادة على ذلك، فإن نفس حجم قلب القارة عقبة كئود لقوة الدفاع، فذلك الطول العظيم لأراضي روسيا السوفيتية وسواحل البحار، مثلًا، تزيد من إمكان إصابة الطائرات المعادية، وتخلق مشكلة دفاع بالغة التعقيد. وبحسب ألفاظ ماكندر «بينما يمكن أن تَضرب من جميع الجهات، يمكن أيضًا ضربها من جميع الجهات.»

هناك نقطة هامة، وأخرى عميَ عنها ماكندر؛ إذ فشل في إدراك المركز القوي الذي تحتله الأمريكتان، وفي أثناء كتابته «المثل العليا الديمقراطية والحقيقية»، شاهد منذ فترةٍ وجيزة في الحرب العالمية الأولى استعراضًا لقوة أمريكا وعنفها، ويبدو أنه كان مشغولًا بفكرة قلب القارة والجزيرة العالمية في نظرته إلى الأرض، وعلى ذلك لم ير الدنيا الجديدة إلا منطقة ساحلية و«مجرد تابع للقارة القديمة.»

ورغم مساوئ ماكندر التنبؤية فهناك أدلة قوية تؤيد آراءه ... أقام الاتحاد السوفيتي حكمًا جديدًا على قلب القارة، وعن طريق التقدُّم الزراعي والصناعي واستغلال المعادن والسكك الحديدية وإنشاءات المجال الجوي، جعلت المنطقة من أقوى المناطق في العالم اقتصاديًّا وحربيًّا. ومن ناحية أخرى، فعلى الرغم من أنها بدأت عددًا من الخطط الخمسية في العشرين سنة الماضية، فلم تبلغ تلك المنطقة المقدرة الإنتاجية التي للولايات المتحدة، هذا وبرغم أن الاتحاد السوفيتي يحكم قلب القارة فإنه لا يزال بعيدًا عن هدفه من السيطرة على الجزيرة العالمية، فما بالك بالعالم.

كشف النقد ضعف بعض تفاصيل آراء ماكندر، ولكنه لا يفند الأسس الأصلية. ربما أن «الرأي الأول يمدنا بفكرة عالمية عن الدنيا وشئونها.» وتنص عبارة جون ك. واينانت John C. Winant على أننا سنتذكره لمدة طويلة. وقال ماكندر: «لا توجد منطقة جغرافية كاملة أصغر من سطح الأرض ولا أكبر منه.» كان آليًّا في الحصول على تصديق واسع للنظرية التي عبر عنها في وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٨٨٩م وتقول: «إن باب الجغرافيا السياسية هو الباب المتوج للجغرافيا.» كان جل اهتمامه أن يحث مواطنيه وشعوب الديمقراطيات الأخرى على الإيمان بأن الحقائق الجغرافية ذات أهميةٍ أساسية في نمو الشعوب والدول. كان يؤمن ويعلم أن الدنيا لن تعيش في سلام للديمقراطية إلا إذا فهمت الحقائق الجغرافية فهمًا تامًّا. لقد وضعت أسس الجغرافيا الحديثة على آراء ماكندر عن العالم ومناطقه.

الفصل العاشر

دراسة في جنون العظمة: أدولف هتلر[1]

«كفاحي» Mein Kampf

كانت كومة الحريق التي التهمت جثتَيْ أدولف هتلر وإيفا براون Eva Braun، في العاشر من أبريل سنة ١٩٤٥م، محكمة في برلين القائمة على عمق كبير تحت الأرض، كانت هذه الكومة خاتمة المطاف التي كان يمكن أن يفكر فيها «هتلر، مؤلف الأوبرا، أعظم من أعجب به الناس إعجابًا حماسيًّا فاتخذه ريتشارد واجنر Richard Wagner موضوعًا لأوبرا جديدة عنوانها Gütterdämmerung، أو شفق الآلهة» … جلجل المنظر أسفل الستار عن رواية شجوية عظمى، افتتحت قبل ذلك بجيل عندما بدأ فوهرر Führer المستقبل سيره نحو السلطة والقوة.

وعندما قبض الحزب النازي، بقيادة هتلر، على زمام الحكومة في سنة ١٩٣٣م بعد اضطرابات دامت أكثر من عشر سنوات مقترنة بأعمال العنف، روع العالم بتلك الأعمال. كان نظام الحكم متهورًا في تثبيت رقابته، فتركت جميع أنظمة الحكومة الديمقراطية، وأوقفت الآراء المعارضة في غير رحمةٍ، واضطهدت الكنائس والجمعيات الأخوية واتحادات العمال أو ضمت، وقتل اليهود في أعداد ضخمة، ووجهت التهديدات علنًا إلى الأمم الصديقة المجاورة عن طريق موجات من الدعاية.

[1] Adolf Hitler.

ومع ذلك، فلو أتعب غير الألمانيين أنفسهم وقرءوا بإمعان مجلدًا ضخمًا عنوانه Mein Kampf أي «كفاحي»، لوجدوا البرنامج كله موضحًا أمامهم بكل تفاصيله المخجلة. شكرًا للرقابة الدولية على المطبوعات؛ فقد نجح مؤلفه في أن تقتصر القصة كلها على الطبقة الألمانية الأصلية. وحتى لو ترجم النص الموبوء، وفاز بحرية التداول بالإنجليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات الأخرى، لاعتبره كثير من الناس «حلمًا خياليًّا لرجل خيالي مخبول» — بدا بالغ الاتساع في مداه، وطموحًا بدرجة لا يصدقها العقل لقد سمى «كفاحي» بحق أروع ما أخرجته الدعاية في هذا العصر، وللنظر إليه من ناحية وجهة نظر قاضي المحكمة على أنه «أعظم الكتب إجرامًا في القرن العشرين». انساقت أمة عظيمة وحلفاؤها لتنفيذ الآراء الخيالية التي تضمَّنها ذلك الكتاب. فعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية، وُزِّع منه في ألمانيا وحدها خمسة ملايين نسخة.

وإذ نما هتلر وتربَّى في فيينا (مثل شخص آخر اسمه سيجموند فرويد Sigmund Freud)، كون وهو في حداثة سنه انطباعات وتعصبات وأحقادًا قيض لها أن تحكمه طيلة بقية حياته. صب كل شيء في كتابه «كفاحي»، وتبين الأبواب الافتتاحية صورة موجزة هامة من تلك السنوات الأولى، وُلد في سنة ١٨٨٩م في براونو Braunau بالنمسا على الساحل المواجه للحدود الألمانية؛ ولذا كان يشعر دائمًا بأنه ألمانيٌّ أكثر منه نمساوي، وكان يحتقر بنوعٍ خاص، شعب فيينا المتنعم وتبعًا لرواية هتلر، هو نفسه، كانت أولى سِنِي حياته مليئةً بالحرمان والآلام والإخفاق وعدم التوفيق وسوء التنظيم. توقفت دراسته الشكلية في المدارس وهو في الثالثة عشرة من عمره، ومات والداه وهو في حوالي تلك السن، فكافح في فيينا ليكون مصورًا، وإذ أخفق في هذا المضمار حاول أن يشتغل بالمعمار، بيد أن افتقاره إلى التعليم وإلى الموهبة لم يساعده على نيل مأربه.

يدَّعي هتلر أنه أثناء وجوده في فيينا، قرأ الكثير ولا سيما التاريخ، وتأثرت أفكاره بنوعٍ خاص بكتاب عن الحرب الفرنسية البروسية التي أوحت إليه بأن يفخر كثيرًا بالجنس الألماني، فاقتنع بالمصير الذي كتبه الله لذلك الشعب، وفي الوقت نفسه بدأ يكوِّن كراهية حادةً نحو اليهود واحتقارًا شديدًا للسلافيين Slavs وغير الآريين جميعًا، قرَّر أن اليهود أولًا وقبل كل شيء جامعو أموال وانتهازيون دوليون، وعادة ما يكونون اشتراكيين أو شيوعيين بينما السلاف جنس أقل من الجنس الألماني وليس لديهم ثقافة خاصة بهم.

كان لاختلاط هتلر بالديمقراطيين الاجتماعيين في فيينا أن جعله يمقت الدعاية الاشتراكية والشيوعية، ورغم أنه كان تلميذًا مُجِدًّا في خطط الحرب، فقد لازمته كراهيته

للماركسية طول حياته. ورغم شراهته للقراءة فليس هناك أي دليل على أنه فتح كتابه «كفاحي»، كما كان يبغض الديمقراطية والمؤسسات الديمقراطية أشد البغض. وبدأت هذه البغضاء عندما كان يحضر جلسات الرايخسرات Reichsrath النمساوي في فيينا ولاحظ ما اعتبره طرقًا غير فعالة.

وأخيرًا، إذ لم يعد يحتمل استنشاق هواء العاصمة فيينا المقيت، استقر في سنة ١٩١٢م في ميونيخ التي كان يُطلق عليها «مدينة ألمانية تمامًا». وبعد ذلك سرَّه اندلاع نار الحرب العالمية الأولى، فتقدم للتجنيد في كتيبة بافارية، وقبل أن تضع الحرب أوزارها، جُرح وتسمم بالغازات السامة، وزيِّن صدره مرتين بالنياشين، ورُقِّي إلى رتبة جاويش، وحزن لهزيمة ألمانيا وثارت ثائرة غضبه إذ اعتقد أن سبب هذه الهزيمة هم اليهود والماركسيون وأنصار السلام. كما أغضبه وأثار حفيظته قيام حكومة ديمقراطية في ألمانيا بعد الحرب. عندئذٍ عزم على الاشتغال بالسياسة.

بدأ اشتغال هتلر بالسياسة بعد عودته إلى ميونيخ. فعمل لوقتٍ ما مخبرًا سياسيًّا للجيش أو Wehrmacht (القوات المسلحة)، ودُعي لأن يكون عضوًا في جماعة صغيرة تُسمى «حزب العمال الألماني» فقبل به، وسرعان ما غيَّر اسم ذلك الحزب إلى «حزب العمال الاشتراكي القومي الألماني»، وهو نواة الحزب النازي Nazi. وبعد فترة قصيرة، وبمناورة داخلية، قبض هتلر على زمام ذلك التنظيم، وأبطل العادة القديمة العديمة المعنى لإصدار قرارات الحزب بأخذ أصوات الأعضاء. فصمم برنامج الحزب وتطور بأمر هتلر، لإرضاء طبقات العمال، واستأصل شأفة «القاتلين بالسم الدوليين» وألغى الهيئات التشريعية، وأقر مبدأ الطاعة العمياء للقائد Führer دون توجيه أية أسئلة.

وإذ كان بذلك الحزب ٢٧٠٠٠ عضو في سنة ١٩٢٣م، وتؤيد هتلر عصبة عسكرية تحت إمرة القائد لودندورف Ludendorff بينما بدأت حكومة سترسمان Stresemann تترنح، أدرك هتلر أن الفرصة سانحةٌ ليقبض على السلطة، كان له أتباعه فدبَّر التمرد الشهير لحانة البيرة بوتش Putsch في ميونيخ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع، وقُتل فيها ستة عشر من أتباع هتلر في الطريق، وقُبض على هتلر نفسه وحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات، خُفِّضت فيما بعد إلى سنة واحدة.

بينما كان هتلر سجينًا في القلعة البافارية في لاندزبرج Landsberg، وجد متسعًا من الوقت لأول مرة ليكتب تاريخ حياته. والواقع أن كتاب «كفاحي» كان كتابًا شفويًّا أكثر منه مكتوبًا. وقد قاسم هتلر سجنه تلميذه الوفي رودلف هيس Rudolph Hess، فأملى هتلر الكتاب على هيس الذي كتبه على الآلة الكاتبة مباشرة، وبذا تم الجزء الأول.

وإذ كان إهداؤه إلى الستة عشر شهيدًا الذين سقطوا صرعى في معركة تمرد ميونيخ، كان العنوان الأصلي لذلك الكتاب هو «أربع سنوات ونصف من الكفاح ضد الأكاذيب والحماقة والجبن». وتم الجزء الثاني في سنة ١٩٢٦م في برختسجادين Berchtesgarden.

وصف أوتو توليسخوس Otto Tolischus مادة كتاب «كفاحي» بأنها: «١٠٪ تاريخ حياة المؤلف، ٩٠٪ عقيدة، ١٠٠٪ دعاية» — وهنا تحليل عادل. ويبدو من غير المصدق اليوم أن يستولي مثل هذا الكتاب الركيك المطول والرديء الكتابة والمليء بالمتناقضات والتكرار على عواطف أمة ذات ثقافة عالية. بيد أن الموقف كان يسير على نظام موضوع. وهناك تعليقات لودويج لور Ludwig Lore عليه، التي تنير كل غامض:

«كان الشعب الألماني في عام ١٩٣٣م في حالة تأثر خطرة بالنظام الفاشيستي. حاولوا إيجاد طريق للعودة إلى الحياة العادية واحترام الذات النفسي، فوجدوا الطريق مسدودًا بالتعصُّب وسوء الفهم الأعمى، ولم تهتم الدول العظمى بشيء ما غير التعويضات، وانقسمت أحزاب العمال الألمانية، التي كان من الممكن أن تمدَّ يد العون، إلى ستة معسكرات متصارعة. حدث كل هذا أمام خلفية ملونة بقومية عالية الضغط. وصل الشعب الألماني إلى نقطة يبدو أن النظام والأمن فيها كانا أهم من الحرية السياسية التي صارت مرادفة للعراك وسفك الدماء؛ فأدرك هتلر هذه الأمور جيدًا واستغلها لأغراضه تساعده مقدرته الهائلة على التنظيم والدعاية، واستعداد كبار رجال الصناعة الألمان لتمويل حملاته، فما إن استقر حتى سهل الاحترام الفطري الألماني للسلطة استقرار القيادة الفاشستية.»

ولحن خطة «كفاحي» الذي يكرره المرة بعد المرة هو الجنس، ونقاء الجنس، وتفوق الجنس وسيادته — رغم أن هتلر لم يعرِّف الجنس في أي موضع من كتابه، ولكنه قال إن الجنس البشري ينقسم إلى ثلاث مجموعات هي: خالقو الثقافة الذين لهم مثال واحد هو الآريون أو النورديون (أي الألمان على وجه التحديد)، وحاملو الثقافة مثل اليابانيين، ومحطمو الثقافة مثل اليهود والزنوج. ويؤكد هتلر على أن الطبيعة لم تقصد قط أن يتساوى جميع الأجناس، كما لا يتساوى كل الأفراد، فقد خلق البعض متفوقين على البعض الآخر. ولما كان الألمان أقوى جنس في العالم، وجب أن يحكموا أجناس البشر الأقل منهم. وتبين بضع فقرات من كتاب «كفاحي» وجهة نظر هتلر في الأجناس الأقل.

كتب هتلر عن الإمبراطورية النمساوية يقول:

«طردت تلك الإمبراطورية بسبب تكتل الأجناس التي رأيتها في العاصمة، طردت بسبب كل ذلك الخليط من التشيكيين والبولنديين والمجريين والروثانيين والصربيين

والكرواتيين، كما يوجد في كل مكان ذلك التطفل الأبدي للجنس البشري، ألا وهو: اليهود، ومزيد من اليهود.»

وكتب عن الأفريقيين:

«… من الجنون الإجرامي أن يستمر الناس في تدريب نصف قرد بالفطرة إلى أن يظنوا أنهم خلقوا منه محاميًا، بينما يبقى الملايين من أفراد الجنس الأسمى ثقافة في مراكز لا تليق بهم على الإطلاق … إنها لخطيئة أيُّ خطيئة ضد إرادة الخالق السرمدي، إذا ترك المئات ومئات الألوف من كائناته الموهوبة أفضل المواهب، يهلكون وسط مستنقع طبقة الفقراء، بينما يدرب الهوتنتوت والزولو والكفير للمهن العقلية.»

أما الهنود القوميون: «فأدهشوني دائمًا، فردًا فردًا، بثرثرتهم وتعاظمهم دون سندٍ حقيقيٍّ من الماضي، وأما البولنديون والتشيكيون واليهود والزنوج والآسيويون فجمعوا في قراب واحد على أنهم غير جديرين بالجنسية الألمانية حتى ولو كانوا مولودين في ألمانيا ويتكلمون اللغة الألمانية.»

وخصَّ فرنسا باحتقار خاص:

«… من ناحية الجنس … إنها تحرز تقدمًا عظيمًا في التحول إلى زنوج، حتى ليمكننا أن نتحدث عن دولة أفريقية نشأت فوق أرض أوروبية، لا يمكن مقارنة السياسة الاستعمارية لفرنسا الحالية بسياسة ألمانيا في الماضي، وإذا استمرت فرنسا في نمط تقدمها الحالي لمدة ثلاثمائة عام، غاصت آخر بقية من الدم الفرنسي في الدولة الخلاسية الملونة المكونة من الأفريقيين والأوروبيين.»

يبلغ تعصب هتلر للجنس أوجه في الهجوم الجنوني على اليهود، كما في هذه الفقرة، مثلًا:

«جميع أفكار اليهود في كل هذا واضحة؛ بلشفة ألمانيا — أي استئصال الأذكياء القوميين الباحثين عن اليهود — ليصير بالإمكان جعل طبقة العمال الألمان ترزح تحت نير جمع اليهود للأموال. لا تتخذ هذه البلشفة إلا كإجراء أوليٍّ لمدِّ هذه الميول اليهودية لغزو العالم، إلى مسافة أبعد. وكما حدث كثيرًا في التاريخ، فإن ألمانيا هي المحور العظيم في النضال الجبار. فإذا وقع شعبنا ودولتنا فريسة لأولئك الطغاة اليهود الشرهين والمتعطشين للدماء في الأمم، فإن الأرض كلها ستقع في قبضة ذلك الأخطبوط، وإذا خلصت ألمانيا نفسها من قبضته، اعتبر ذلك الخطر الأعظم على الأمم، محطمًا أمام العالم قاطبة …»

وعلى العموم، سيحارب اليهود داخل مختلف الهيئات القومية، بتلك الأسلحة التي تبدو، تبعًا لعقلية تلك الأمم المعروفة، أعظم فاعلية وتبشر بأعظم نجاح. ففي هيئتنا

القومية الممزقة من حيث الدم، تنخر تلك الأفكار العالمية التصورية الناشئة من هذه الحقيقة، أي الميول الدولية التي تستخدم في نضالها القوة ... حتى تهدم دولة وراء أخرى وتحوِّلها إلى كومة من الأنقاض يمكنها أن تبني فوقها عظمة الإمبراطورية اليهودية الخالدة.

وللاحتفاظ بالنقاء الفطري للآريين، أي الجنس الألماني السيد، يجب ألا يختلط به جنس أقل. وأكد هتلر أن انحطاط الأمم العظيمة في الزمن الماضي قد نتج عن اختلاط الدم وفقدان نقاء الجنس، ولتحاشي مثل هذه الكارثة، من واجب الدولة أن تتدخل، وحتى إذا احتج الجبناء والضعفاء عن غزو حقوقهم، وجب على الدولة أن «تحافظ على بقاء دم الأمة نقيًّا حتى تصل البشرية إلى ذروة تقدمها. ينبغي للدولة أن تنتشل الزواج من هوة عار الجنس وتقدسه كوسيلة لإنتاج أشباه آلهة، بدلًا من خلق كائنات بين الإنسان والقرد.»

كان هتلر يؤمن في تعصب بالتفوق الفطري للجنس الآري على سائر الأجناس، فأخذ يعلن أنه من واجب الجنس السيد وامتيازه، أن يهزم الأجناس الأخرى، ويستغلها ويطردها أو يبيدها من أجل مصلحته هو. وبما أن ألمانيا مزدحمة بالأهلين وتحتاج إلى مزيد من الأرض ليعيش فيها قومها، فمن حقها بصفتها القوة النوردية العظمى، أن تستولي على أرض سلافية، فتنتزع السلاف من أرضها وتضع فيها الألمان. وبذا، سوف تنتفع البشرية كلها على مر العصور الطويلة، من عادة امتداد الجنس الأعلى واتحاد الشعوب الألمانية المشتتة، تحت حكم واحد «لن يضمن لأية أمة حرية البقاء إلا مساحة واسعة مناسبة ... فإما أن تكون ألمانيا قوة عالمية، وإما ألَّا تكون هناك ألمانيا إطلاقًا.»

أما الامتداد الشاسع الذي يصوره هتلر فيتم أساسًا على حساب روسيا. نظر إلى الشرق بنهمٍ وتطلع إلى ما يمكن تنفيذه: «فإذا ضمت جبال أورال بموادها الخام الهائلة، وأوكرانيا ذات حقول القمح التي يخطئها القياس، إلى حدود ألمانيا، كان ذلك أنسب.» فمن واجب ألمانيا إنقاذ الشعب الروسي من القادة البولشفيك. واستطرد يقول: «إذا تحدثنا عن الأرض في أوروبا اليوم، فلن يطرأ على بالنا، بصفة مبدئيةٍ غير روسيا وولاياتها الواقعة على الحدود. يبدو أن الحظ هنا يشير علينا، فبتسليم روسيا إلى البلشفية، نسلب الأمة الروسية ذلك الذكاء الذي سبق أن حقق وضمن بقاءها كدولة ... نضجت الإمبراطورية العظمى في الشرق ليصيبها الانهيار.»

كذلك قال هتلر، القوة هي تحقيق الغزو ... ما من شعبٍ على ظهر البسيطة يملك شيئًا مثل ياردة مربعة من الأرض أكثر من رغبة أعلى أو حق أسمى ... فحدود الدول يصنعها الإنسان ويغيرها الإنسان، فإذا نجحت أمة في الاستيلاء على قدر من الأرض لا حق

لها فيه، فلا يكون هذا سببًا في التزام أمة أعلى منها بأن تعترف به إلى الأبد. فعلى أكثر تقدير، يُبرهن هذا على قوة الغازي وضعف الأمم الأخرى، وفي هذه الحالة يكون الحق للقوة وحدها.

اعترف هتلر بأنه كانت هناك حلولٌ أخرى غير التوسع في رقعة الأرض لمعالجة الزيادة السريعة في عدد سكان ألمانيا. ومن هذه الحلول تحديد النسل، وهذا مرفوضٌ لأنه لا يتفق ونظرية الجنس السيد. وهناك حلٌّ آخر لجأ إليه حكام ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى، وهو التوسع في إنتاج المصنوعات للأسواق الخارجية، أي زيادة التصنيع. وهذا حلٌّ لا يعجب هتلر لأنه أراد أن تغذِّي ألمانيا نفسها بنفسها وتعتمد على الاكتفاء الذاتي. وزيادة على ذلك فقد لقي معارضة عنيفة لأنه يخلق طبقة عمال ريفيين ضخمة نتيجة للنظام الصناعي الضخم. والحل الثالث هو زيادة إنتاج الأرض الموجودة حاليًّا، ولكن هتلر اعترض على هذا بقوله إنه حل جزئيٌّ ومؤقت، واستنتج أن الحل أو العلاج الحقيقي الوحيد هو أن تستولي ألمانيا على أراضٍ جديدة وراء الحدود الحالية، وبذا يتمكَّن الكثير من الألمان أن يعيشوا عليها.

وتلخص الفقرة التالية ملخص أهداف هتلر البعيدة المدى فيما يختص بعدد سكان الأرض.

... لدينا الآن ٨٠ مليون ألماني في أوروبا! وهذه السياسة الخارجية لا تكون صحيحةً إلا إذا كان عدد السكان بعد حوالي مائة عام ٢٥٠ مليون ألماني في هذه القارة، ولا يعيشون محشورين كعمال مصانع من أجل بقية سكان العالم، وإنما كفلاحين وعمال يضمن كلٌّ منهم معاش الآخر بعمله.

وبالاختصار، تنبأ هتلر بأن سكان ألمانيا سيكونون أكثر من ثلاثة أضعاف سكانها الحاليين، في المائة سنة التالية، وأن كل شخص سيملك رقعة من الأرض ضعف ما كان يملك الفرد من قبل. كذلك راقت هتلر فكرة السكان ذوي الرقعة الفسيحة من الأرض لأسباب «جغرافية عسكرية»؛ إذ تكون أقل سهولة على العدو (ظلال ماكندر هوشوفر Shades of Mackinder Haushofer).

ولكي يحقق هتلر الأهداف التي رسمها طموحه المحلق عاليًا، اقترح استخدام ثلاث طرق؛ الدعاية والدبلوماسية والقوة ... لم يكشف المؤلف عن نفسه وعن خططه في أي موضعٍ من كتاب «كفاحي» أكثر مما كشف في مناقشته لطرق الدعاية التي اعتقد أنها

أحد أسلحة النازي الفظيعة والأعظم فعالية. وقال ماكس لرنر Max Lerner عن هتلر: «ربما كان أعظم أستاذ في الدعاية والتنظيم، في التاريخ الحديث.» ثم استطرد يقول: «ولكي نجد له ندًّا، يجب أن يعود المرء إلى لويالا Loyala واليسوعيين.» ولكي يصل هتلر بفن الدعاية إلى درجة الكمال، درس طرق الماركسيين في الدعاية، وتنظيم وطرق الكنيسة الكاثوليكية، والدعاية البريطانية للحرب العالمية الأولى، والإعلان الأمريكي، وعلم النفس لفرويد Freud، فكتب يقول:

«ليست وظيفة الدعاية ... أن تزن وتتأمل في حقوق مختلف الناس، ولكن لتؤكد الحق الوحيد الذي أعدته لتناقشه، وليس عملها القيام بدراسة موضوعية للحقيقة طالما كانت في صالح العدو، ثم تضعها أمام الجماهير بعدالة علميةٍ، وإنما عملها هو خدمة حقوقنا نحن دائمًا وبغير تردد. كان من الخطأ التام مناقشة جرائم الحرب من وجهة النظر التي لا يمكن أن تكون ألمانيا وحدها هي المسئولة عن اندلاع نار تلك الكارثة، ولكن من الصواب وضع عبء اللوم كله على أكتاف العدو، حتى إذا كان هذا لا يتفق والوقائع الحقيقية، كما حدث فعلًا ... ليس الغرض من الدعاية تزويد الشبان المتحمسين بما يلهبهم، ويقنعهم، وما أعنيه هو إقناع الجماهير.»

وأكد هتلر على أهمية التركيز والتكرار فقال:

«إن قبول الجماهير لما يسمعونه محدود جدًّا، وذكاءهم بسيط، ولكن قدرتهم على النسيان هائلةٌ، ونتيجة لهذه الحقائق يجب أن تكون كل الدعاية الفعالة قاصرةً على بضع نقط قليلة، ويجب أن تضرب على وتر هذه الصيحات باستمرار حتى يفهم الجمهور ما تريد منه أن يفهمه بصيحتك، وبمجرد الانتهاء من صيحتك هذه ومحاولة أن تكون متعدد النواحي، يخبو الأثر لأن الحشود لا تستطيع هضم المواد المقدمة إليها ولا أن تحتفظ بها. وبهذه الطريقة تضعف النتيجة حتى تنمحي تمامًا في النهاية.»

يتضح إيمان هتلر بالدعاية باعترافه أنه «يمكن بالدعاية اللبقة والقاطعة جعل الجمهور يؤمن بأن الفردوس هو الجحيم، وأن الجحيم هو الفردوس.» فيجب أن تلائم الدعاية، بأعظم طاقتها، أقل ذكاء محدود. «وتهدف دائمًا وأساسًا إلى العواطف، وقليلًا جدًّا إلى عقل الإنسان المناسب.» لا يجب على الدعاية أن «تعمل بالدقة العلمية، مثلما يجب على ملصقات الحوائط ألَّا تعمل بفن ... فلما كانت جموع الجماهير التي تصل إليها ضخمةً، وجب أن يكون مستوى ذكائهم منخفضًا.»

كذلك مما يفيد الدعاية بعض حيل سيكولوجية معينة. فمثلًا يجب ألَّا يحاول الإنسان، في الصباح، تحويل فكر الجمهور إلى وجهة نظر مخالفة؛ فالأنوار الخافتة

مفيدة، وفي المساء عندما يكون الناس متعبين وانخفضت قدرتهم على المقاومة، فإنه «يسهل نسبيًّا الحصول على استجابتهم العاطفية الكاملة.» وهناك أداة قوية أخرى وهي طلب اقتراح الجماهير عندما تكون لدى الرعاع فرصة الاشتراك في المواضيع والمظاهرات المتنوعة التي هي من خصائص النظام النازي، وكما عبَّر عن ذلك هتلر:

«… مظاهرات الجموع الضخمة التي يسير فيها مئات الألوف من الرجال لتثبت في الفرد الصغير الحقير روح الزهو بأنه رغم كونه دودة حقيرة، فهو جزء من تنين عملاقٍ تحرق أنفاسه النارية، في يوم ما، تلك الطبقة المتوسطة البغيضة، وبذا تحتفل دكتاتورية العمال بانتصارها النهائي.»

يبدي هتلر ثانية، أقصى احتقار للجموع، ثم ثالثة، وهكذا، في مثل هذه العبارات: «قطيع من الأغنام ذوات الرءوس الخاوية.» «نجسد الغباوة» وفي اعتقاده الراسخ، الذي يعبِّر عنه كثيرًا، بأن البشرية في حالة الجموع عبارة عن حشد كسلان جبان وأنثوي وعاطفي وغير جدير بالتفكير المعقول.

وآخر ما في طرق الدعاية الهتلرية، مبدأ الكذبة الكبرى، فيقول: «هذه النظرية صحيحة تمامًا، فإن عظم الكذبة عامل قوي يجعل الناس يصدقونها … فمع السذاجة البدائية للجموع تكون الكذبة العظمى أكثر تأثيرًا من الكذبة الصغيرة؛ لأنهم كثيرًا ما يكذبون في أمورٍ تافهة، ولكنهم يخجلون جدًّا من النطق بكذبة كبيرةٍ ضخمة. إذن فلن تشتبه الجموع الكبيرة في كذبةٍ جسيمة، ولا تستطيع تلك الجموع إطلاقًا أن تكون لها الوقاحة أن تفنِّد الحقيقة إلى مثل ذلك الحد.» وبالاختصار كلَّما عظمت الكذبة كانت أكثر تصديقًا لدى الجماهير.

وهناك مبدأ دعاية عظيم آخر وهو مبدأ الشيطان الفرد. لا تربك الجمهور بتقديم عددٍ كبيرٍ من الأعداء وتطلب منهم أن يمقتوهم في وقتٍ واحد. اقتصر على خصم واحد، وركز كراهية الجموع على هذا العدو. كان اليهود في عرف هتلر هم الأعداء العالميون. فبغض النظر عما إذا كان يتحدث ضد الديمقراطية أو الماركسية أو معاهدة فرساي أو فرنسا أو أي هدف آخر، فإنه يذكر اليهود دائمًا بالتآمر والتخطيط ويحاولون بعبقرية شيطانية أن يهدموا ألمانيا ويحطموا الثقافة الآرية. ومن أمثلة هذا، تلك الصيحة الهستيرية التي يقول فيها:

«… إن فرنسا أكبر عدو فظيع، وستبقى كذلك. فهذا الشعب الذي يتحول باطراد إلى زنوج، ويوطد روابطه بأهداف السيادة اليهودية على العالم، خطر داهم على بقاء

الجنس الأبيض في أوروبا؛ لأن التلوث بالدم الزنجي على نهر الراين في قلب أوروبا يحافظ على التعطش السادي للانتقام من هذا العدو الوراثي لشعبنا مثل حساب اليهود الشديد البرودة، وهكذا يبدأ في تلويث القارة الأوروبية في قلبها نفسه، ويجرِّد الجنس الأبيض من أسس بقاء الملكية عن طريق العدوى بالإنسانية الأقل.»

وقال هتلر: «سهل عمل الدعاية بإشراف الحكومة على التعليم؛ فالتعليم الكثير في الكتب خطأ، ويجب أن يحتل التعليم البدني والصحة البدنية المقام الأول. وثانيًا تنمية الشخصية ولا سيما بالفضائل العسكرية والطاعة والوفاء وقوة الإرادة وضبط النفس والقدرة على التضحية، والزهو بالمسئولية. وفي المقام الثالث يأتي النشاط الذهني. ويجب أن يكون تعليم البنات إعدادًا للأمومة.» كان هتلر يشمئز من فكرة تعليم الجميع ووصفه بأنه «سمٌّ مفكك ابتدعته الإباحية لتحطيمها هي نفسها، فلكل طبقة ولكل قسم من كل طبقة تعليم واحد ممكن.» وكان يعتقد أن جموع الشعب العظمى يجب أن تتمتع بنعمة الأمية.

يجب أن يكون تعليم المجموعة الأخيرة قاصرًا على «بث الأفكار العامة التي تنقش بالتكرار في قلوب الناس وذاكرتهم.» وليكن المبدأ الرائد هو أن الطفل ملك للدولة، والهدف الوحيد من التعليم هو تدريب آلات للدولة.

تتمشى آراء هتلر في التعليم الشعبي مع آرائه في الديمقراطية عمومًا. ففي كل مناسبة، كان يسخر من عدم صلاحية الدولة الديمقراطية:

«الديمقراطية الغربية اليوم مقدمة للماركسية التي بدونها لا يمكن التفكير فيها. إنها تمد الوباء العالمي بالمزرعة التي تستطيع جراثيمها أن تنتشر فيها، وقد خلق مبدأ البرلمان في أقصى صوره «شذوذًا من الزوائد والنار»، كما يحزننا أن نقول: تبدو النار لي على الفور أنها انطفأت ... لأن هناك شيئًا يجب ألَّا ننساه، وفي هذا أيضًا، لا يمكن أن تحمل الغالبية محل الفرد، ليس ممثلًا للغباء فحسب؛ بل وللجبن أيضًا، وما عاد مائة رأس خاوٍ تُكَوِّن رجلًا عاقلًا واحدًا، ولا يأتي قرار بطولي من مائة جبان.»

رأى هتلر أن الديمقراطية هي «النظرية الخدَّاعة التي سيلوِّح بها اليهود — أي النظرية القائلة بأن جميع الناس خلقوا متساوين، بينما أي مذهب ذي إجماع عالميٍّ وحقوق متساوية، ضار ومدمر.»

استبدل هتلر مبدأ الديمقراطية بالمبدأ الرائد، ركَّز على الجموع التي يتوقَّع منها الطاعة العمياء دون توجيه أسئلة.

كان الفوهرر فوق الجميع، يتحمَّل مسئولية كل ما يعمل وكل ما لم يستطع عمله.

وإذ رسم هتلر خطته لألمانيا وللعالم في كتابه «كفاحي»، تمسك به تمامًا إلا في انحراف واحد هام، هو الميثاق النازي السوفيتي لعام ١٩٣٩م. كان يشق عليه أن يستسيغ الاتفاق الروسي، كما يتضح من هذا الحديث في «كفاحي»:

«لا تنس أن حكام روسيا اليوم مجرمون عاديون ملوثون بالدماء. إنهم حثالة البشرية الذين حَبَتْهم الظروف فاكتسحوا دولة عظمى في ساعة مأساة، فقتلوا وأبادوا ألوفًا من روَّادها الأذكياء في وحشية متعطشة للدماء …»

بما أن هتلر أوضح نواياه بجلاء في «كفاحي» قبل أن يتبوَّأ مركز الحكم في ألمانيا، وقبل بدء الحرب العالمية الثانية بأكثر من عشر سنوات. فلماذا لم يهتم سياسيو العالم بتحذيراته؟ يرجع بعض تجاهلهم إيَّاه إلى جو الصلح العام والتفكير المفعم بالآمال والرغبة في السلم السائد وقتذاك بأي ثمنٍ. وهناك عامل آخر هو القصة المدهشة للرقابة الدولية. ولما رفض هتلر التصريح بترجمة كاملة لكتابه «كفاحي»، لم تتوفر باللغة الإنجليزية إلا طبعة معدَّلة حذف منها ما أراد حذفه، حتى سنة ١٩٣٩م. وفي تلك السنة والحرب وشيكة الاندلاع، قام ناشران أمريكيان أحدهما يحمل موافقة هتلر، والثاني لا يحمل أية موافقة، قاما بإصدار طبعتين لم تتدخل فيهما الرقابة. وفي فرنسا، في سنة ١٩٣٦م، عن طريق ناشر هتلر، أقام هتلر دعوى لنشر ترجمة كاملة دون تصريح منه، الذي فيه مخالفة لقوانين حقوق التأليف العالمية. كما نشرت في لندن طبعة مكثفة حذفت فيها معظم الفقرات المهاجمة لفرنسا، كما حذف فيها قسم يحبذ الحرب، وبذا خففت من حدة نغمة الكتاب ليصير زائفًا ومضللًا.

في تلك الأثناء كانت ملايين النسخ من كتاب «كفاحي» الكامل تباع وتتداول في ألمانيا نفسها. وقدمت نسخة منه هدية لكل عروسين جديدين، بينما كان المفروض في كل عضو بالحزب النازي وكل موظف مدني أن يكون لديه نسخة منه. والطبعات التي ظهرت في ألمانيا بعد ذلك حذفت الهجوم على روسيا وفرنسا لإخفاء أغراض هتلر وتهدئة الأعداء الأقوياء إلى حالة نوم.

إذا نظر إلى كتاب «كفاحي» من حيث الماضي، يقرر المؤرخون أن هتلر لم يفهم شيئًا في التاريخ. ويقول علماء الأجناس البشرية إن آراء هتلر في الأجناس هراء، ويقول علماء التربية إن آراءه ونظرياته عن التعليم ترجع كلها إلى العصور الوسطى، وهي في جملتها رجعية، ويحتجُّ علماء السياسة على مذاهبه الحكومية التسلطية وسوء تصوره

للديمقراطية، بينما يقرر خبراء الأدب أنه لا يعرف كيف يكتب فقرة أو ينظِّم بابًا. ولخص وايجرت Weigert هذا بقوله:

كان هتلر نصف المتعلم خليطًا من عدة تأثيرات؛ فن ماكيافيلي في إدارة شئون الدولة إدارة تتنافى مع الأخلاق، والقومية والرومانتيكية التصوفية لواجنر Wagner، والتطور العضوي لداروين، والتعصب الزائد لجنس بعينه لجوبينو Gobineau وهاوستون ستيوارت تشمبرلن Houston Stewart Chamberlain والمركب المسيحي لفيخت Fichte وهيجل Hegel، والزهو الحربي الطنان لتريتخك Treitechke وبرنهاردي Bernhardi، والتآمر المالي للنبيل البروسي المنبوذ ... أما هوشوفر فكان حلقة اتحاد بين النظريات والعمل ورغم كل هذه العيوب الواضحة، فإن كتاب «كفاحي» كما وصفه أحد النقاد اللاذعين واسمه هندريك وليم فان لون Hendrik Willen Van Loon.

«هو إحدى الوثائق التاريخية الخارقة للعصر كله، فيضم سذاجة جان جاك روسو، مع الغضب الجنوني لأحد أنبياء العهد القديم.» وأطلق عليه نورمان كزنز Norman Cousins: «هو أعظم كتب القرن العشرين تأثيرًا ... ولكل كلمة في «كفاحي» يجب أن يفقد ١٢٥ نفسًا ولكل صفحة منه ٤٧٠٠ نفس، ولكل باب أكثر من ١٢٠٠٠٠٠ نفس.» وبالطبع انبعثت قوته من كونه إنجيلًا سياسيًّا للشعب الألماني، وقاد سياسة الرايخ الثالث من سنة ١٩٣٣م حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

من سوء حظ العالم أن آراء هتلر لم تمت معه فما زال أتباعها كثيرين في ألمانيا، بينما استعارت الحكومات الشيوعية كثيرًا من تلك الآراء وما فتئت تستعملها على نطاق واسعٍ. وسيظل الدكتاتوريون في كل مكان يجدون مصدر مادة أولية لأغراضهم الشريرة في كتاب «كفاحي» بنفس الطريقة التي ظلوا في القرون الأربعة الماضية يعملون بآراء ماكيافيلي.

دنيا العلوم

الفصل الحادي عشر

الانقلاب السماوي: نيقولاوس كوبرنيكوس[1]

انقلاب في الأفلاك السماوية

منذ العصور البدائية والإنسان يدهش لمنظر الأجسام السماوية؛ الشمس والقمر والكواكب والنجوم وحركاتها الدائبة. ولم يكن شروق الشمس وغروبها، وتزايد رقعة القمر وتناقصها، وتعاقب الفصول وتقدم الكواكب وتأخرها، لم تكن هذه كلها حقائق ملحوظة؛ بل كانت لها أمور عديدة تؤثر عل البشر وعلى حياتهم اليومية. إذن فليس من الغريب أن تنشأ حول الظواهر السماوية أعدادٌ ضخمة من الأساطير والديانات.

وبتقدم الحضارة حاول الفلاسفة تفسير حركة الأجسام السماوية بمصطلحات معقولة. وأكثر قدامى العلماء والمفكرين تقدمًا فيما يختص بأمور علم الفلك؛ هم الأغارقة ابتداءً من فيثاغورث Pythagoras في القرن الخامس، وأريسطو Aristotle في القرن الرابع قبل الميلاد. وكان كلاوديوس بطليموس Claudius Ptolomy المصري الذي كان يعيش في الإسكندرية، بتنظيم وتبويب الدراسة الكلاسيكية الخاصة به وبالعصور السابقة في مجموعة من النظريات السهلة الفهم. فوضع النظام البطليموسي الذي أطلق عليه «الأعظم Almagest» والذي سيطر على عقول الناس لمدة حوالي ١٥٠٠ سنة، واعتبره العالم الفكرة الحقيقية عن الكون.

---

[1] Nicolaus Copernicus.

بُنيت نظرية بطليموس على فكرة أن الأرض كتلة ثابتة خاملة عديمة الحركة، تقع في وسط الكون وتدور حولها جميع الأجرام السماوية ومنها الشمس والنجوم الثابتة. كان الاعتقاد السائد آنذاك هو أن الأرض مركز مجموعةٍ من الكرات شدَّت إليها الكواكب شدًّا وثيقًا. أما النجوم فكانت مشدودةً إلى كرةٍ أخرى خارج هذه المجموعة، ويدور الجميع دورةً واحدة كل أربع وعشرين ساعة. فسرت هذه الأفكار المعقدة عن الكواكب، بالدوران حول محيط دائرة عظمى، بينما تدور كرات الكواكب في الاتجاه المضاد لدائرة النجوم، إلا أن هناك قوةً أعظم تجذبها. واعتبر زحل أبعد الكواكب عنَّا وأقربها إلى فضاء النجوم؛ ولذا يستغرق مدةً أطول لإتمام دورته، ولما كان القمر أقرب الكواكب إلى المركز، فإنه يتم دورته في أقصر وقت، ويصف روزين Rosen الفكرة البطليموسية في هذه العبارات:

«يقول المذهب المتوارث إن الكواكب التي تدور نحو الشرق في معظم الأوقات، تبطئ في دورانها بين وقتٍ وآخر حتى تقف تمامًا، ثم تعكس اتجاه دورانها مرة أخرى، وتستأنف رحلتها نحو الشرق، وتكرر دورات التغير بصفة لا نهائية.»

وهكذا كان الكون، حسب نظريته، فضاء مغلقًا يحدُّه غلاف كروي. ولم يكن هناك شيءٌ بعد ذلك الكون.

ساعد عاملان على القبول العام لنظريات بطليموس، كلاهما من تفكير الطبيعة البشرية؛ فأولًا: اعتمد هذا النظام على المظاهر الطبيعية، اعتمد على الأشياء كما يراها أيُّ شخصٍ بنظرة عابرة. وثانيًا: أشبعت هذه فضول الإنسان، فما أمتع أن يعتقد المرء أن الأرض مركز الكون، وأن الكواكب والنجوم تدور حولها، فيبدو أن الكون كله مصنوعٌ من أجل الإنسان.

بقي هذا النظام الجميل سليمًا في أساسه حتى مجيء العصر العظيم؛ عصر اليقظة الذهبية في أوروبا المسمى بالنهضة. وكان تحطيم ذلك النظام من عمل «نيقولاوس كوبرنيكوس» الكاهن والمصور والشاعر والطبيب، وهو واحد من «الرجال العالميين»، اشتهرت من أجله النهضة.

كانت فترة السبعين سنة لحياة كوبرنيكوس (١٤٧٣–١٥٤٣) من أعظم الفترات إثارة ومغامرة في تاريخ أوروبا؛ ففيها اكتشف كولمبوس قارات جديدة، وفيها أبحر ماجلان حول الأرض، وقام فاسكو دي جاما بأولى الرحلات البحرية إلى الهند. وأعلن مارتن لوثر Martin Luther إصلاحه البروتستانتي وخلق ميشيل أنجلو Michelangelo عالمًا جديدًا من الفن، ووضع باراكلسوس Paracelsus وفيساليوس Vesalius أساس التطبيب الحديث، وازدهر ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci «ذلك النابغة العالمي العظيم»

كمصور ونحاتٍ ومهندس ومعماري وعالم طبيعي وأستاذ في علم الأحياء وفيلسوف. يا له من عصرٍ مواتٍ لذهن ألمعيٍّ آخر هو كوبرنيكوس ليقدم للعالم نظامًا جديدًا للكون.

وُلد نيقولاوس كوبرنيكوس على شاطئ نهر الفستولا Vistula ببلدة تورون Torun في بولندة، وهي بلدة تابعة لرابطة التجارة Hanseatic League، وكان عمه لوكاس واتزلرود Lucas Watzelrode، الذي صار فيما بعد أسقفًا حاكمًا لمقاطعة إرميلاند Ermeland، ذا تأثيرٍ كبير في مستقبل حياته الأولى، بدا تعليم نيقولاوس طويلًا ومتنوعًا بالمدرسة الإعدادية في تورون، ثم في سنة ١٤٩١م بجامعة كراكاو Krakow. ذهب إلى هذا المعهد بناءً على شهرته كأحد المراكز الأوروبية الأولى للرياضيات والفلك. وبعد ذلك بخمس سنوات، سافر إلى إيطاليا ليكمل دراسته في بولونيا Bologna في جامعة من أقدم وأشهر الجامعات الأوروبية. فشغلت دراسة القانون الكنسي والفلك وقته. ثم أمضى سنةً في روما يُلقي المحاضرات في الرياضيات وعلم الفلك، ومكث حوالي خمس سنواتٍ في بادوا Padua وفيرارا Ferrara يدرس الطب وقانون الكنيسة، وبذا أتمَّ منهجه العلمي وتسلم الدكتوراه في القانون الكنسي من فيرارا سنة ١٥٠٣.

عُين كوبرنيكوس، بوساطة عمه، رئيسًا قانونيًّا في كنيسة فرونبورج Frauenburg حيث قضى السبع والثلاثين سنة الباقية من عمره بعد عودته من إيطاليا في سنة ١٥٠٦.

كانت واجبات كوبرنيكوس الكنسية متعددة النواحي فقام بدور طبيٍّ فعَّال بين زملائه بالكنيسة، وكذلك للشعب، وساعد في الدفاع عن مدينته في الحرب بين البولنديين والبروسيين والفرسان التيوتونيك Teutonic واشترك في مؤتمر الصلح الذي تبع ذلك، وقدم مشورته لإصلاح سك النقود والأوراق النقدية وأشرف على الأجزاء النائية من الدوقية. ولكي يرفه عن نفسه قام بالتصوير، وترجم الشعر الإغريقي إلى اللغة اللاتينية.

كان علم الفلك وقتئذٍ أحد الأنشطة الكثيرة التي مارسها كوبرنيكوس المتعدد الميول والمعلومات، ولكنه صار تدريجيًّا متعته الأولى بعد أن طوَّر آراءه عن الظواهر الفلكية — تلك الآراء التي من الجلي أنها جاءته منذ زمن مبكرٍ في حياته، وقواها عنده دراسته في كراكاو وفي إيطاليا — فقام بأبحاثه منفردًا في هدوء دون مساعدة أو استشارة أحد. اتخذ لنفسه مرصدًا من سور واقٍ مبنيٍّ حول الكنيسة.

كانت الأدوات الفلكية التي استطاع كوبرنيكوس الحصول عليها بدائية وغير دقيقة، باشر عمله ذاك قبل اختراع التلسكوب بحوالي قرن، فاستخدم لأغراض القياسات مزولة وجهاز ربعية (عبارة عن قطعةٍ خشبيةٍ ذات ثلاثة جوانب) صنعه بنفسه لقياس زوايا ارتفاع النجوم والكواكب، كما اتخذ أسطرلابًا من كرةٍ داخل حلقة عمودية وأخرى أفقية.

وعلاوة على ذلك، كان الجو غير ملائمٍ للأرصاد الفلكية؛ فمجاورته لبحر البلطيق والأنهار الموجودة هناك أحدثت الضباب والسحب وكانت الأيام والليالي الكاملة الصحو نادرةً. ورغم هذا، ظل كوبرنيكوس يعمل في كل فرصةٍ ممكنة، سنة بعد أخرى، في حساباته الفلكية.

كانت النظرية الثورية التي حاول كوبرنيكوس إثبات صحتها أو خطئها؛ مناقضة تمامًا للنظام البطليموسي الذي ظل مدة طويلة يحظى بالاحترام والتقدير. كانت تلك النظرية، باختصار، هي أن الأرض ليست ثابتة وإنما تدور حول محورها مرة في كل ٢٤ ساعة، وتدور حول الشمس مرة كل سنة. كانت تلك الفكرة غريبة على القرن السادس عشر حتى إن كوبرنيكوس لم يجرؤ على تقديمها إلا بعد اقتناعه تمامًا بأن لديه من المعلومات ما لا يمكن دحضه؛ ومن ثم مضت ثلاثون سنة قبل إظهار نظرية كوبرنيكوس إلى العالم.

والواقع أن بعض قدامى الفلكيين الإغريق اقترحوا أن عالمنا قد يكون عالمًا مركزه الشمس بدلًا من أن تكون الأرض مركز الكون. فمثلًا علل أريستارخوس Aristarchus (كوبرنيكوس القديم) في القرن الثالث قبل الميلاد، شروق الشمس وغروبها، بضرورة دوران الأرض حول محورها. غير أن هذا الفرض وأشباهه من فروض الفلكيين الآخرين ذوي الآراء المماثلة، قد نبذها أريسطو وبطليموس من أجل نظرية الكون الذي مركزه الأرض. وقد عرف كوبرنيكوس هذه النظريات المبكرة من قراءته للأدب الكلاسيكي، وربما أوحت إليه بإعادة فحص هذه المسألة، واعتقد كوبرنيكوس أن أريستارخوس، الذي عاش قبله بمدة ١٨٠٠ سنة، قدَّم تفسيرًا لحركات الأجسام السماوية أبسط كثيرًا مما في النظام البطليموسي المعقد.

ربما كتب كوبرنيكوس شرحًا عامًّا موجزًا لنظريته الجديدة في عصر مبكر قد يرجع إلى عام ١٥١٠م، وإذ كان عنوان ذلك المقال هو «التعليق الصغير Commentariolus»، فلم ينشر إبَّان حياته، غير أن عددًا من النسخ الخطية تداوله طلبة علم الفلك ولا تزال لدينا نسختان خطيَّتان، على الأقل، باقيتين إلى الآن. وأشار كوبرنيكوس في «التعليق الصغير» إلى أنه بدأ أبحاثه لما بدا له نظريات بطليموس عن الكون معقدة جدًّا وغير معقولةٍ على الإطلاق، ولم تقدِّم تفسيرًا مقبولًا للظواهر السماوية، والنتيجة الرئيسية التي توصل إليها كوبرنيكوس تقول: ليست الأرض مركز المجموعة الشمسية، ولكنها فقط مركز مدار القمر، وأن جميع الكواكب تدور حول الشمس. وقد كان ذلك «التعليق الصغير» مرحلة واضحة في تطور آراء ذلك الفلكي العظيم.

من المعلوم تمامًا، أن أروع مؤلف لكوبرنيكوس، وهو الذي ظل يعمل فيه جاهدًا مدة ثلاثين سنة، ما كان له أن يصل إلى المطبعة وبالتالي يُفقد، لولا جهود عالم ألماني شاب؛ ففي صيف عام ١٥٣٩م جاء إلى فراونبورج لزيارة كوبرنيكوس أستاذ للرياضيات من جامعة وتنبرج، ويبلغ من العمر خمسًا وعشرين سنة، واسمه جورج يواقيم رتيكوس George Joachim Rheticus فإذ جذبته شهرة كوبرنيكوس المطردة النمو، جاء ليتحقق أولًا من القدر الحقيقي لسمعته. كان يتوقع البقاء معه لبضعة أسابيع فحسب، ولكن كوبرنيكوس رحَّب به ترحيبًا حارًّا جعله يمكث معه أكثر من سنتين. اقتنع رتيكوس بأن مضيفه نابغة من الطراز الأول. ظل يدرس مخطوطات كوبرنيكوس لمدة ثلاثة أشهر، وناقشها مع مؤلفها. ثم كتب رتيكوس تقريرًا عن آراء كوبرنيكوس وأرسله في صورة خطابٍ إلى أستاذه السابق يوحنا سكونر Johann Schöner في نورمبرج Nuremberg فطبع ذلك الخطاب في دانزج Danzig سنة ١٥٤٠م باسم «التقرير الأول Narratio Prema». كان ذلك «التقرير الأول» لكاتبه رتيكوس أولَ حقيقةٍ نُشرت عن نظريات العالم الفلكي البولندي التي هزت العالم. والواقع أن ذلك الكتيب تناول بالتفصيل جزءًا فقط من نظرية كوبرنيكوس، وهو الجزء الخاص بحركات الأرض، وتوقع رتيكوس أن يتبع تقريره الأول بتقارير أخرى، إلا أنه لم تكن ثمة حاجة إطلاقًا إلى هذه التقارير، وأبدى إعجابه الذي كاد يبلغ حد التملق بالثناء الحار الذي أضفاه طوال نصوص ذلك المقال على «سيده الدكتور».

إلى هذا الحد تردد كوبرنيكوس تمامًا في نشر مؤلفه الكامل. كان من عادته الوصول بأبحاثه إلى درجة الكمال. وشعر بضرورة التأكد وإعادة التأكد من كل ملاحظة. وتمدُّنا النسخة الخطية الأصلية التي اكتشفت في براغ Prague في منتصف القرن التاسع عشر بعد ضياعها مدة ثلاثمائة عام، تمدنا بدليل على ست مراجعات مفصلة، وبالإضافة إلى هذه الترددات، قد يكون كوبرنيكوس قد عاقه عدم موافقة الكنيسة القوى، وجعل الإصلاح البروتستانتي والنضوج للنهضة، الدوائر الدينية تشك في نظرية دوران الأرض، كما تشك في أية آراء تسبب الابتعاد عن التعاليم الأصلية. ولما كان كوبرنيكوس رجل كنيسة مؤمنًا، فلم يرضَ القيام بدور الهرطوقي أو بدور الشهيد.

وإذ قوبل «التقرير الأول» بالترحيب، وتوسَّل رتيكوس وغيره وألحُّوا على كوبرنيكوس كي يسمح بالنشر الكامل، رضخ هذا أخيرًا وعهد بالنسخة الخطية إلى رتيكوس ليحملها إلى نورمبرج ويشرف على طباعتها، بيد أنه قبل أن يتم ذلك العمل عُيِّن رتيكوس أستاذًا

بجامعة ليبزيج Leipzig كاهنًا لوثريًّا في تلك المدينة فعهد بدوره بتلك المسئولية إلى أندرياس أوسلاندر Andreas Oslander.

من الجلي أن القلق ساور أوسلاندر من أجل الآراء المتطرفة التي كتبها كوبرنيكوس. فحذف مقدمة كوبرنيكوس للجزء الأول، بغير استئذانٍ، واستبدلها بمقدمة من عنده دون أن يذكر اسمه، وإنما ذكر فقط أن الكتاب يضم مجرد فروض تهم علماء الفلك، وأنه لم يكن من الضروري أو حقيقيًّا أو محتملًا أن الأرض تدور، أو بمعنى آخر، أنه لا يلزم أن يؤخذ ذلك الكتاب مأخذ الجد. لا شك في أن أوسلاندر كان حسن النية في محاولته تحاشي النقد العدائي، وكما ذكر ميتسوا Mizwa: «ربما أن أوسلاندر قد أسدى، عن غير قصد، خدمة جليلة لكوبرنيكوس، أعظم مما كان يُدرك، للمحافظة على ذلك المؤلف الهام، وبسبب هذه المقدمة الزائفة والمثبطة للعزائم والمكتوبة بمهارة كما لو كانت باسم المؤلف إلى قارئ نظريات ذلك المؤلف، غفلت الكنيسة عن الأهمية الثورية لذلك «الانقلاب»، ولم تُدرجه في القائمة حتى سنة ١٦١٦م.»

وقبل الانتهاء من الطباعة، أصيب كوبرنيكوس بصدمة شديدة. فيقول مصدر موثوق به: في إحدى لحظات التاريخ الدرامية، قدم رسول إلى فراونبرج يحمل من نورمبرج النسخة الأولى من أروع مؤلفات كوبرنيكوس، ووضعها بين يديه قبل أن يلفظ آخر أنفاسه ببضع ساعاتٍ. كان ذلك في الرابع والعشرين من مايو سنة ١٥٤٣م، وكان عنوان الكتاب «فيما يختصُّ بانقلاب الكرات السماوية De Revolutionibus Orbium Coetestium» وكبقية المؤلفات العلمية في ذلك الوقت، كان مكتوبًا باللغة اللاتينية.

أبدى كوبرنيكوس حكمة وحسن سياسة عندما أهدى ذلك المؤلَّف إلى البابا بولس الثالث. ويتضح من أسلوب الإهداء أن كوبرنيكوس كان يتوقَّع بعض الصعاب:

«يحقُّ لي أن أعتقد تمامًا، أيها الأب الكلي القداسة، أن بعض الناس عندما يسمعون عن نسبتي الحركة للأرض، في كتبي هذه، سيقررون على الفور وجوب نبذ مثل هذا الرأي. والآن لا تسرني كثيرًا نظرياتي، أنا نفسي، فلا أهتم بحكم الآخرين عليها، وبناءً على هذا، عندما بدأت أفكِّر في أولئك الأشخاص المؤمنين بثبات الأرض لأنه مدعمٌ بآراء عدة قرون. وسيقولون عندما أقرر أن الأرض تتحرك، إنني ترددت لمدة طويلة، هل أنشر ما كتبته للبرهنة على حركتها، أو أحذو حذو أتباع فيثاغورث الذين دأبوا على الإفضاء بأسرارهم الفلسفية لأقاربهم وأصدقائهم شفويًّا. وعندما تأمَّلت في هذا كثيرًا، كدت أضع هذا العمل الكامل جانبًا بسبب الازدراء الذي يحقُّ لي أن أتوقعه لكون نظريتي جديدةً وعلى نقيض ما يقبله العقل.

ومع ذلك، حثني أصدقائي على ترك ما اعتزمته، ونصحوني بأنه يجب عليَّ أن أنشر كتابي القابع في حوزتي مختفيًا، ليس لتسع سنين فحسب، بل ولأربعة أمثال هذه المدة. وطلب مني عدد غير قليل من الرجال المبرزين في العلم أن أعمل نفس الشيء الذي نصحني به الآخرون، وأخبروني بأنه ينبغي لي ألَّا أهتم بقلقي وألا أمنع مؤلَّفي عن الظهور أكثر من ذلك، وإنما أنشره ليكون في خدمة علماء الرياضة.

لا أشك في أن الماهرين والعلماء من الناس سيتفقون معي إذا رغبوا تمامًا في فَهْم واستيعاب البراهين التي أقدمها في ذلك الكتاب أمامنا. ومع ذلك، فلكي يعرف العلماء وغير العلماء أنني لا أهاب حكم أي شخص، رأيت إهداء أعمالي الليلية هذه لقداستكم وليس لأي فرد آخر؛ لأنكم، حتى وأنتم في ركنكم القصي من الأرض، حيث أعيش أنا، معروفون بأنكم أعظم المولعين بجميع فروع العلوم والرياضيات، وبذا يمكنكم عن طريق مركزكم وحكمكم دحض لدغات الوشاة، رغم أن المثل يقول إنه لا علاج ضد لدغة الواشي. وقد يحدث أيضًا أن يدَّعي بعض الثرثارين الذين يجهلون الرياضيات، بأن لهم الحق في إصدار حكمٍ على مؤلفي، مستندين إلى فقرةٍ معينة في الكتاب المقدس يُؤَولونها حسب أهوائهم. فإذا تجاسر أمثال هؤلاء على نقد مشروعي والنيل منه، فلن أكترث لهم، وأنظر إلى حكمهم على أنه تهور جدير بالاحتقار.»

لخص كوبرنيكوس فكرته عن الكون في هذه العبارات:

«أبعد الأجرام السماوية جميعًا دائرة النجوم الثابتة المحتوية على جميع الأشياء، ولهذا السبب نفسه لا تتحرك، وهي في الحقيقة إطار الكون الذي تتعلَّق به حركة ومركز جميع النجوم الأخرى، ورغم أن بعض الناس يظنونه يتحرك بطريقة ما، فإننا نذكر سببًا آخر لكونه يبدو كذلك في نظريتنا عن حركة الأرض؛ فمن الأجسام المتحركة، يأتي أولًا زحل الذي يتم دورته في ثلاثين سنة ثم المريخ الذي يتم دورته في سنتين، والرابعة في الترتيب وتكمل دورتها في سنة واحدة هي الأرض ذات الفلك القمري حولها، وتأتي الزهرة في المرتبة الخامسة وتتم دورتها في تسعة شهور ثم عطارد في المركز السادس يدور في الفضاء في ثمانين يومًا، وتقع الشمس في وسط الجميع، تلك التي تضع المشعل في هذا المعبد البالغ الجمال في مكانٍ لا يعادله أي مكان آخر إذ تستطيع منه أن تضيء على الجميع في وقتٍ واحد … إذن نجد في النظام العجيب تماثلًا رائعًا في الكون ونسبة محددة للتناسق في حركة هذه الأفلاك ومداها بطريقةٍ لا يمكن الحصول عليها بأية طريقة أخرى.»

تتلخص محتويات مؤلف كوبرنيكوس «الانقلاب في الأفلاك السماوية» في خطة تطور نظرية هذه الأفلاك. فيبدأ بمقدمة الإهداء إلى البابا بولس الثالث؛ فالمقدمة الزائفة التي كتبها أوسلاندر، وبعدهما ينقسم هذا المؤلف إلى ستة أجزاء أو أقسام رئيسية، ينقسم كل منها بدوره إلى أبواب. فيضم الجزء الأول آراء كوبرنيكوس عن الكون والأدلة المدعمة لنظريته القائلة بأن الشمس هي مركز الكون، وفكرة دوران الأرض حول الشمس كبقية الكواكب الأخرى، ومناقشة الفصول. ويتكوَّن من عدة أبواب. وفي نهاية هذا الجزء كتاب علميٌّ عن حساب المثلثات. استخدم نظريات هذا الفرع من الرياضيات في الأجزاء التالية من مؤلفه.

ويتناول الجزء الثاني حركات الأجرام السماوية محسوبة رياضيًّا، ويختتمه بقائمة للنجوم تبين موقع كل منها في السماء وهي قائمة أخذ معظمها من مؤلف بطليموس مع بعض التصحيحات.

وتضم الأجزاء الأربعة الباقية شرحًا مفصلًا لحركات الأرض والقمر والكواكب، ويصحب الشرح في كل حالة أشكال هندسية تبين المسار الذي تتبعه الكرات على أساس حسابات كوبرنيكوس.

يقول أحد الأسباب المقدمة ضد نظرية الأرض المتحركة، وهو ما ذكره بطليموس، أن الأرض يجب أن تبقى ثابتة وإلا فإن أي جسم سابح في الفضاء يبتعد عن الأرض وهي تتحرك، وأي جسم يُقذف في الهواء ينزل مسافة بعيدة جدًّا إلى الغرب، وأقوى هذه الأسباب جميعًا أنه إذا كانت الأرض تتحرك بهذه السرعة البالغة فإنها سرعان ما تتفتت إلى أجزاء صغيرة تقذف في الفضاء. وقبل اكتشاف جاليليو Galileo لنظريات الميكانيكا الخاصة بذلك، وقانون الجاذبية لنيوتن، كان من الصعب دحض هذه الأدلة البطليموسية. وقد أجاب كوبرنيكوس عليها باقتراحه أن الهواء المحيط بالأرض يدور معها، وأنه من المعقول أكثر افتراض أن الأرض هي التي تدور وليس الكون كله؛ لأنه إذا كانت الأرض لا تدور وليس الكون كله. لأنه إذا كانت الأرض لا تدور فإن السماء هي التي تدور لإحداث الليل والنهار، ودعم الدفاع عن قوله هذا بتأمل فلسفيٍّ: ليست الطبيعة مما يحطم نفسه بنفسه، ولم يخلق الله الكون لمجرد أن يحطم هذا الكون نفسه بنفسه.

يعتقد كوبرنيكوس أن الشمس لا تتحرك وأنها إيجابية وثابتة وسط الكواكب الدوارة، وهذا الاعتقاد يشبه فكرة بطليموس عن الأرض. اعتقد كوبرنيكوس أن الوظيفة الوحيدة للشمس هي إمداد الكون بالضوء والحرارة، وأن الكون محدود جدًّا. وتقول تعاليم

بطليموس أنه لا يوجد فضاء خارج نطاق النجوم، ومن المحتمل أن الفضاء اللانهائي لم يكن معروفًا لدى كوبرنيكوس، كما لم يكن معروفًا لبطليموس قبله بمدة ١٤٠٠ سنة، وكذلك لم يستخلص من نظام بطليموس عن الفلك المحيط بأفلاك الأجسام السماوية. كان هناك مركز لكل فلك من الأفلاك المختلفة، وأن الشمس لم تكن بالضبط في مركز أفلاك الكواكب، وقد صحح علماء الفلك اللاحقون هذه الظواهر في نظام كوبرنيكوس.

كان قبول نظام كوبرنيكوس بطيئًا لدى كلٍّ من العلماء وعامة الشعب. كانت هناك آراء معاصرة، مع بعض الاستثناءات تُعارض بعنفٍ ذلك النظام. فتبعًا لإحدى القصص، هاجم طلبة الجامعة المكان الذي كان كتاب كوبرنيكوس يُطبع فيه، وحاولوا تحطيم المطبعة وتمزيق النسخة الخطية الأصلية، إلا أن عمَّال المطبعة وضعوا حاجزًا بينهم وبين المهاجمين حتى أتموا العمل، وقامت فرقة من الممثلين الجائلين بإخراج مسرحة هزلية للسخرية من كوبرنيكوس، مصورين ذلك الفلكي يبيع نفسه للشيطان.

أما ردُّ الفعل لدى المنظمات الكنسية فكان أكثر جدية وأشد قوة؛ فهذه النظريات الجديدة تناقض المعتقدات الفلسفية والدينية القائمة في العصور الوسطى، فلو كانت نظريات كوبرنيكوس صحيحةً لما شغل الإنسان مكانًا مركزيًّا في العالم، ولانتقل هو من المكان الواقف عليه، ولانتقل بيته إلى واحد من الكواكب العديدة.

ولكن، بما أن مؤلف كوبرنيكوس كان مليئًا بأشياء أخرى، وبسبب مقدمة أوسلاندر المضللة لم تتخذ الكنيسة الكاثوليكية إجراءً فوريًّا ضده، غير أن قادة الإصلاح كانوا أقل إعاقة، فقام مارتن لوثر Martin Luther بنقد كوبرنيكوس بعنف في كثير من المناسبات، وكان يشير إليه بقوله: «الفلكي الجديد الذي يريد البرهنة على أن الأرض هي التي تدور وليست السماء والشمس والقمر، كما لو أن شخصًا ما يجلس في عربة متحركة أو في سفينة سائرة، ويظن نفسه ثابتًا والأرض والأشجار هي التي تتحرك مارة به، ولكن هذه هي الحال في هذه الأيام فكل شخصٍ يريد أن يكون بارعًا يجب عليه ابتكار شيء من عندياته يعتبره خير شيء لأنه هو الذي ابتكره! يريد ذلك الأحمق أن يقلب علوم الفلك كلها رأسًا على عقب. ولكن، كما يقرر الكتاب المقدس، أن الشمس نفسها وليست الأرض هي التي أمَرَها يوشع بأن تقف.» وكذلك سخر ميلانكثون Melanchthon تلميذ لوثر المخلص، من كوبرنيكوس بقوله: «إنه أوقف الشمس وجعل الأرض تتحرك.»

وأكد جون كلفين John Calvin، مستشهدًا بالمزمور ٩٣: «كذلك ثبتت المسكونة لا تتزعزع.» وسأل باحتقار: «من ذا الذي يجرؤ على وضع سلطة كوبرنيكوس فوق سلطان الروح القدس؟»

لم تتخذ الكنيسة الكاثوليكية إجراءات حاسمة ضد مؤلف كوبرنيكوس حتى سنة ١٦١٥م، وكان كل ما عملته هو الانتقام من أنصار نظريات كوبرنيكوس أمثال: جاليليو وبرونو Bruno وكان التصرف في مذهب كوبرنيكوس على النحو التالي:

«الاقتراح الأول القائل بأن الشمس هي المركز وأنها لا تدور حول الأرض، حماقة وسخافة وزيف في علم اللاهوت، وهرطقة لأنه يناقض على طول الخط ما جاء في الكتاب المقدس. وأما الاقتراح الثاني القائل إن الأرض تدور حول الشمس وليست في المركز، فسخيف وزائف فلسفيًّا، ومن الناحية اللاهوتية يعارض، على الأقل، العقيدة الحقيقية.»

وفي السنة التالية ١٦١٦م، وضع مؤلف كوبرنيكوس في قائمة الكتب المحرمة، «حتى يصحح»، وفي الوقت نفسه، أدينت «جميع الكتابات التي تؤيد حركة الأرض». فظل كوبرنيكوس في القائمة السوداء لمدة تزيد على القرنين. وأخيرًا أزيلت تلك اللعنة في سنة ١٨٣٥م.

منع المصير الذي لقيه جاليليو وبرونو، غيرهما من اعتناق نظريات كوبرنيكوس، وقد ذهب جوردانو برونو Giordano Bruno إلى أبعد من الآخرين إذ إن النظرية القائلة بأن الفضاء غير محدود، وبأن الشمس وكواكبها ليست سوى واحدة من عدة مجموعات مشابهة. واقترح، زيادة على ذلك، أنه قد يكون هناك عوالم مسكونة أخرى تضم مخلوقات عاقلة تمتاز عنَّا، فحوكم برونو على مثل هذا التجديف أمام محكمة التفتيش الديني وأُدين فأحرق مربوطًا إلى عمود في فبراير سنة ١٦٠٠م. أما الحكم الذي نزل بالعالم الفلكي الإيطالي جاليليو فكان أخف من ذلك، فقد مثل أمام محكمة التفتيش الديني في سنة ١٦٣٢م، فهددته بالتعذيب والقتل وأجبرته على أن يجثوا على ركبتيه ويدحض جميع معتقداته ونظريات كوبرنيكوس، وحُكم عليه بالسجن بقية أيام حياته.

حذا الفلاسفة والعلماء حذو اللاهوتيين الكاثوليك والبروتستانت في ترددهم لقبول النظرية الكوبرنيكية. فمثلًا حاول أحد مؤسسي الطرق العلمية الحديثة، ويدعى فرنسيس باكون Francis Bacon دحض فكرة دوران الأرض حول الشمس في فلك وهكذا ظلت سيطرة أريسطو وبطليموس على الجامعات الأوروبية قائمة لم تتكسر لمدة طويلة بعد نشر كتاب «الانقلاب في الأفلاك السماوية».

والواقع أنه، كما ذكر ستبنز Stebbins: «كان قبول نظرية كوبرنيكوس بطيئًا في جميع الدول؛ ففي أمريكا كانوا يدرسون النظريتين البطليموسية والكوبرنيكية في وقت واحد، في جامعتي هارفارد Harvard وييل Yale.»

ومع ذلك، شيئًا فشيئًا أخذت نظرية كوبرنيكوس تحظى بقبول محتم، واستمرَّت الأبحاث على يد العلماء الغيورين أمثال جوردانو برونو وتيكو براهي Tycho Brahe ويوحنا كبلر وجاليليو جاليلي Galileo Galilei وإسحاق نيوتن، إبان عشرات السنين التالية. فكوَّنوا هرمًا من البراهين التي لا تقبل الدحض أو الجدل. وحذفوا عيوب النظرية الكوبرنيكية بناءً على الأبحاث الحديثة لهؤلاء وغيرهم من الباحثين، وساعدهم على ذلك تحسين آلات الرصد إلى درجة الكمال، وأنه كان بوسع كل باحث أن يبني على أبحاث سابقيه.

أعظم عالم فلكيٍّ جاء بعد كوبرنيكوس مباشرة هو العالم الدانمركي تيكو براهي. لم يزد تيكو شيئًا على نظرية دوران الأرض حول الشمس، ولكنه استطاع بواسطة الآلات الجيدة التي زوده بها ملك الدانمرك؛ القيام بأرصاد وقياسات فلكية أفضل بكثير مما قام به كوبرنيكوس. وعلى أساس هذه المعلومات أمكنه مساعدة العالم الألماني يوحنا كبلر بعد موت تيكو، على أن يصوغ قوانينه الثلاثة الشهيرة: (أ) إن الكواكب تسير في أفلاك إهليلجية وليست دوائر، وإن الشمس موجودة في بؤرة واحدة. (ب) بما أن الأرض والكواكب الأخرى تدور حول الشمس في أفلاك إهليلجية، فإنها لا تدور بسرعة منتظمة، ولكن بطريقة أن سرعة دورانها تزيد عندما تكون أقرب إلى الشمس. (ج) يتناسب بعد الكواكب عن الشمس مع مُدَد دورانها حول الشمس.

كان جاليليو أولَ راصدٍ أمدَّ علم الفلك بالتلسكوب، وقد أثبت كثير من اكتشافاته التلسكوبية صحة ما وجده كوبرنيكوس. قدم جاليليو أساسًا علميًّا عندما قدم المبادئ الأساسية لعلم الديناميكا، أو علم الحركة. وقدم السير إسحاق نيوتن البراهين القاطعة على صحة نظرية كوبرنيكوس باكتشافِه قانون الجاذبية وصياغته للقوانين التي تتحرك بمقتضاها الكواكب. وأميط اللثام عن بعض غوامض الكون الباقية بواسطة نظرية أينشتين Einstein عن النسبية التي ظهرت في القرن العشرين.

وعلى ضوء التعديلات الكثيرة التي قام بها العلماء في القرون التالية، نشأ هذا السؤال المعقول والمطروح كثيرًا: هل نظرية كوبرنيكوس صحيحة؟ لسنا ننكر أن كوبرنيكوس ترك نظرية غير كاملة وغير دقيقةٍ في عدة نقاط؛ فقد أثبت العلماء خطأ فكرته عن دوران الأجرام السماوية في فلك دائريٍّ تمامًا؛ إذ إنها تدور في أفلاك إهليلجية. وقد نظر كوبرنيكوس إلى الكون على أنه محدود جدًّا على نقيض النظرية الحديثة القائلة بوجود عدد غير محدودٍ من المجموعات الشمسية. وكذلك في التفاصيل الأخرى، تختلف النظريات التي قدَّمها كوبرنيكوس منذ أكثر من أربعة قرون خلت، تختلف عن معارفنا

الحاضرة اليوم، ولكن في أساسها — وهو أن الشمس مركز مجموعات الكواكب — اكتشف كوبرنيكوس حقيقة أساسية وقدم أساسًا لعلم الفلك الحديث.

رسخ إلى الأبد مركز كوبرنيكوس في تاريخ العلوم ويخوله نفوذه على معاصريه وعلى جميع الفكر اللاحق مكانة ممتازة. وكما كتب جوتيه Goethe:

«لم يُحدث أي اكتشاف أو رأي، من جميع الاكتشافات والآراء، أثرًا على الروح البشرية أعظم مما أحدثَتْه نظرية كوبرنيكوس. من النادر أن الناس كانوا سيعرفون أن العالم مستدير وكامل الاستدارة في حد ذاته إذا طلب من هذا العالم أن يتنازل عن كونه مركز الكون … ربما لم يُطلب من البشرية شيء أعظم من هذا — لأنه بهذا الاعتراف اختفت أمورٌ كثيرة في الضباب والدخان! إلى أي شيء صارت جنتنا، عالمنا، عالم البرابرة والتقوى والشعر، دليل المشاعر، اتهام عقيدة شاعرية ودينية؟ لا عجب في أن معاصريه لم يرغبوا في أن يتركوا كل هذا يمر، وقاموا بكل مقاومةٍ ممكنة لمذهب خوَّل لكل المهتدين به حرية الرأي وعظمة التفكير اللتين لم تعرفا حتى ذلك الوقت، والحقيقة أنه لم يحلم بهما قط.»

وأخيرًا، فلنتأمل حكم ثلاثة من مشاهير العلماء الأمريكيين الموجودين على قيد الحياة؛ فقد علق فانيفار بوش Vannevar Bush بقوله: «خلق نشر مؤلف كوبرنيكوس الرائع … نقطة تحول عظيمة الأهمية لتأثيره على كل ناحية من نواحي الفكر البشري. قدَّم مثلًا بارزًا لتأثير الحقيقة العلمية لتحرير ذهن الإنسان وجلاء بصيرته للغزوات المستقبلة للجهل والتخاذل.» وأكد هارولد ك. أوري Harold C. Urey الفائز بجائزة نوبل، قائلًا: «يخفق كل بيان عندما يصف مؤلف نيقولاوس كوبرنيكوس. لقد حطم فكرة عن المجموعة الشمسية ظلت قائمةً مدة ألف عام وقدم فكرة مخالفةً لها تمامًا، عن نسبة الكواكب إلى الشمس. وبهذا العمل كان أول من قدَّم الطريقة الحديثة كلها للفكر العلمي، وعدَّل تفكيرنا عن جميع نواحي الحياة البشرية.»

وأخيرًا، هاك رأي العالم الفلكي المبرز هارلان تروستاتسون Harlan True Stetson:

«من المحير دائمًا دراسة القائمة الطويلة لمشاهير الرجال الحقيقيين في تاريخ العالم، الذين أسهموا في تقديم العلوم، ثم تحديد عددٍ قليلٍ منهم على أنهم المبرزون المتفوقون. ومع ذلك، فلو طلب منِّي اختيار ثلاثة أسماء منهم، لَقلت في غير ما تردُّد طويل، كوبرنيكوس ونيوتن وداروين. فيشترك هؤلاء الثلاثة في خصائص تجعلهم غير منفصلين في مجال انتصار التقدم. وهذه الخصائص هي الخيال والجرأة والعبقرية وطرافة إظهار التفهم الخارق للأفكار. وبالنظر إلى جميع الاعتبارات لاختيار أعظم هؤلاء الثلاثة، أعتقد أن

أكاليل الغار يجب أن تكون من نصيب كوبرنيكوس؛ لأنه هو الذي وضع أسس علم الفلك الحديث التي بدونها ما كان لنيوتن أن يبني قانونه عن الجاذبية، وهو الذي فتح الأبواب لنوع من التفكير الثوري يتحدى المبدأ الذي يجب أن يأخذ مكانه قبل أن يثبت مذهب النشوء قدمه في تفكيرنا.»

الفصل الثاني عشر

فجر الطب العلمي: وليام هارفي[1]

حركة القلب De Motu Cordis

لم تتقدَّم علوم الأحياء وأبحاثها في أوائل القرن السابع عشر إلا قليلًا عن دراسة علم الفلك قبل كوبرنيكوس. وما زال الأطباء ومدارس الطب يمارسون ويعلِّمون نظريات التشريح ووظائف الأعضاء الخاصة بالقلب والشرايين والأوردة والدم التي تلقَّوها عن الطبيب الإغريقي الأسيوي العظيم جالين Galen الذي عاش في القرن الثاني.

لم تحدث إضافات هامة لمدة تزيد على الألف سنة إلى معارف الإنسان عن الدورة الدموية ووظائف القلب، كان أريسطو يعلم أن الدم ينشأ في الكبد ومنه يذهب إلى القلب، ثم خلال الجسم إلى الأوردة، كان يعتقد أن القلب هو أيضًا مصدر حرارة الجسم ومقر الذكاء. واعتقد إرازيستراتوس Erasistratus خريج مدرسة الإسكندرية أن الشرايين تحمل نوعًا هادئًا من الهواء أو الروح. فصحَّح جالين هذه الفكرة إذ اكتشف أن الشرايين تحمل دمًا وليس هواء. غير أنه لعدة قرون بعد عصره، كان الأطباء مقتنعين بأن روحًا أو نحوه يلعب دورًا في جهاز الدم، وربما كان ذلك لإنعاش القلب.

لم يجرُؤ على مناقشة السابقات والمعتقدات الموروثة عن القدماء سوى أعظم العلماء جرأةً. كانوا يعتبرون ما كتبه جالين من أصلٍ مقدس — لا يمكن أن يتطرَّق إليه الجدل أو الشك. وتبعًا لجالين أيضًا، كان الكبد مركز الجهاز الدموي. فقال إن الطعام المهضوم

---

[1] William Harvey.

يُحمل إلى الكبد حيث يتحول إلى دم مع إضافة «روح طبيعي». وإن الدم يسير في الجسم إلى الأمام وإلى الخلف عن طريق كلٍّ من الأوردة والشرايين كما يفعل المد والجزر في البحر. يختلف الدم الشرياني الآتي من أحد جوانب القلب مع الدم الوريدي من الجانب الآخر خلال مسام دقيقة.

وعلى مر القرون، أُضيفَت إلى تلك الحقائق الطبيعية كثيرٌ من الخرافات عن الدم. كان للدم صفةٌ مقدسة أكثر من أي جزءٍ آخر في الجسم كما يتضح من استخدامِه في الذبائح الدينية، وسكب الدم على مذابح الآلهة.

عندما جاء عام ١٦٠٠م كان التغير في الجو قد عمَّ كل مكان. لم تعمل النهضة في أوروبا على إحياء الأدب فحسب، بل وشملت إيقاظًا ذهنيًّا أثَّر على العلوم الطبيعية، كان ذلك العصر عصر جاليليو وكبلر وهارفي وباكون وديكارت Decartes. وفي إيطاليا قبل ذلك بخمسين سنة، أثبت أندرياس فيساليوس Andres Vesalius عدم وجود المسام التي وصفها جالين. ولم تكن هناك أيةُ علاقةٍ مباشرة بين حجرتي القلب. وفي حوالي نفس الوقت، أبدى سرفيتوس Servetus الذي أحرقه جون كالفين John Calvin فيما بعد، أبدى اعتقاده بأن الدم يدور خلال الرئتين، ولكنه لم يعترف بأن القلب عضوٌ ضاخ. وكذلك اقترح ريالدو كولومبو Realdo Colombo، أستاذ التشريح في روما، فكرة الدورة الدموية في الرئتين. وفي سنة ١٦٠٣م زود فابريكيوس البارواني Fabricius of Padua، العلم بحلقة أخرى عندما اكتشف أن للأوردة صمامات، ولو أنه لم يفهم الغرض منها، بل استنتج فقط أنها كانت لمجرد العمل على بطء سير الدم إلى الأطراف.

وهكذا كان لهؤلاء ولنفوس جريئة أخرى أن تتهوَّر وتلقي شكًّا على العقيدة القديمة التي عرقلت التقدم الطبي خلال العصور الوسطى. ومن ناحية أخرى لم يستطع أحد الوصول إلى الحقيقة الكاملة؛ فأسهم كل واحد بقدر كبير نحو كشف اللثام عن الدورة الدموية ووظائف القلب، ولكنه توقف في كل حالة بجواب جزئيٍّ أو غير كامل. أما اكتشاف وصياغة مجموعة منتظمة ومبوبة من النظريات، فقدمه العقل اللامع الحاد للطبيب الإنجليزي وليم هارفي.

وصلت النهضة العلمية إلى إنجلترا متأخرة عن وصولها إلى القارة الأوروبية، وخصوصًا إيطاليا، ولكن في العصر الذي وُلد فيه هارفي (سنة ١٥٧٨م) كانت الأمة تدخل في فترة من أعظم الفترات. فإبان القرن التالي، حكمت بريطانيا الملكة إليزابيث Elizabeth، وتوطدت قوة بريطانيا البحرية بهزيمة أسطول الأرمادا Armada الإسباني،

وفتح المكتشفون الإنجليز أراضي جديدة، وازدهر شكسبير Shakespeare ودون Donne وسبنسر Spenser ودرادن Dryden وملتون Milton وجونسون Johnson وباكون Bacon في عالم الأدب وبذا كبح جماح الفكر الخاص بالقرون السابقة. بدأ التفكير السابق ينقضي وتحررت عقول الناس داخل حدود معينة لتخلق أفكارًا جديدة وتفتح آفاقًا لم تفتح من قبل.

لكي يدرس هارفي الطب، كان من الطبيعي أن يذهب إلى إيطاليا. وسمِّيت جامعة بادوا الشهيرة: «الأم مربية النهضة.» وظلت لعدة أجيال المركز الطبي لأوروبا. فبعد أن تخرج هارفي الشاب في كامبريدج قضى أربع سنوات معظمها تحت قيادة المدرس الشهير الكفء فابريكيوس مكتشف صمامات الأوردة. فتعلَّم كيف يشرح ويجري التجارب على شتى أنواع الحيوان، وربما كان الفضل لنظريات فابريكيوس في متعته بالدورة الدموية التي لازمته طوال حياته.

لما عاد هارفي إلى إنجلترا في سنة ١٦٠٢م بدأ منهج حياة قُدِّر له أن يستمر مدة الخمسين سنة التالية كطبيب ومحاضر وكاتب. تزوج ابنة طبيب الملكة إليزابيث الخاص. وبعد ذلك عمل كزميلٍ في الكلية الملكية للأطباء، وكطبيبٍ في مستشفى بارثولوميو Bartholomew، وكطبيبٍ لجيمس الأول وشارل الأول.

رغم هذا، أولع هارفي طول حياته بالأبحاث الطبية والتجارب أكثر من ولعه بممارسة الطب. فبدأ في سنة ١٦١٦م يلقي المحاضرات عن الدورة الدموية أمام كلية الأطباء، ولا تزال النسخة الخطية لمحاضرته موجودة، مكتوبة بخليط من اللاتينية والإنجليزية بخط يكاد تتعذر قراءته. وقد شرح بعض تجاربه في مذكراته وأوضح أنه في ذلك التاريخ اقتنع تمامًا بصحة نظرياته الشهيرة عن الدورة الدموية، فكتب يقول: «يتحرَّك الدم في دائرةٍ مستمرةٍ بدفع من ضربات القلب.»

انصرمت اثنتا عشرة سنة قبل أن يستعد هارفي لنشر النتائج التي توصَّل إليها. لماذا هذا التأخُّر في إعلان مثل ذلك الاكتشاف العظيم إلى العالم؟ هناك عدة تخميناتٍ في ذلك الخصوص. فاقترح السير وليم أوسلر William Osler بقوله: «ربما كان باعثه في ذلك هو نفس باعث كوبرنيكوس الذي خشي تعصُّب البشر حتى قيل إنه رسالته الثورية في خزانته لمدة ثلاثين عامًا.» وبنفس ألفاظ هارفي، إن نظريته عن الدورة الدموية العامة: «جديدة ومن نوع لم يُسمع به حتى إنني لا أخاف فقط إيذاء شخصٍ نتيجة حسد القليلين، بل وأرتجف لجعل البشر جميعًا أعدائي. بوسع العادات والتقاليد أن تفعل الكثير إذا تحوَّلت

إلى طبيعةٍ أخرى، وإن النظريات التي غرست وتغلغلت جذورها واستقرت منذ القدم، ذات تأثيرٍ بالغ على جميع الناس.»

كذلك، ما كان هارفي بالرجل المتهور الذي يندفع بسهولةٍ إلى المطبعة لينشر نظرياته إذ يرى: «ليست جموع كاتبي الخزعبلات الأغبياء بأقل من أسراب الذباب في عز الصيف، وإنهم ليهددون بحماقاتهم وتوافه كتاباتهم وإنتاجهم الخاوي، بأن يخنقونا عندما ندخن.»

وأخيرًا، بعد سنواتٍ من التجارب والملاحظة، قرَّر هارفي أن الوقت قد حان. وفي سنة ١٦٢٨م ظهر في فرانكفورت Frankfurt بألمانيا كُتيب من ٧٢ صفحة اعتبره كثيرٌ من أعلام الطب أهم كتابٍ طبي وُضع حتى ذلك الوقت، وبطبيعة الحال، كان ذلك الكتيب باللغة اللاتينية وهي اللغة العلمية العالمية. كان عنوانه الكامل: Exercitatio Anatomica de Motu Cordis et Sanguinis in Animalibus، أي «تمرينات تشريحية على حركة القلب والدم في الحيوانات». ولسنا نعرف بالضبط السبب في صدور هذا الكتيب في ألمانيا بالذات — ربما كان ذلك لأن سوق الكتاب السنوية التي تُعقد في فرانكفورت تضمن سرعة نشره وتداوله بين علماء القارة الأوروبية. ولا شك في أن خط هارفي الرديء هو المسئول عن العديد من الأخطاء المطبعية.

بارك إهداءان كتيب «حركة القلب»؛ الأول إلى شارل الأول حيث يشبه الملك في مملكته القلب في الجسم، ويتبع ذلك خطابًا إلى الدكتور أرجنت Argent عميد الكلية الملكية و«سائر الأطباء والدكاترة زملائه العظيمي القدر». وفي الإهداء الثاني عبَّر هارفي عن رأيه بوجوب قبول الحقيقة، بغض النظر عن مصدرها، وأن الحقيقة أكثر قيمة من التقاليد القديمة. فقال: «أقرر أنني أتعلم وأعلم التشريح، ليس من الكتب وإنما من التشريح العملي، ليس من مكان الفلاسفة بل من نسيج الطبيعة.» أمسك هارفي بهذه العبارة بهدف وبروح البحث العلمي الحديث.

يتألَّف الكتاب في جوهره من مقدمةٍ وسبعة عشر بابًا تعطي وصفًا واضحًا متصلًا لعمل القلب وحركة الدم الدائرية خلال الجسم كله. وتستعرض المقدمة نظريات جالين وفابريكيوس وريالدو كولومب Realdo Colomb وغيرهم من قدامى الكتاب مبينًا أخطاءهم في دقةٍ وإيضاح.

ذكر هارفي في الباب الأول بعضَ المشاكل التي واجهته في أبحاثه، فكتب يقول:

«عندما وطدت العزم أولًا على الاتجاه نحو تشريح الحيوانات الحية كوسيلةٍ لاكتشاف حركات القلب ووظائفه، وحاولت اكتشاف هذه من الفحص الفعلي، وليس مما كتبه غيري،

وجدت هذا العمل شاقًّا وملوثًا بالمواد البرازية، وزاخرًا بالصعاب حتى كدت أميل إلى الاعتقاد مع فراكاستوريوس Fracastorius أن حركة القلب لا يمكن أن يعلمها غير الله وحده. فلم أدرك أولًا متى يحدث الانقباض ومتى يحدث التمدُّد، لا متى ولا أين يحدثان بسبب سرعة حركتيهما التي تتم في كثيرٍ من الحيوانات في لمح البصر، تجيء وتذهب في سرعة البرق الخاطف.»

وأخيرًا اقتنع هارفي بأنه بالإمكان دراسة حركات القلب بصعوبةٍ أقل في الحيوانات ذوات الدم البارد كالعلاجيم والضفادع والثعابين وصغار السمك وسرطان البحر والجمبري والقواقع والمحاريات، أقل مما في الحيوانات ذوات الدم الدافئ. فرأى في ذوات الدم البارد أن الحركات «أبطأ وأندر». كما كانت هذه الظواهر أسهل ملاحظةً في الحيوانات ذوات الدم الدافئ عند الاحتضار لما يكون عمل القلب آخذًا في البطء.

لاحظ هارفي، نتيجة لتجاربه، أن انقباض القلب يدفع الدم خارجًا، وعندما ينقبض تتمدد الشرايين لاستقبال الدم. ولما كان القلب عضلة تؤدي وظيفة نوع من المضخات، يجبر الدم على الاندفاع في دوران مستمر، وعند إجبار الدم على السريان داخل الشرايين، فإنه يسبب النبض، «مثلما ينفخ المرء في قفاز.» وعلى نقيض نظرية المد والجزر القديمة فإن الدورة الدموية تكون في اتجاه واحد. أوضح هارفي أن الدم يمر من الجانب الأيسر للقلب خلال الشرايين إلى النهايات ثم يعود عن طريق الأوردة إلى الجانب الأيمن للقلب. عرفت حركة الدورة بربط أربطة حول الشرايين والأوردة في نقطٍ مختلفة. وبالاختصار، اكتشف أن نفس الدم الذي تحمله الشرايين، تعود به الأوردة مكونة دورة كاملة.

وهكذا نرى وصف هارفي الرائع لهذه العملية إذ يقول:

«تحدث هاتان الحركتان؛ حركة البطينين وحركة الأذينين على التعاقب ولكن بطريقةٍ فيها تناسق وإيقاع بين الحركتين، تحدثان بحيث تكون حركة واحدة هي الظاهرة وخصوصًا في الحيوانات ذوات الدم الدافئ التي تكون فيها الحركتان سريعتين. تحدث الحركتان كما لو كانتا في قطعةٍ من آلة، فعلى الرغم من أن إحدى عجلاتها تدير الأخرى فإن جميع العجلات تبدو تتحرَّك في وقتٍ واحد. أو كأجهزة الأسلحة النارية حيث يلمس الزناد فينزل القداح ويضرب الصلب فيحدث شرارة تقع بين البارود فيشتعل ويحدث اللهب ويدخل أنبوبة القذافة ويسبب الانفجار فيرسل القذيفة التي تُصيب الهدف — وبسبب السرعة التي تحدث بها كل هذه الحركات، تبدو كأنها تقع في لمح البصر.»

عندما فكر هارفي في أن حركة الدم دائريةٌ، يجوز أنه تأثَّر بقدامى الفلاسفة أمثال أريسطو الذي كان يعلم أن الحركة الدائرية كاملة، وهي أمثل الحركات جميعًا. أما

العالم الفلكي جوردانو برونو معاصر هارفي، فاستنتج أن الدائرة هي «الشعار والنمط الأساسيان لجميع الحياة والأعمال في الكون.» وجدير بالملاحظة أن هارفي استخدم في مقاله عبارات مثل «حركة كأنها في دائرة» و«يجوز لنا أن نُسمي حركة الدم دائرية.»

كانت طريقة هارفي دقيقةً في البرهنة على الدورة الدموية، نعم كانت في مجملها دقيقة بدرجة رائعة، غير أنه كانت هناك حلقة واحدة مفقودة. كيف يذهب الدم من الشرايين إلى الأوردة؟ كان هارفي يعرف أن الدم يذهب إلى الشرايين من الجانب الأيسر للقلب ويعود من الأوردة إلى جانب القلب الأيمن. ومع ذلك، قال: «لم أنجح قط في تتبع أية علاقةٍ بين الشرايين والأوردة بالانفتاح المباشر بين فتحاتها.» وإذ كان ينقصه الميكروسكوب لم ير الأوعية الشعرية، وهي الأوعية الدقيقة التي تمر بداخلها كريات الدم من الشرايين إلى الأوردة، رغم اقتناعه بضرورة وجود مثل هذه المجاري. وقد حل هذا اللغز بعد موت هارفي ببضع سنين، حله مارسيلو مالبيجي Marcello Malpighi أستاذ التشريح بجامعة بولونيا. فعندما كان يفحص ضفدعةً بميكروسكوب حديث الاختراع رأى شبكة الشعيرات الدموية تصل الشرايين بالأوردة كما تنبَّأ هارفي تمامًا. وهكذا كملت الخطوة الأخيرة في البرهنة على الدورة الدموية.

لكي يتغلب هارفي على الوساوس، قدَّم مزيدًا من البراهين على الدورة الدموية، ومنها استعمال ما يعرفه علماء الطبيعة بطريقة الكم. برهن على أن القلب يضخُّ في مدة ساعة، في ضرباته البالغة حوالي أربعة آلاف ضربة، كمية تربو كثيرًا على جميع كمية الدم الموجودة في الجسم. فإذا قيس الدم الذي يرسله القلب في يوم واحد، وجد أن كميته تزيد كثيرًا على جميع الطعام المأكول والمهضوم — وبذا برهن على خطأ نظرية جالين القديمة. فكتب هارفي يقول: «بالاختصار، لا يمكن توريد الدم بطريقة أخرى غير عمل دورة والعودة.»

هناك براهين أخرى على الدورة الدموية تأتي من تأثير السموم على الجسم:

«نرى في حالة الأمراض المعدية وفي الجروح المسممة ولدغات الثعابين وعضَّات الكلاب المسعورة والزهري وما أشبه، أن الجسم كله يتسمم بينما تكاد أماكن الإصابة أن تخلو من الأذى أو تشفى ... لا شك في أن العدوى التي أصابت أولًا بقعة معينة، نقلها الدم العائد إلى القلب ومنه انتشرت بعد ذلك في جميع أجزاء الجسم ... قد يفسر هذا أيضًا السبب في أن العقاقير الطبية المستعملة فوق الجلد، يحدث لها نفس الأثر كما لو كانت قد أخذت عن طريق الفم.»

كان استعمال هارفي للحيوانات في أغراض التجارب أمرًا جديدًا، وكان يعتقد: «من رأيي أنه لو كان علماء التشريح خبراء في تشريح الحيوانات الدنيا كما هم خبراء في جسم الإنسان لزالت الأمور التي حيَّرتهم ولنزعت عنهم الشكوك، ولقضت على كل ما قابلهم من صعاب.» يمكن اعتبار هارفي بحق واحدًا من مؤسسي علم التشريح المقارن. فيذكر مثلًا تجارب على الأغنام والكلاب والغزلان والخنازير والطيور والكتاكيت في البيض والأفاعي والأسماك وثعابين السمك والعلاجم والضفادع والقواقع والجمبري وسرطان البحر والمحاريات والأصداف والإسفنج والديدان والنحل والزنابير واليعاسيب والجنادب والذباب والقمل.

«لاحظت وجود قلبٍ لجميع الحيوانات تقريبًا، ليس فقط في الحيوانات الكبيرة ذوات الدم كما يقرِّر أريسطو، بل وكذلك في الحيوانات الصغرى عديمة الدم، كالقواقع ذوات المحار والقواقع عديمة المحار وسرطان البحر والجمبري وكثير غير هذه. وحتى في الزنابير واليعاسيب والذباب فقد استخدمت عدسة فرأيت قلبًا نابضًا في الجزء العلوي مما يسمى بالذنب وأطلعت غيري عليها حية. ففي هذه الحيوانات عديمة الدم، ينبض القلب ببطء، منقبضًا في بطء كما في الحيوانات الراقية المحتضرة. يرى هذا بسهولة في القوقعة حيث يقع القلب في قاع الفتحة الواقعة على الجانب الأيمن، والتي تبدو تفتح وتقفل عند إخراج اللعاب … يوجد نوعٌ من السمك الصغير المستخدم طُعمًا لسرطان البحر، يصاد من البحر ومن نهر الثيمس Thames، كل جسمه شفاف، وضعتُ ذلك المخلوق في الماء وأطلعتُ بعض أصدقائي عدة مرات على حركات قلبه بوضوح تام.»

وعلاوة على اكتشافات هارفي الشهيرة هذه، كان أعظم إسهام له في خدمة العلم والأبحاث الطبية هو الطرق المعملية أو التجارب؛ فقد وضع الأساس الذي بُني عليه علم وظائف الأعضاء والطب لمدةٍ تزيد على ثلاثة قرون. كان الأساس، كما قرر هارفي نفسه:

«أن أبحث وأدرس أسرار الطبيعة عن طريق التجارب.» كان للطب تاريخٌ يرجع إلى آلاف السنين قبل مولد هارفي. تعلم الأطباء أن يدركوا ويصفوا بدقة الأمراض الرئيسية التي تُصيب الإنسان، وأن الملاحظة، رغم أهميتها، ليست كافية، وكثيرًا ما تقود إلى استنتاجات كلها خطأ، كان هذا هو أعظم فرقٍ بين هارفي وأسلافه. وتخطَّى هارفي الملاحظة السطحية، مقيدًا قليلًا بالخرافات أو باحترام النظريات القديمة، فوضع فروضًا وفحصها بالتجارب. كان أول من استخدم الطريقة العلمية للتجربة من أجل حل المسائل البيولوجية، وقد حذا حذوه جميعُ خلفه منذ عام ١٦٢٨م.

من الممتع قبول معاصري هارفي لاكتشافاته. لم يكن كتابه موضوعًا أدبيًّا، وربما لم يُدرك هارفي نفسه عمق ما تضمنه، ونشأ شيء من المعارضة من المحافظين والمتعصبين. وقد كتب معاصره ولتر ونشيل، جون أوبري Walter Winchell, John Aubrey يقول إنه: «سمع هارفي يقول إنه بعد ظهور كتابه عن الدورة الدموية أخذ يجري التجارب بجد؛ فقد ظنه العوام والسخفاء معتوهًا، وكان جميع الأطباء ضده.»

عبر السير وليام تمبل William Temple عن شعور أحد الأذكياء في ذلك العصر، فكتب عن مؤلفي كوبرنيكوس وهارفي، يقول:

«من المتنازع فيه ما إذا كان هذان اكتشافَيْن حديثَيْن أو مقتبسَيْن من أسسٍ قديمة. وهل هما حقيقيان أو غير حقيقيين. فرغم أن العقل قد يحبذهما أكثر من الآراء المضادة، فقلما يقبلهما العقل، ولكي يقنعا البشر، يجب عليهما أن يتحدا، ولكن إذا كان هذان الاكتشافان العظيمان حقيقيين فإنهما لم يحدثا تغييرًا في نتائج علم الفلك ولا في ممارسة الطب، وهكذا كانا قليلي النفع للعالم ولو أنهما جلبا الشرف العظيم لمؤلفيهما.»

تجاهل هارفي ناقديه في معظم الحالات. غير أن عداء مدرسة طب جامعة باريس حثَّه أخيرًا على الخروج عن صمته، وقام جون ريولان John Riolan أستاذ التشريح بمدرسة باريس يحث الكلية على تحريم تدريس نظرية هارفي؛ فحاول هارفي التغلب على معارضته، فأرسل إلى ريولان بحثين في التشريح مدعمين بالأدلة القاطعة فيما يختص بالدورة الدموية، ونشر هذين البحثين في كتيب سنة ١٦٤٩م، أي بعد صدور كتاب «حركة القلب» بإحدى وعشرين سنة، ردَّ فيهما هارفي بالتفصيل على من تعرضوا لمؤلفه.

يبدي هارفي حزنه في البحث الثاني بقوله:

«قلَّما يمر يوم أو ساعة منذ مولد الدورة الدموية، لا أسمع فيهما شيئًا طيبًا أو شريرًا يقال عن اكتشافي هذا. يذمه البعض فيقولون إنه يشبه طفلًا رضيعًا ضعيفًا غير جدير بأن يرى النور، ويظن البعض أن هذا الطفل يستحق الحب والعناية. فيعارضه هؤلاء بعنادٍ شديد، ويحميه أولئك بكثير من التوصية. يقرر أحد الطرفين أنني برهنت تمامًا على الدورة الدموية بالتجارب والملاحظات والفحص العيني ضد كل قوى الجدل. ويظن الطرف الآخر أنني لم أوضحها بما فيه الكفاية، ولم أسلم من جميع المعارضات. كما أن هناك بعضًا آخر يقول إنني أبديت، في غرور، ولعًا بالغًا بتشريح الكائنات الحية، ويسخرون من تقديم الضفادع والثعابين والذباب وغيرها من الحيوانات الدنيا على المسرح ... ولكي أرد على الأقوال الشريرة بأقوالٍ شريرة مثلها أقرِّر أنني لست جديرًا بالفلسفة

والبحث وراء الحقيقة، وأعتقد كذلك أنه من الخير والأصح لي أنني إذا التقيت بالكثير من أمثال هذه المعارضات والنوايا السيئة، أن أقابلها في ضوء الملاحظات الأكيدة والأمينة والقاطعة.»

ولحسن الحظ، عاش هارفي ليرى القبول العام لنظرياته بين الأكفاء ليحكموا عليها، وإن تعيينه عميدًا لكلية الطب في سنة ١٦٥٤م، قبل وفاته بثلاث سنوات، لَدليلٌ على سمو منزلته بين زملائه في المهنة.

كذلك العبارة اللاتينية المكتوبة على قبر هارفي تدل بوضوحٍ على رأي معاصريه فيه:

«وليم هارفي، الذي تقوم جميع الأكاديميات احترامًا لاسمه الموقر، كان الأول بعد عدة آلاف من السنين، الذي اكتشف حركة الدم اليومية، وبذا جلب الصحة للعالم والخلود لنفسه، ذلك الشخص الوحيد الذي خلص أصل الحيوان وأجياله من الفلسفة الكاذبة، والذي يَدين له الجنس البشري باكتسابه المعارف، ويدين له الطب بوجوده، الطبيب الأول وصديق صاحبَي الجلالة جيمس وشارل، ملكي الجزر البريطانية، والأستاذ النشيط البالغ النجاح للتشريح والجراحة بجامعة طب لندن — من أجلهما بنى مكتبة شهيرة زودها بنفائس الكتب من ميراثه الخاص، وأخيرًا بعد الجهود المظفرة في الملاحظة والعلاج والاكتشاف، وبعد إقامة عدة تماثيل من أجله، في وطنه وفي الخارج، عندما طاف الدائرة الكاملة لحياته مدرسًا للطب وطبيبًا، مات دون ولدٍ في الثالث من يونية من السنة المباركة ١٦٥٧م، في الثمانين من عمره الزاخر بالأعمال وبالشهرة.»

أضيف القليل ذو الصفة الجوهرية لاكتشاف هارفي للدورة الدموية، ولو أن كمية ضخمة من المعلومات كدست فيما يختص بالقلب وبالأوعية الدموية والرئتين. يعرف الكثير الآن عن تركيب القلب ووظيفته في الصحة والمرض وحركاته المعقدة ووظائف الدم التي لم تكن لتُتخيل في عصر هارفي نفسه.

ومع ذلك، فكما علَّق كلجور Kilgour:

«من الجليِّ الواضح أن إسهام اكتشاف هارفي في الطب والجراحة، يفوق كل وصف. إنه أساس جميع الأعمال الخاصة بإصلاح الأوعية الدموية التالفة أو المريضة والعلاج الجراحي لضغط الدم العالي والمرض التاجي وعملية «الرضيع الأزرق» المعروفة جيدًا، وهلمَّ جرًّا. وزيادة على ذلك، فإن علم وظائف الأعضاء العام هو المدين له أكثر من غيره؛ لأن حركة الدم الدوار هي أساس معارفنا الحالية لبيئة الجسم الداخلية، الذاتية الاتزان. يلعب هذا السائل، الذي اكتشف هارفي دورته بثاقب بصيرته العظيمة، أهم دور في ديناميكا أجهزة جسم الإنسان.»

ربما لم يلخِّص أحد معنى حياة هارفي في تقدم الطب، تلخيصًا أفضل مما فعل رائد الطب في عصرنا؛ ففي ذكرى هارفي السنوية، ألقى السير وليم أوسلر خطابًا في كلية الأطباء الملكية بلندن، عن حركة القلب، يقول فيه:

«... إنه يتميز بكسر الروح الحديثة للتقاليد القديمة. ما عاد هناك أناس يقنعون بالملاحظة الدقيقة والوصف الشامل، ما عاد هناك أناس يكتفون بالنظريات الحسنة السبك والأحلام الجيدة الصياغة، التي تقوم بوظيفة عذر عام للجهل، ولكن يوجد هنا، للمرة الأولى، مسألة فسيولوجية عظمى نتناولها من الجانب المدعم بالتجارب العملية التي قام بها رجل ذو عقل علمي حديث، استطاع أن يزن البراهين ولا يذهب بعيدًا عنها، ومكنه إدراكه من أن يترك النتائج تبرز طبيعيًّا وبثبات من الملاحظات. فذلك العصر، عصر السامعين، الذي سمع فيه الناس، وسمعوا فقط، قد تلاه عصر العين الذي رأى فيه الناس وقنعوا بمجرد الرؤية فقط، ثم جاء أخيرًا عصر اليد — اليد المفكرة والمصممة، اليد العاملة كأداةٍ للعقل، تقدم الآن ثانية للعالم في كتيب متواضعٍ قوامه اثنتان وسبعون صفحة، نجرؤ على أن نبدأ منها تأريخ بداية الطب التجريبي.»

الفصل الثالث عشر

نظام العالم: السير إسحاق نيوتن[1]

النظريات الرياضية Principia Mathematica

كان كتاب «النظريات الرياضية للفلسفة الطبيعية Philosophiae Naturalis Principia Mathematica» للسير إسحاق نيوتن أشهر جميع الكتب ذات التأثير العميق على أمور البشر كما أنه ما من كتابٍ من تلك قرأه أشخاصٌ أقل ممن قرءوا ذلك الكتاب؛ فقد كتبه مؤلفه في تؤدةٍ باللغة اللاتينية الفنية البالغة الغموض والموضحة بالكثير من الأشكال الهندسية المعقدة. وبذا اقتصرت قراءته على علماء الفلك والرياضيات والطبيعة الواسعي الاطلاع.

وقال واحد من أشهر كتاب حياة نيوتن: إنه عندما نشر كتاب مبادئ الرياضيات في الربع الأخير من القرن السابع عشر، لم يكن هناك على قيد الحياة من استطاع فهمه، أكثر من ثلاثة أو أربعة رجال. وزاد كاتبٌ آخر هذا العدد إلى عشرة أو اثني عشر. وقد اعترف نيوتن نفسه بأنه «كتاب صعب»، ولكنه لم يبد أية أعذار لكونه صمَّمه على ذلك النحو ولم يجعل به أية تسهيلاتٍ للأميين رياضيًّا.

ورغم هذا، يقرر مشاهير رجال العلوم أن نيوتن من أعظم الشخصيات الفكرية في العصر كله؛ فوصف لابلاس Laplace العالم الفلكي الفرنسي الألمعي، كتاب النظريات

[1] Sir Isaac Newton.

الرياضية بأنه «المتفوق على جميع ما أنتجته العبقرية البشرية.» وأكد لاجرانج Lagrange عالم الرياضيات الذائع الصيت، أن نيوتن أعظم نابغة عاش على وجه الأرض. وصف بوليزمان Boltzmann رائد العلوم الطبيعية والرياضية الحديثة، ذلك الكتاب بأنه أول وأعظم كتاب أُلف في العلوم الطبيعية الرياضية في العالم كله. وأبدى العالم الفلكي الأمريكي الشهير كامبل W. W. Campbell ملاحظته قائلًا: «الجلي لي أن السير إسحاق نيوتن الجدير بحق بأن يكون أعظم رجلٍ في العلوم الطبيعية الرياضية في جميع عصور التاريخ، يتمتَّع بمكانةٍ فريدة بأنه الرائد العظيم في العلوم الطبيعية الفلكية.» وكذلك كتبت تعليقات روَّاد علوم الطبيعة في القرنَيْن ونصف القرن الماضية، بمثل ذلك الثناء والإجلال والتمييز. ويجب على العلمانيين أن يتقبلوا حكم هؤلاء على هذه الحقائق المبنية على النتائج.

وُلد نيوتن بعد وفاة كوبرنيكوس بمدة قرن بالضبط، وفي نفس السنة التي مات فيها جاليليو، كوَّن هذان العملاقان في عالم الفلك ومعهما يوحنا كبلر، الأسس التي بنى نيوتن نظرياته عليها.

كان نيوتن ساحرًا رياضيًّا في عصر علماء الرياضيات الموهوبين. وكما أشار مارفين Marvin: «كان القرن السابع عشر عصر ازدهار الرياضيات، كما كان القرن الثامن عشر عصر ازدهار الكيمياء، والقرن التاسع عشر عصر ازدهار علوم الأحياء، ورأت الأربعون سنة الأخيرة من القرن السابع عشر خطوات تقدُّمية أكثر من أية فترة في التاريخ كله.» فقد جمع نيوتن في نفسه أعظم العلوم الطبيعية — الرياضيات والكيمياء والطبيعة والفلك — إذ كان بوسع العالم، في القرن السابع عشر، قبل عصر التخصُّص، أن يستوعب كافة المجالات.

وإذ وُلد نيوتن في يوم عيد الميلاد لسنة ١٦٤٢م رأى في أوليات سني حياته سقوط حكومة الكومنولث لرئيسها أوليفر كرومويل Oliver Cromwell، والحريق العظيم الذي دمَّر لندن عن آخرها، والطاعون المستشري الذي قضى على ثلث سكان تلك المدينة. وبعد ١٨ سنة قضاها نيوتن في قرية وولثورب Woolsthorpe الصغيرة، أُرسل إلى جامعة كامبريدج حيث ساعده الحظ بأن وضعه تحت إرشاد مدرس عبقريٍّ كفء هو إسحاق بارو Isaac Barrow أستاذ الرياضيات الذي أُطلِق عليه اسم «الأب العقلي» لنيوتن. لمس بارو النبوغ في نيوتن الشاب، فشجع ذلك النبوغ النامي وحفزه. وبينما كان نيوتن ما زال طالبًا في الكلية اكتشف نظرية ذات الحدين.

أقفلت جامعة كامبريدج أبوابها سنة ١٦٦٥م بسبب الطاعون، فعاد نيوتن إلى الريف. ظل معظم السنتين التاليتين معزولًا عن العالم، فكرَّس نفسه للتجارب العلمية والتفكير، فكانت النتائج مدهشة؛ فقبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره قام بثلاثة اكتشافات أعلَتْ قدره ووضعته في مصاف العقول العلمية الفذة لجميع العصور. فأولًا اخترع حساب التفاضل الذي أطلق عليه نيوتن اسم Fluxions لأنه يدخل في جميع مسائل الزيادة وحركة الأجسام والتموجات، وضروري لحل المسائل الطبيعية، ويتناول كل نوعٍ من الحركة. «يبدو أنه يفتح الأبواب الجانبية لمخزن الكنوز الرياضية، ويضع عالم الرياضيات تحت أقدام نيوتن وأتباعه.»

أما الاكتشاف العظيم الثاني لنيوتن فهو قانون تركيب الضوء، الذي بموجبه أخذ يحلِّل الألوان والنور الأبيض، فبرهن على أن ضوء الشمس الأبيض يتألَّف من جميع ألوان قوس قزح. إذن، فاللون خاصية للضوء، وظهور الضوء الأبيض — كما أوضح بالتجربة بواسطة منشور — ينتج عن اختلاط ألوان الطيف. وبالمعارف التي اكتسبها نيوتن من هذا الاكتشاف، استطاع أن يصنع أول تلسكوب عاكس ذي نتائج باهرة.

أما الفكرة الثالثة فجديرة بالملاحظة العظمى، وهي قانون الجاذبية العام الذي يُقال إنه أثار خيال العلماء أكثر مما أثاره أي اكتشاف نظريٍّ آخر في العصور الحديثة. فتبعًا لقصة موثوق بها، جاءت هذه الفكرة لنيوتن عندما لاحظ سقوط تفاحة، فساقته إلى صياغة هذا القانون. لم يكن هناك جديد على فكرة جذب الأرض للأجسام القريبة من سطحها، ولكن ما أسهم به نيوتن في الذخيرة العلمية هو تخيله العظيم الذي جعل قانون الجاذبية هذا عالميًّا في استخداماته: للأجرام السماوية قوة جذب لا تقل عن قوة جذب الأرض. وبعد ذلك قدَّم البرهان الرياضي لنظريته.

الغريب أن نيوتن لم ينشر شيئًا عن هذه الاكتشافات الثلاثة البالغة الأهمية؛ التفاضل والألوان والجاذبية، وإذا كان ذا طبيعة مولعة بكتمان أسراره والاحتفاظ بمعلوماته في طيات صدره، فإنه كان يمقت ملاحظات الجمهور ومجادلاتهم. وعلى ذلك كان يميل إلى حجز نتائج تجاربه، وكل ما نشره فيما بعد كان تحت ضغط أصدقائه، ثم ندم بعد ذلك على خضوعه لهم واستجابته لتوسلاتهم؛ فقد نجم عن ذلك النشر أن قام زملاؤه العلماء بنقد مؤلفاته والمجادلة فيها، وهذا ما كان يشمئز منه نيوتن بسبب طبيعته الحساسة.

بعد الاعتزال الإجباري والفراغ بسبب سنوات انتشار الطاعون، عاد نيوتن إلى كامبريدج، ونال درجة أستاذ وعُيِّن زميلًا في كلية ترنيتي Trinity. وبعد ذلك بفترة قصيرةٍ

تقاعد أستاذه السابق بارو، فصار نيوتن وهو في السابعة والعشرين من عمره أستاذًا للرياضيات، وهذا مركز احتفظ به نيوتن لمدة السبع والعشرين سنة التالية. لم يُسمع عن نيوتن في العشر أو العشرين سنة الأولى سوى القليل. والمعروف أنه استمر في أبحاثه عن الضوء، ونشر صحيفة عن اكتشافه عن الطبيعة المركبة للضوء الأبيض. وبعد هذا مباشرة، وقع في المجادلات؛ فأولًا كانت نظرياته عن الضوء تعارض النظريات السائدة وقتذاك، وثانيًا لأنه ضمن صحيفته حقيقة عن فلسفته للعلوم الطبيعية؛ فأكَّد في هذه الصحيفة وجهة نظره بأن الوظيفة الرئيسية للعلوم الطبيعية هي القيام بالتجارب المصممة بعناية، وتسجيل الملاحظات على هذه التجارب ثم صياغة القوانين الرياضية المبنية على النتائج. وكما قال نيوتن: «الطريقة المثلى لمعرفة خواص الأشياء، هي استنتاجها من التجارب.» ورغم اتفاق هذه النظرية تمامًا مع الأبحاث العلمية الحديثة، فلم تكن مقبولة تمامًا بحال ما في عصر نيوتن؛ إذ كانوا يفضلون المعتقدات المبنية على الخيال والعقل ومظهر الأشياء، وهي الموروثة عادة عن قدامى الفلاسفة، يفضلونها على البراهين وليدة التجارب.

غضب نيوتن لهجوم مشاهير العلماء على صحيفته، ولا سيما هويجنز Huygens وهوك Hooke، فقرر أن يتحاشى مثل هذا الغيظ مستقبلًا بألَّا ينشر شيئًا بعد ذلك، قائلًا: «لقد اضطهدت من جراء تلك المناقشات التي نجمت عن نشر نظريتي عن الضوء، حتى إنني لمت حكمتي في إعلان مثل هذه النعمة العظيمة كما لو كنت أجري وراء ظل.» كما عبَّر عن عدم التذوق الحاد للعلوم نفسها مؤكدًا أنه فقد «ولعه» السابق بها. وبعد مدة توسُّل إليه وتملُّق وأُلحَّ عليه في كتابة مؤلفه العظيم «النظريات الرياضية». والحقيقة هي أنه يبدو أن خلق هذا الكتاب جاء وليد الصدفة.

في سنة ١٦٨٤م قام بيكار Picard بحسابات دقيقة لمعرفة طول محيط الكرة الأرضية بالضبط لأول مرة. فاستخدم نيوتن المعلومات التي توصَّل إليها ذلك الفلكي الفرنسي مع نظرية الجاذبية؛ للبرهنة على أن القوة التي تُسيِّر القمر حول الأرض، والكواكب حول الشمس، هي قوة الجاذبية. تتناسب هذه القوة تناسبًا طرديًّا مع كتلة الأجسام المتجاورة، وتناسبًا عكسيًّا مع مربع المسافة بينها؛ ومن هذا ذهب نيوتن بعد ذلك ليبرهن على أن هذا هو ما يجعل أفلاك الكواكب إهليلجية الشكل. فقوة شد هذه الجاذبية هي التي تحافظ على دوران القمر والكواكب في أفلاكها موازنة القوة الطاردة المركزية لحركاتها.

وللمرة الثانية أخفق نيوتن في البرهنة على اكتشافه لظاهرة أعظم أسرار الطبيعة. وتصادف أن شُغل علماء آخرون في البحث عن حل لنفس هذه القضية. اقترح كثير من علماء الفلك أن الكواكب ترتبط بالشمس بقوة الجاذبية، كان من بين هؤلاء روبرت هوك أعظم نقاد نيوتن المتعصبين المعاندين، بيد أنه لم يستطع أي واحد من هؤلاء أن يقدم برهانًا رياضيًّا. في تلك الأثناء كان نيوتن قد حظي بشهرةٍ بالغة كعالم في الرياضيات، وزاره في كامبريدج العالم الفلكي إدمند هالي Edmund Halley يطلب مساعدته. وعندما بسط هالي قضيته، علم أن نيوتن حلها قبل ذلك بسنتين. وزيادة على هذا، وضع نيوتن القوانين الأساسية لحركة الأجسام المتحركة تحت قوة الجاذبية. وبطبيعة الحال، لم يكن نيوتن يعتزم نشر اكتشافاته.

أدرك هالي من فوره أهمية اكتشافات نيوتن، فاستخدم كل ما لديه من قوة الحث لإقناع نيوتن بوجوب نشر اكتشافه والإفادة منه. تأثَّر نيوتن بحماس هالي، وبشغفه هو نفسه الذي أشعل من جديد، فبدأ يكتب أروع مؤلفاته «النظريات الرياضية» الذي وصفه لانجر بأنه «خزان حقيقي لفلسفة الرياضيات، وأعظم المؤلفات الطريفة التي أنتجها العقل البشري.»

والظاهرة البارزة في كتاب «النظريات الرياضية» التي لا تقل أهمية عن غيرها، هي أنه استغرق في تأليفه ثمانية عشر شهرًا، شغل نيوتن إبَّانها لدرجة أنه كثيرًا ما كان ينسى طعامه ولا ينال غير قدر يسير من النوم، لا يستطيع إخراج مثل هذا العمل الذهني الضخم في مدةٍ وجيزة كهذه إلا التركيز المستمر والبالغ الشدة، والحق أن ذلك العمل أنهك نيوتن ذهنيًّا وبدنيًّا.

وزيادة على ذلك، لم ينعم نيوتن براحة البال إبَّان تأليفه لذلك الكتاب، وإنما أزعجته أيما إزعاج تلك المجادلات الدائمة ولا سيما من جانب هوك الذي ألحَّ في أن يكون له شرف اكتشاف نظرية التربيع العكسي للجاذبية في حركة الكواكب. وكان نيوتن عندئذٍ قد أتم ثلثي كتابه، فأغضبه ذلك الادعاء غير العادل لدرجة أنه هدد بحذف الجزء الثالث الأعظم أهمية. وهنا تدخل هالي مستخدمًا نفوذه وظل يلحُّ على نيوتن في أن يكمل كتابه حسبما خطط له أولًا.

لعب إدمند هالي دورًا في تاريخ كتاب النظريات الرياضية يستحق عنه أسمى تقدير، ليس فقط لأنه المسئول عن حث نيوتن على القيام بذلك العمل؛ بل ولأنه حصل على موافقة الجمعية الملكية على نشره ولم يذكر كل ما فعله في الإشراف النهائي لإخراج ذلك الكتاب

من المطبعة. وأخيرًا عندما نكثت الجمعية الملكية وعدها بتمويل نشر ذلك الكتاب، قام هالي نفسه بسداد جميع النفقات من جيبه الخاص رغم كونه متوسط الحال ويعول أسرة.

بعد أن تخطَّى ذلك الكتاب جميع العقبات، خرج من المطبعة في سنة ١٦٨٧م في حجم صغير بيع بعشرة شلنات أو اثني عشر شلنًا للنسخة الواحدة. وظهر في الصفحة المخصصة لعنوان الكتاب واسم مؤلفه، ظهر اسم صموئيل ببيز Samuel Pepys رئيس الجمعية الملكية على أنه صاحب الترخيص لطبع ذلك الكتاب رغم أنه من المشكوك فيه، كما ذكر أحد النقاد: «ما إذا كان يفهم جملة واحدة منه.»

من الصعب عمل أي ملخصٍ لذلك الكتاب بلغةٍ غير فتية، إن لم يكن مستحيلًا، ولكن يمكن عمل بعض التوضيحات. يتناول المؤلف في جملته حركة الأجسام من الناحية الرياضية، وخصوصًا من حيث الديناميكا والجاذبية العامة للمجموعة الشمسية. فيبدأ بشرح حسابات التفاضل الذي اخترعه نيوتن واستخدمه في جميع العمليات الحسابية بذلك الكتاب. وبعد ذلك تعريف معنى الفضاء والزمن وبيان قوانين الحركة كما صاغها نيوتن مع الأشكال الموضحة لاستعمالها. فتقول النظرية الأساسية إن كل ذرة من المادة تجذبها كل ذرة أخرى من المادة بقوةٍ تتناسب تناسبًا عكسيًّا مع مربع المسافة بينها وبين كل ذرة. كذلك بيَّن القانون الذي تخضع له الأجسام المتصادفة بعضها مع بعض. وقد شرح وعبَّر عن كل شيءٍ بصور هندسية كلاسيكية.

يتناول الجزء الأول من كتاب النظريات الرياضية حركة الأجسام في الفضاء الطلق، بينما يتناول الجزء الثاني الحركة في «وسط مقاوم» كالماء. وقد وضع نيوتن في اعتباره مسائل حركة السوائل وطرق حلها، وناقش طرقًا لتقدير سرعة الصوت وحركة الأمواج بالشرح الرياضي. وهنا وضع أساس علم الطبيعيات الرياضية الحديث والأيدروستاتيكا والأيدروديناميكا.

قوض نيوتن في الجزء الثاني ذلك النظام الكوني الذي وضعه ديكارت Descartes، والذي كان شائعًا وقتذاك تقويضًا تامًّا. فتبعًا لنظرية ديكارت: تتحرك الأجسام السماوية بناءً على حركة دوامية؛ فالفضاء كله، تبعًا لتلك النظرية مليءٌ بمادةٍ مائعةٍ خفيفةٍ تُحدث دواماتٍ في نقط معينة. فمثلًا تتألَّف المجموعة الشمسية من أربع عشرة دوامة أكبرها تضم الشمس. أما الكواكب فتدور كما تدور قطع الأوراق في دوامة الأعاصير الحلزونية. فسَّر ديكارت ظاهرة الجاذبية بهذه الدوامات، فلمَّا جاء نيوتن أخذ يُبرهن بالتجارب والعمليات الرياضية، وبذا أثبت أن «نظرية الدوامات تتعارض تمامًا مع الحقائق الفلكية؛ ولذا فهي بعيدةٌ كل البعد عن تفسير حركة الأجرام السماوية وتقلبها رأسًا على عقب.»

أما في الجزء الثالث، وعنوانه «نظام الكون» فقد بذل نيوتن قصارى ما في ذهنه؛ إذ تناول النتائج الفلكية لقانون الجاذبية، فكتب يقول عن نفسه:

«وضعت في الجزءين السابقين نظريات الفلسفة (العلوم)، تلك النظريات الرياضية وليست الفلسفية ... هذه النظريات هي قوانين وشروط حركات معينة أو قدرات أو قوات ... شرحتها هنا وهناك ... تبعًا لأمور ذات طبيعة عامة ... مثل كثافة الأجسام ومقاومتها والفضاء الخالي من جميع الأجسام، وحركة الضوء والصوت. يتبقَّى من نفس تلك النظريات أن أشرح هيكل نظام الكون.»

شرح نيوتن السبب في عدم جعله مُؤلفَه شعبيًّا، فقال:

«الحقيقة أنني ألَّفت الجزء الثالث عن هذا الموضوع بطريقةٍ شعبية كي يقرأه الكثيرون، ولكن حدث بعد ذلك أنني لما رأيت أن أولئك الذين لم يدرسوا تلك النظريات دراسةً كافية لا يمكنهم إدراك قوة النتائج في سهولة، كما أنهم لن يتخلوا عن العقائد والتعصبات التي تعودوها منذ عدة سنوات؛ لذا تحاشيًا للمنازعات التي قد تنجم بسبب ذلك، قررت اختصار مادة هذا الكتاب في صورة مقترحات (بالطريقة الرياضية) لا يقرؤها غير الذين استوعبوا النظريات التي تضمنها الجزءان السابقان استيعابًا جيدًا، كما أنني لا أشير على أحدٍ بدراسة كل نظريةٍ في الجزءين السابقَيْن لأنها تستغرق وقتًا طويلًا حتى من ذوي الدراسات الرياضية الطيبة.»

لهذا السبب، وُصف أسلوب كتاب «النظريات الرياضية» بأنه «بالغ الصعوبة ومكتوب بطريقة متناهية التعقيد لا يلجأ إليها إلا كاهنٌ سامٍ.»

استهلَّ نيوتن كلامه في هذا الجزء بذكر حقيقة أساسية تختلف عن النظريات الماضية تمامًا، وهي أنه ليس هناك فرق بين الظواهر الأرضية والظواهر السماوية، مؤكدًا أن الآثار المتشابهة في الطبيعة تنتج عن أسباب متشابهة. فمثلًا التنفس في الإنسان وفي الحيوان، وسقوط الأحجار في أوروبا وفي أمريكا، وضوء نار المطبخ وضوء الشمس، وانعكاس الضوء على الأرض وعلى الكواكب. وهكذا دحض الاعتقاد القديم القائل بأن العوالم الأخرى كاملة والأرض وحدها هي غير الكاملة، ولكن نيوتن أثبت أن الجميع يخضع لنفس القوانين المعقولة، كما قال ماك موراي Mac Murray: «يسبب النظام والعمل الرتيب حيث سادت الفوضى والغموض في العهد الماضي.»

هذا، وإن مجرد عمل قائمة بالموضوعات التي تناولها الجزء الثالث لمدهش حقًّا؛ فقد أثبت، بما لا يترك مجالًا للشك، حركات الكواكب وحركات توابعها حولها وأوضح طرق

قياس كتل الشمس والكواكب، وناقش وفسَّر مواضيع كثافة الأرض واستقبال الاعتدالين الربيعي والخريفي ونظرية المد والجزر وأفلاك المذنبات وحركة القمر وكل الأمور المتعلقة بهذه المواضيع.

أثبت نيوتن، بواسطة نظريته عن «الاضطرابات»، أن الأرض والشمس تجذبان القمر، وهكذا يضطرب ذلك القمر بجذب الشمس رغم أن جذب الأرض له أقوى من جذب الشمس. وكذلك الكواكب عرضة للاضطرابات، وليست الشمس هي المركز الثابت للكون، على عكس المعتقدات السابقة، بل تجذبها الكواكب كما تجذب هي الكواكب فتتحرك بنفس الطريقة. وفي القرون اللاحقة أدَّت نظرية الاضطرابات إلى اكتشاف كوكبي نبتون وبلوتو.

أوجد نيوتن مقادير كتل الكواكب وكتلة الشمس بمقارنتها بكتلة الأرض، قدر كثافة الأرض بما يتراوح بين خمس وست مرات كثافة الماء (الكثافة التي يستعملها علماء الطبيعة اليوم هي ٥,٥). وعلى هذا الأساس حسب نيوتن كتل الشمس والكواكب وتوابعها. وهذا عمل وصفه آدم سميث Adam Smith بأنه «فوق مدى العقل والعمل البشريين.»

تأتي بعد ذلك الحقيقة القائلة بأن الأرض ليست كرةً منتظمة التكور؛ بل مسطحة عند القطبين بسبب الدوران، فشرحها نيوتن وحسب مقدار التسطح. استنتج نيوتن بناءً على تسطح الأرض عند القطبين وانبعاجها عند خط الاستواء، أن الجاذبية لا بد أن تكون عند القطبَيْن أقل منها عند خط الاستواء — وهذه الظاهرة تفسِّر «الاستقبال» في الاعتدالين والحركة المخروطية لمحور الأرض على غرار الخذروف. وبدراسة شكل الكوكب أمكن تقدير طول الليل والنهار على ذلك الكوكب.

استخدم نيوتن قانون الجاذبية الكونية في بحثه عن أسباب المد والجزر. فعندما يكون القمر بدرًا يقع على مياه الأرض أقصى جذب، فينتج المد. كذلك تؤثر الشمس على المد والجزر. فعندما تكون الشمس والقمر على خط واحد، يبلغ المد ذروته.

كذلك هناك موضوع يحظى باهتمام الجميع ألقى نيوتن عليه النور، ألا وهو موضوع المذنبات. كانت نظريته أن المذنبات إذ تسير تحت جاذبية الشمس، تتخذ مسارات إهليلجية ذوات مدى بالغ البعد يحتاج قطعه العديد من السنين؛ لذا فإن المذنبات التي اعتبرتها الخرافات نذير شؤمٍ، تبوأت مكانها الصحيح كظواهر سماوية جميلة وعديمة الأذى، وقد استطاع إدمند هالي باستخدام نظريات نيوتن عن المذنبات، أن يتعرَّف على المذنب الشهير المعروف باسم «مذنب هالي». ويتنبأ عن موعد ظهوره بالضبط كل ٧٥ سنة، وما إن يشاهد المذنب حتى يمكن تحديد مساره مستقبلًا بالضبط.

ومن الاكتشافات العظيمة المدهشة التي قام بها نيوتن، طريقة تقدير بعد نجم ثابت، مبنية على كمية الضوء التي يمكن الحصول عليها بانعكاس أشعة الشمس من كوكب.

لم يبد كتاب «النظريات الرياضية» أية محاولة لشرح السبب وإنما شرح فقط الكيفية الكونية. وبعد ذلك رد نيوتن على التهم بأن طريقته كانت طريقة ميكانيكية بحتة، دون ذكر أية أسباب ولا نسبة إلى الخالق الأعظم، فأضاف اعترافه وإيمانه بالخالق في الطبعة الثانية لمؤَلَّفه، فكتب يقول:

«لا يمكن إدراكُ هذا النظام البديع للشمس والكواكب والمذنبات إلا بتوجيه وسيادة كائن بالغ الذكاء والقوة ... فكما أنه ليست لدى الأعمى أية فكرة عن الألوان، كذلك ليس لدينا أية فكرةٍ عن الكيفية التي يرى بها الله الكلي الحكمة، جميع الأشياء ويفهمها.»

كان نيوتن يعتقد أن وظيفة العلوم هي بناء المعلومات وتنميتها، وكلما كثر كمال معارفنا كثر اقترابنا من فهم السبب رغم أن الإنسان قد لا يكتشف قط قوانين الطبيعة العلمية الصحيحة.

لما كان كتاب «النظريات الرياضية» عملًا وليد الذكاء المفرط فإن المعجبين بنيوتن المتحمِّسين له، يؤكدون أنه لم يكتب في الفراغ. فكما ذكر كوهين Cohen:

«بُنيت نظريات نيوتن العظيمة على أعمال سابقيه، لقد أنتج الماضي السابق مباشرة، الهندسة التحليلية من ابتكار ديكارت وفورما Format، والجبر من ابتكار أوجترد Oughtred وهاريوت Harriot، ووإليس Wallis وقانون الحركة لكبلر، وقانون الأجسام الهابطة لجاليليو. وكذلك أنتج قانون تكوين السرعات لجاليليو — وهو قانون يقول إنه يمكن تحليل حركةٍ ما إلى مركبات كل منها مستقلة عن الأخرى (فمثلًا تتألَّف حركة القذيفة من سرعة أمامية منتظمة وسرعة إلى أسفل ذات عجلة، مثل حركة جسم مطلق هابط) وهذا قليلٌ من كثيرٍ من المكونات الحاضرة التي تنتظر نظريات نيوتن العظمى، ولكن يبقى أمام عبقرية نيوتن أن تضيف إليها اللمسة الأخيرة العظمى، ليُبرهن أخيرًا ولآخر مرة كيف يسير نظام الكون تبعًا لقانون رياضي.»

كان من الجلي، كما ذكر جان Jeans أن العالم بحاجةٍ إلى رجلٍ بوسعه أن يُضيف النظريات ويستنتجها ويطليها، فوجد ذلك الرجل بامتياز رائعٍ في شخصية نيوتن.

اعترف نيوتن نفسه بأن «نظامه للعالم» علم ميكانيكا الكون مبنيٌّ على أعمالٍ بدأها كوبرنيكوس وأخذها عنه تيكو براهي وكبلر وجاليليو. وقال نيوتن: «إذا كنت قد رأيت أبعد مما رأى غيري من الرجال، فإنما ذلك لوقوفي على أكتاف العمالقة.»

والواقع أن السبب المحتمل للمعارضات والمناقشات التي ملأت حياة نيوتن، هو الاختمار الذهني السائد في عصره. كان الجو زاخرًا بالنظريات الجديدة التي فحصها عدد كبير من العلماء الأكفاء، ولا يدهشنا أن يكتشف رجلان نفس الاكتشاف في وقت واحد تقريبًا، وكلٌّ منهما مستقلٌّ عن الآخر. يبدو أن هذا حدث بالضبط في اكتشافي نيوتن الرئيسيين اللذين اكتشفهما لبينز وهوك. فاخترع لبنيز حساب التفاضل، وعدل هوك في نظرية الجاذبية الكونية بعد أن ابتكرهما نيوتن بوقتٍ ما. ولكنهما أعلناهما للعالم قبل نيوتن الذي أهمل في نشر مؤلفه.

استقبل معاصرو نيوتن كتابه «النظريات الرياضية»، في إنجلترا واسكتلندا بترحاب أكثر من استقبال الناس له في القارة الأوروبية، ولكنه استقبل ببطء في كل مكان، وكما تنبأ نيوتن، احتاج فهمه إلى مقدرة رياضية عظيمة، ومع ذلك فإن طريقة عرضه الخارقة جعلت الناس، حتى من كانت لديهم فكرة بسيطة عن مؤلفه، يُقبلون عليه. وشيئًا فشيئًا قَبِل العلماء في كل مكانٍ نظريات نيوتن، وفي القرن الثامن عشر سلموا بها في عالم العلوم.

يبدو أن نيوتن فقد كل متعة فعَّالة في الأبحاث العلمية بعد أن كتب «النظريات الرياضية»، رغم أنه عاش مدة أربعين عامًا بعد نشره، تسلَّم خلالها عدة تكريمات مشرفة؛ فَعُيِّن مديرًا لدار السكة، ومنحته الملكة آن Anne لقب فارس، وانتخب رئيسًا للجمعية الملكية منذ عام ١٧٠٣م حتى وفاته في سنة ١٧٢٧م، ورأى نشر الطبعتين الثانية والثالثة من كتابه. وعلى العموم قُدر أسمى تقدير ونال أعظم إجلال.

عدلت الاكتشافات العلمية في القرن العشرين في نظريات نيوتن أو أظهرت عدم ملاءمة بعضها، وخصوصًا فيما يتعلق بعلم الفلك. فمثلًا أكدت نظرية أينشتين في النسبية أن الفضاء والزمن ليسا مطلقين كما علم نيوتن. وعلى العموم، فكما ذكر بعض الثقات الحجة في العلوم والتكنولوجيا؛ أن تركيب ناطحة السحاب، وأمن جسر سكة حديدية، وحركة السيارة، وتحليق الطائرة، وملاحة السفينة عبر المحيط، وقياس الزمن وما إلى ذلك من الأدلة في حضارتنا المعاصرة، لا تزال تتوقف أساسًا على قوانين نيوتن. وكما كتب السير جيمس جانز: «ليست نظريات نيوتن مناسبة فقط فيما يختص بالتهذيبات البالغة السمو للعلوم الحديثة، بل وإن الفلكي عندما يريد إعداد تقويمه الملاحي أو مناقشة حركات الكواكب، يستعمل نظريات نيوتن وحدها تقريبًا. والمهندس الذي يريد تشييد جسر أو بناء سفينة أو تصميم سيارة، يعمل تمامًا ما كان يعمله في حالة ما إذا كانت نظريات نيوتن لم يبرهن على عدم مناسبتها. ونفس الشيء صحيح مع المهندس الكهربي

سواء أكان يصلح تليفونًا أو يصمم محطة لتوليد الكهرباء. لا تزال العلوم المستعملة في حياتنا اليومية مبنيةً على قوانين نيوتن. ومن المستحيل تقدير ما تدين به هذه العلوم لعقل نيوتن الصافي والثاقب، الذي وضعها على الطريق الصحيح، وإن نظرياته لَراسخةٌ ومقنعة لدرجة أنه ما من أحد فهمها واستطاع أن يشكَّ في صحتها.»

لا بد للثناء والتقريظ اللذين نالهما نيوتن على لسان أينشتين أن يمحو أي قدح من الفلاسفة منافسيه «إذ كانت الطبيعة أمامه كتابًا مفتوحًا استطاع قراءة حروفه دون عناءٍ، لقد ضم في شخص واحد: العالم القائم بالتجارب، وصائغ النظريات والميكانيكي والمتفنن في التعبير.»

قدر نيوتن حياته وهو في آخر أيامه تقديرًا يتسم بالتواضع، فقال: «لست أدري ماذا أبدو أمام العالم، ولكني أبدو أمام نفسي كغلامٍ على شاطئ البحر، يتسلَّى من آنٍ إلى آخر بالعثور على حصاةٍ أكثر ملاسة أو صدفة أجمل من العادية بينما يقع محيط الحقيقة الخضم كله أمامي دون أن يكتشف.»

الفصل الرابع عشر

بقاء الأصلح: تشارلز داروين[1]

أصل الأجناس

بتطابق عجيبٍ شهد عام ١٨٠٩م مولد قادة عظام بدرجة خارقة للعادة، ربما كان ذلك أكثر من أية سنة بعينها في التاريخ كله. قُدر لكل عظيم منهم أن يكون مبرزًا في مجاله، فهذان تشارلز داروين «نيوتن علم الأحياء»، وأبراهام لنكولن الرجل العظيم الذي تبنَّى موضوع عتق العبيد وحققه، ولدا في نفس اليوم وكاد مولدهما أن يكون في نفس الساعة. ومن بين عظماء الرجال الذين رأوا النور في تلك السنة نفسها، جلادستون Gladstone وتينيسون Tennyson وإدجار ألان بو Edgar Allan Poe، وأوليفر وندل هولمز Oliver Wendell Holmes، وإليزابيث باريل براوننج Elizabeth Barell Browning وفيلكس ماندلسوهن Felix Mendelssohn.

ما من أحدٍ من هؤلاء الأسماء الشهيرة، وفي الواقع من بين جميع الملايين المولودين في القرن التاسع عشر، وربما، باستثناء كارل ماركس، ما من أحدٍ فعل أكثر من داروين في تغيير الاتجاهات الرئيسية للفكر، وخلق نظرة جديدة في المواضيع البشرية. وإن «الداروينية» فكرة ثبتت ورسخت تمامًا في عقول الشعب مثل الماركسية والمالثوسية والماكيافيلية.

[1] Charles Darwin.

على الرغم من أن المبادئ الأساسية للنظريات الداروينية، تحظى اليوم بقبول عامٍّ تقريبًا في العالم العلمي، فقد ثارت المجادلات حولها في مدى قرن تقريبًا، والمعارك الأساسية الحديثة للقرنين التاسع عشر والعشرين التي بلغت ذروتها في مجالات «موضوع القرد» في ولاية تنيسي Tennessee من بين الأمثلة القليلة لحرية بدأت في عام ١٨٥٩م، ولم تبدأ أمارات الهدنة من هذه الهجمات إلا حديثًا.

لم يبد داروين وهو شابٌّ سوى القليل من الدلائل على أنه سيكون عالمًا ذا شهرة عالمية … انحدر من أسرة تضم عددًا من العلماء المبرزين والرجال المحترفين، ولكن حتى والده نفسه، ساوره شكٌّ بالغ فيما إذا كان ابنه سيصير شيئًا ما؛ ففي مدرسة «قواعد اللغة» ضايقت شارل الصغير دراسة اللغات الميتة والمنهج الكلاسيكي الجاف البالغ الصعوبة. وقد أنَّبه ناظر تلك المدرسة على تضييع وقته في التجارب الكيميائية وجمع الحشرات والمعادن، ولكي ينهج نهج أبيه، أرسل إلى جامعة إدنبره وهو في السادسة عشرة ليدرس الطب. وبعد قضاء سنتين فيها قرَّر أن مهنة الطب ليست له، فنقل إلى كامبريدج ليتدرب على الكهنوت للكنيسة الإنجليزية.

من وجهة نظر الدراسة الشكلية، اعتبر داروين أن دراسة السنوات الثلاث في كامبريدج كانت مضيعةً للوقت، بيد أن الحظ ساعده هناك بأن صادق أستاذين ذوي نفوذٍ بالغ. قضى داروين وقتًا طويلًا مع هنسلو Henslow أستاذ علم النبات، وسدجويك Sedgwick أستاذ الجيولوجيا، في رحلاتٍ إلى الحقول يجمع الخنافس وملاحظات التاريخ الطبيعي.

نال داروين عرضًا عن طريق سدجويك، بالإبحار كعالم طبيعيٍّ على ظهر سفينة البحرية «بيجل Beagle». فخرج في بعثةٍ للقيام بمسحٍ واسع النطاق في نصف الكرة الجنوبي، وفي السنوات التي تلَتْ تلك الرحلة، اعتبرها داروين «أهم وأعظم حادثٍ في حياتي.» فقد قررت هذه الرحلة مجال مستقبله كله. وقد ماتت «فكرة مصيره كاهنًا ميتة طبيعية فوق البيجل.»

رست البيجل، أثناء السنوات الخمس التالية من ١٨٣١–١٨٣٦م، على كل قارة وكل جزيرة عظمى، تقريبًا، أثناء دورانها حول العالم. وطلب من داروين أن يعمل جيولوجيًّا وخبيرًا في علم النبات وعلم الحيوان وعالمًا في العلوم الطبيعية بصفة عامة — وهذا إعداد رائع ممتاز لحياته القادمة في الأبحاث والكتابة. فأينما ذهب، كان يجمع مجموعات ضخمة من النباتات والحيوانات، المتحجرة والحية، من البرية والبحرية. كان يفحص بعين

العالم الطبيعي جميع النباتات والحيوانات التي تعيش على الأرض وفي البحر، في سهول البامبا بالأرجنتين، ومنحدرات جبال الأنديز Andes الجافة والبحيرات الملحة والصحاري في شيكي وأستراليا، وغابات البرازيل الكثيفة، وتيرادلفويجو Tierradel Fuego وتاهيتي، وجزر الرأس الأخضر المنزوعة الغابات، والتكونات الجيولوجية لساحل أمريكا الجنوبية وجبالها والبراكين الحية والخامدة بالجزر وأراضي القارة، والحواجز المرجانية، والثدييات المتحجرة في باتاجونيا Patagonia، والأجناس البشرية البائدة في بيرو Peru والوطنيين الأصليين في تيرادلفويجو وباتاجونيا.

من بين جميع المناطق التي زارها داروين، لم تثر أية واحدة منها متعته أكثر مما أثارتها جزر جالاباجوس Galapagos الواقعة على مسافة ٥٠٠ ميل غربي ساحل أمريكا الجنوبية. رأى داروين في هذه الجزر البركانية المنعزلة غير المأهولة التي تكاد تكون قاحلةً سلاحف عملاقة موجودة في كل مكان كحفريات ليس غير وسحليات ضخمة انقرضت منذ زمن بعيد من أجزاء العالم الأخرى، وسرطانات عملاقة وسباع بحر هائلة الحجم. وقد أدهشه بنوع خاص أن طيور تلك الجزيرة كانت شبيهة بطيور القارة المجاورة، ولكنها ليست مطابقة لها. وزيادة على ذلك، كانت هناك اختلافات بين شتى أجناس الطيور من جزيرة إلى جزيرة.

قوَّت هذه الظواهر الغريبة في جزر جالاباجوس بالإضافة إلى بعض الحقائق التي سبق أن لاحظها في أمريكا الجنوبية، قوَّت أفكار التطور التي بدأت تتشكل في ذهن داروين، وهاك روايته هو نفسه:

«دهشت دهشة بالغةً عندما اكتشفت في تكوينات البامبا حيوانات حفرية ضخمة مغطاة بدروع كدرع الأرماديلو الحالي، وثانيًا بالطريقة التي تحل بها الحيوانات الغريبة التشابه، أحدها محل الآخر في الاتجاه جنوبًا على القارة، وثالثًا بالصبغة الأمريكية الجنوبية لمعظم إنتاجات أرخبيل جالاباجوس، وخصوصًا بالكيفية التي تختلف بها اختلافًا طفيفًا في كل جزيرةٍ من مجموعة الجزر هذه. وما من جزيرةٍ منها تبدو عتيقةً جدًّا، بالمعنى الجيولوجي.»

ما عاد داروين يُصدق إطلاقًا تعاليم «التكوين» القائلة بأن كل جنسٍ خُلق كاملًا وانحدر خلال العصور دون تغيُّر.

وفور عودته إلى إنجلترا، شرع يحتفظ بمذكراته عن التطور، ويجمع الحقائق عن مختلف الأجناس، وهذا هو رأيه «أصل الأجناس». فكتب أول تسويدةٍ عن نظريتِه في

سنة ١٨٤٢م وتقع في ٣٥ صفحة، ثم وسعها في سنة ١٨٤٤م إلى صورة أكمل تقع في ٢٣٠ صفحة. كان اللغز العظيم، في البداية، هو كيف يفسر ظهور الأنواع واختفاءها؟ لماذا تنشأ الأجناس وتتحور بمرور الزمن وتتفرع إلى عدة أنواع، وتختفي في الغالب من الوجود تمامًا؟

عثر داروين على مفتاح هذا اللغز عندما قرأ، بمحض الصدفة، موضوع مالثوس عن السكان. أبان مالثوس أن معدل الزيادة في عدد السكان قد أخَّرته «عوامل إعاقة إيجابية» كالأمراض والحوادث والحروب والمجاعات، فطرأ على فكر داروين أن هناك عوامل مشابهة تعمل على انخفاض عدد الموجود من الحيوانات والنباتات، فكتب يقول:

«وإذ صرت على أتمِّ استعدادٍ لتقدير قيمة تنازع البقاء الساري في كل مكان، من ملاحظاتي المستمرة مدة طويلة لعادات الحيوانات والنباتات، طرأ على بالي، في الحال، أنه في مثل هذه الظروف، تميل الأجناس الصالحة إلى الاحتفاظ بجنسها، بينما تندثر أو تهلك الأجناس غير الصالحة، وتكون نتيجة هذا تكون أجناس جديدة. إذن، تكونت عندي هنا أخيرًا نظرية يمكنني أن أعمل على هديها.»

وهكذا ولد مذهب داروين الشهير «الانتقاء الطبيعي» أو «تنازع البقاء» أو «بقاء الأصلح» وهذا هو حجر الأساس لكتابة «أصل الأجناس».

ظل داروين مدة عشرين سنة يكتب مذكراته ويضع البراهين على نظرياته. فقرأ كميات ضخمة من النصوص — مجموعات كاملة من المجلات الدورية، وكتب الرحلات وكتب الرياضيات، وزراعة الزهور والفاكهة والخضر وتربية الحيوان والتاريخ الطبيعي العام، فكتب يقول: «عندما أتأمل قائمة الكتب التي قرأتها ولخصتها، وتشمل مجموعات كاملة من الصحف والصفقات أدهشني نشاطي.» فتحدث إلى خبراء تربية الحيوان والنبات، وأرسل مجموعات من الأسئلة إلى كل من يمكن أن تكون لديهم معلومات مفيدة. أعدت هياكل عظيمة لعدة أنواع من الطيور الأليفة، وقورنت أعمار وأوزان عظامها بعظام أجناس الطيور البرية فقام بتربية الحمام الأليف وأجرى تجارب واسعة في التهجين. كما أجرى تجارب على الفواكه والبذور الطافية على مياه البحار، وفحص عدة أمور أخرى تتعلق بانتقال البذور، مستخدمًا في ذلك جميع معلومات علم النبات وعلم الحيوان وعلم الحفريات أو الجثث المتحجرة التي اكتسبها من رحلته على ظهر سفينة البحرية «البيجل». وأضاف إلى كمية المعلومات هذه آراءه الشخصية؛ إذ كان دائم التفكير في نظرياته الثورية.

اعتقد داروين أن التدعيم القوي لمذهبه «الانتقاء الطبيعي» جاء من دراسة «الانتقاء الصناعي». ففي حالة الحيوانات الأليفة والنباتات المنزلية — الخيول والكلاب والقطط

والقمح والشعير وزهور الحدائق ونحوها — انتقى الإنسان وربى منها أكثرها نفعًا لاحتياجاته. وهكذا حورت الحيوانات الأليفة والمحاصيل والزهور خلال هذه العملية حتى إنه قلما يمكن التعرف على أنها تنتمي إلى أسلافها البرية بصِلَة. فنشأت أجناس جديدة عن طريق الانتقاء، فينتقي المُربي الحيوانات ذوات الصفات التي يريدها ولا يربي سواها، جيلًا بعد جيل، وأخيرًا ينتج أجناسًا تختلف عما كانت موجودة من قبل. فأنواع الكلاب المتباينة، مثل: الكلب الطويل الجسم، والقصير الأرجل، وكلب حراسة الأغنام، والأبيض الطويل الآذان وكلاب الصيد بجميع أنواعها، منحدرة كلها عن الذئب.

قال داروين: إذا أمكن إحداث التطور بالانتقاء الصناعي، فهلَّا تستطيع الطبيعة أن تفعل ذلك بالانتقاء الطبيعي؟ وفي الطبيعة يحل «تنازع البقاء» محل المربي. لاحظ داروين، بين جميع أنواع الحياة، أن عددًا كبيرًا من الأفراد يجب أن يهلك، لا يستطيع الحياة من بين المولود منها إلا نسبة بسيطة، تمدُّ بعض الأجناس بالغذاء أجناس أخرى. تدور المعركة بغير انقطاع، وتبيد المنافسة العنيفة الحيوانات والنباتات غير الصالحة فتنقرض، وتحدث تغييرات في الأجناس لتلائم الظروف اللازمة لبقائها.

وهكذا أصرَّ داروين على بناء حصن من البراهين لنظرياته يتحدى كل هجوم، ولكنه أهمل نشرها حتى خمسينيات القرن التاسع عشر. وأخيرًا، بعد إلحاح أصدقائه المخلصين، أخذ يعد العدة لعمل أثريٍّ يصدر في عدة مجلدات. غير أنه عندما كان ذلك العمل في منتصفه تقريبًا، نزلت صاعقة؛ إذ تسلم داروين خطابًا من ألفريد روسل والاس Alfred Russel Wallacc أحد زملائه العلماء الذي كان يقوم بأبحاث واكتشافات في التاريخ الطبيعي في أرخبيل الملايو. ذكر والاس أنه هو أيضًا يعمل فكره في أصل الأجناس، وأنه، كما فعل داروين، قرأ مالثوس فأوحى إليه بذلك العمل. تضمن الخطاب مقالًا عن «ميل أنواع الأجناس إلى أن ترحل عن شكلها الأصلي إلى غير رجعة». وكان هذا بالضبط حقيقة من حقائق نظرية داروين، فقال داروين: «لو اطلع والاس على مذكراتي الخطية التي كتبتها في سنة ١٨٤٢م، لما عمل ملخصًا خيرًا منه؛ فحتى مصطلحاته هي نفس عناوين أبواب مؤلفي.»

واجهت داروين معضلةً. فمن الجلي أن كلًّا من الرجلين قد وصل إلى نفس النتائج تمامًا، رغم أن كلًّا منهما كان يعمل وحده بمنأى عن الآخر ومستقلًّا عنه، ورغم أن داروين قضى سنوات من الدراسة والتفكير في ذلك الموضوع، بينما طرأت آراء والاس على تفكيره فجأة. وأخيرًا استقر الرأي على أن يقدم كلٌّ منهما أوراقه في الاجتماع التالي

للجمعية اللينائية Linaean وبناءً على ذلك أعلن لأول مرة عن نظرية التطور بالانتقاء الطبيعي في أول يوليو سنة ١٨٥٨م. وبعد ذلك بفترةٍ قصيرة صدر مقال كلٍّ منهما في صحيفة الجمعية.

ألهب حادث والاس حماس داروين، فترك المؤلف الضخم الذي كان يُعده، وقرر أن يكتب ما أطلق عليه «الملخص»، وقرب نهاية عام ١٨٥٩م نشر جون موراي John Murray، في لندن ذلك الكتاب الذي قُدر له أن يصبح حجر الزاوية في تاريخ العلوم، كانت الطبعة الأولى ١٥٠٠ نسخة بيعت كلها في اليوم الأول، فتبعتها طبعات أخرى حتى بلغ عدد النسخ التي بيعت في حياة داروين (مات في سنة ١٨٨٥م) ٢٤٠٠٠ نسخة في إنجلترا وحدها، وترجم ذلك الكتاب إلى جميع اللغات المتحضرة تقريبًا كان عنوان النسخة الأصلية «أصل الأجناس بواسطة الانتقاء الطبيعي أو بقاء الأجناس الصالحة في التنازع من أجل البقاء». ثم اختصر الزمن هذا العنوان الطويل إلى «أصل الأجناس».

ناقش داروين الأسس الجوهرية لنظريته في الأبواب الأربعة الأولى من كتابه «أصل الأجناس»، وتناولت الأبواب الأربعة التالية الاعتراضات الممكنة على هذه النظرية، وبعدها تأتي عدة أبواب تتناول علم طبقات الأرض والتوزيع الجغرافي للنباتات والحيوانات، والحقائق المناسبة لتصنيفها، وعلم الشكل الخارجي للكائنات وعلم الأجنة. ويلخص الباب الأخير كل ما سبق.

فسَّر داروين، في بداية كتاب «أصل الأجناس» تلك التغييرات التي حدثت للحيوانات الأليفة والنباتات المنزلية نتيجة لرقابة الإنسان. ويقارن الأنواع التي نتجت عن «الانتقاء الصناعي» بالتغيرات التي حدثت للحيوانات الأليفة والنباتات المنزلية نتيجة لرقابة الإنسان، ويقارن الأنواع التي نتجت عن «الانتقاء الصناعي» بالتغيرات التي تحدث في الطبيعة أو «الانتقاء الطبيعي» فأينما توجد الحياة يحدث التغير باستمرار، وما من فردين متشابهين تمامًا.

أضاف داروين تنازع البقاء إلى التنوع، فاستعمل بعض الأمثلة الشهيرة ليشرح كيف تزيد قدرة الكائنات الحية على التكاثر، إلى أي حدٍّ طالما لها مقدرة على الحياة، وحتى أبطأ الحيوانات في التكاثر، مثل الأفيال، سرعان ما تملأ الدنيا. فإذا كبر كل فيل إلى طول البلوغ وتكاثر طبيعيًّا، فإنه كما يقول داروين «سيكون هناك بعد مدة من ٧٤٠ إلى ٧٥٠ سنة، سيكون هناك على قيد الحياة حوالي ١٩ مليون فيل منحدرة من زوج الأفيال الأول.» ومن هذا المثال وغيره من الأمثلة، استنتج أنه «بما أن عدد الأفراد التي تولد تزيد كثيرًا على

ما يمكن أن يعيش، فلا بد أن يكون هناك تنازعٌ على البقاء، إما بين فرد ما وفرد آخر من نفس جنسه، أو بين أجناس مختلفة، أو بين الكائنات الحية وظروف الحياة الطبيعية.» لا شواذ للقاعدة القائلة بأن كل نبات أو سمك أو طائر أو حيوان، ومنه الإنسان، ينتج بذورًا إلى ما لا نهاية أكثر مما يستطيع أن يتلاءم مع العالم المزدحم أو أكثر مما يولد، ومعدل الزيادة يتبع متوالية هندسية أي متضاعفة.

كذلك قدم رسمًا بيانيًّا للاعتماد المتبادل بين الكائنات الحية كل على الآخر، وجد داروين أن التلقيح النباتي بواسطة النحل ضروري لإخصاب أزهار البانسية وبعض أنواع البرسيم.

«يتوقف عدد النحل في كل منطقة، إلى حدٍّ كبير على عدد جرذان الحقل التي تتلف خلاياها وأقراص العسل التي تصنعها … ويتوقف عدد الجرذان كثيرًا كما يعرف كل إنسان، على عدد القطط … إذن فمن المعقول جدًّا أن وجود أي حيوانٍ مفترس بأعداد كبيرة في أية منطقة يقرر عن طريق اعتماد كائن على آخر، أولًا عدد الجرذان، ثم عدد النحل، وبعد ذلك وجود زهرة معينة في تلك المنطقة.»

يبدأ كتاب «أصل الأجناس» بأن يوضح كيفية عمل مبدأ «الانتقاء الطبيعي» في إيقاف زيادة عدد السكان. يكون بغض أفراد جنس ما أقوى من غيرها أو أسرع جريًا أو أعظم ذكاءً أو أكثر مناعة للأمراض أو أقدر على احتمال قسوة الطقس. يبقى هؤلاء أحياء ويتكاثر بينما يهلك الضعفاء. يعيش الأرنب الأبيض في المناطق القطبية بينما تستأصل الثعالب والذئاب الأرانب البنية اللون والأكبر جسمًا، وعاشت الزراف الطويلة الأعناق لأنها استطاعت في وقت الجفاف الحصول على طعامها من قمم الأشجار، بينما ماتت جوعًا الزراف القصيرة الأعناق. فأكدت هذه الاختلافات مبدأ «بقاء الأصلح». وفي خلال عشرات الألوف من السنين، أدَّى ذلك إلى خلق أجناس جديدة.

يروي داروين قصة قانون السن والناب والمخلب وهي تعمل في كل مكان، فيقول:

«نبصر وجه الطبيعة مشرقًا بالبشر، وكثيرًا ما نرى وفرة الطعام، ولا نرى أو ننسى أن الطيور التي تغرِّد حولنا تتغذَّى غالبًا بالحشرات أو البذور، وهكذا تهلك الحياة باستمرار، كما لا ننسى كيف تهلك هذه الطيور المغردة ويهلك بيضها وفراخها بواسطة الطيور الجارحة والوحوش الضارية، ولا نتذكر دائمًا أنه على الرغم من الوفرة العظيمة في الطعام، فإنه لا يكون بمثل هذه الدقة في جميع الفصول المتعاقبة في العام.»

أشار داروين إلى مظهر هامٍّ من مظاهر «الانتقاء الطبيعي»، فقال: «المعتاد أن الذكور الأقوياء الأكثر ملاءمة لأماكنهم في الطبيعة، هم الذين يتركون ذرية أكثر … فالوعل العديم

القرون، أو الديك عديم المخالب القوية أضعف فرصة في ترك ذرية عديدة.» و«غالبًا ما يكون النضال بين الطيور في صورة أكثر هدوءًا.» فإن ذكور الأجناس المختلفة تسعى إلى جذب الإناث بالتغريد العذب أو بالريش الجميل أو بالقيام بحيلٍ غريبة.

وكذلك الطقس عامل قوي في الانتقاء الطبيعي؛ لأنه يبدو أن الفصول الشديدة البرودة والجفاف هي أكثر الفصول إعاقة للتكاثر ... يبدو فعل الطقس، لأول وهلةٍ، مستقلًّا تمامًا عن تنازع البقاء، ولكن طالما يعمل الطقس على إقلال الطعام فإنه يجلب في ركابه أقسى تنازع بين الأفراد، سواء من نفس الجنس أو بين أفراد الأجناس المختلفة التي تتغذى بنفس نوع الطعام. والمنتظر أن التي تعيش أكثر من غيرها هي الأفراد القوية القادرة على مقاومة الحر أو البرد، والقادرة أكثر من غيرها على الحصول على طعامها.

كتب داروين يقول:

«يتربَّص الانتقاء الطبيعي كل يوم، بل وكل ساعةٍ في العالم، بأقل الاختلافات فينبذ الرديء ويحتفظ بكل ما هو طيب، يعمل في هدوء وفي الحال كلما وأينما سنحت له الفرصة عند تحسين كل كائن عضوي تبعًا لظروف حياته العضوية أو غير العضوية. لم نبصر شيئًا من هذه التغيرات البطيئة وهي تتقدم حتى أوضحت يد الزمن انصرام العصور، وتكون نظرتنا إلى العصور الجيولوجية البالغة القدم غير كاملة، فلا نرى غير اختلاف أشكال الحياة الآن عما كانت عليه في الماضي.»

قرر داروين في آخر أبواب كتابه أنه لا حدود لقوة الانتقاء الطبيعي، واقترح أن الإنسان يمكنه «أن يستنتج من المشابهة أنه من المحتمل أن تكون جميع الكائنات العضوية التي عاشت على هذه الأرض منحدرة من صورة أصليةٍ واحدة دبَّت فيها الحياة أول ما دبت.» واعتقد أن جميع صور الحياة المعقدة بوجودها للقوانين الطبيعية، وجد أن نتائج الانتقاء الطبيعي موحية.

وهكذا نجد من حرب الطبيعة، ومن المجاعات، ومن الموت، نجد أعظم موضوعٍ نستطيع التفكير فيه، وهو إنتاج الحيوانات الراقية، هو ما يلي ذلك مباشرة. توجد عظمة في وجهة النظر هذه عن الحياة، بشتى قواها التي نفثها الخالق في بضعة صور أو في صورةٍ واحدة، وبينما يدور هذا الكوكب تبعًا لقانون الجاذبية الثابت، فمن هذه البداية البسيطة نشأَت صور لا تُحصى في غاية الجمال والعجب، ولا تزال تنشأ.

على هذا النحو كانت نظرية التطور اللانهائي التي قدمها كتاب «أصل الأجناس». ومع ذلك، فعلى نقيض الاعتقاد السائد أن داروين لم يخلق نظرية التطور، فهذه الفكرة

أقدم من أريسطو ولوكريتوس. أيد هذا المذهب كثيرٌ من العقول البالغة الذكاء أمثال: بوفون Buffon وجوتيه Goethe وإيراسموس داروين Erasmus Darwin (جد شارل)، ولامارك Lamarck وهربرت سبنسر Herbert Spencer … اشتهرت نظرية شارل داروين في ناحيتين؛ الأولى قدم البراهين، التي تقبل الجدل، للتدليل على حقيقة التطور أكثر مما قدم من سبقوه. والثانية أنه قدم نظريته الشهيرة عن الانتقاء الطبيعي بتفسير معقول لطريقة التطور.

شُبِّه تهافت معاصري داروين على كتاب «أصل الأجناس»، بحريقٍ هائل انطلق كالبرق في جرنٍ، فإذا كانت هذه النظرية الثورية الجديدة صحيحةً، فلا يمكن بعد ذلك قبول قصة التوراة عن الخليقة؛ فأدركت الكنيسة، من فورها، أن مذهب داروين خطر على الدين وأقامت عاصفة من المعارضة، وعلى الرغم من أن داروين كان على جانب كبير من الحذر ولم يطبِّق نظريته على الجنس البشري، فقد ذاع اتهامه بأن ذلك المؤلف يقول إن الناس منحدرون عن القردة.

قامت محاولات للحط من قدرة داروين عن طريق السخرية، فوصفه مقال في صحيفة كوارترلي رفيو Quarterly Review بأنه «شخصٌ واهم» يحاول في كتابه «أن يدعم نسيج تخمينه العفن تمامًا وتأملاته القذرة»، وأن «طريقة تناوله للطبيعة مخزية للعلوم، أي خِزي.» أما صحيفة سبكتاتور Spectator فلم تعجبها هذه النظرية «لأنها تنكر الغايات الأخيرة، وبذا تدل على فَهْم غير أخلاقي من جانب المدافعين عنها.» وزيادة على ذلك اتهم داروين بجمع كمية من الحقائق لتدعيم مبدأ زائف، و«لا يمكنك أن تصنع حبلًا من سلسلة من الفقاقيع الهوائية.» وتساءلت إحدى الصحف عما إذا كان بالإمكان تصديق أن جميع أنواع اللفت الصالحة، تميل إلى أن تصير أناسًا. ولما لم تكن في إنجلترا محاكم تفتيش دينية، فإن الأثينايوم Athenaeum أوصت في صحيفة مناهضة أخرى بإرسال داروين «تحت رحمة القاعة المقدسة وطائفة الكهنة وقاعة المحاضرة والمتحف.» فكان تعليق داروين على ذلك: «لن يحرقني هذا، على أية حال، ولكنه سيعد الغابة ويعلم الوحوش السود كيف تمسكني.»

لم يسمح الأستاذ هيويل Whewell بوضع نسخةٍ من كتاب «أصل الأجناس» في مكتبة كلية كامبريدج التي تربى وتعلم فيها داروين.

حظي داروين بتأييد قوي من زملائه العلماء، كما عارضه البعض مرة. مثَّل وجهة النظر الرجعية أشخاص مثل أوين Owen في إنجلترا، وأجاسيز Agassiz في أمريكا، فقرر

كلٌّ منهما أن الأفكار الداروينية هرطقة علمية، وسرعان ما سيطويها النسيان. ووصف العالم الفلكي السير جون هرشيل Herchel الداروينية بأنها «قانون قلب الأوضاع.» وقرر سدجويك Sedgwick أستاذ داروين لعلم طبقات الأرض بجامعة كامبريدج أن هذه النظرية «باطلة وشريرة بدرجة محزنة.» وكتب داروين يقول: «إنه ضحك حتى آلمه جنباه من شدة الضحك» على كتابه إذ اعتبره «آلة وحشية مثل قاطرة الأسقف ويلكنز Wilkins التي كانت ستبحر بنا إلى القمر.»

رغم كل هذا، لم يعدم داروين الأبطال الشجعان وكان في مقدمة هؤلاء شارل لايل Charles Lyell عالم طبقات الأرض، وتوماس هوكسلي Huxley أستاذ علم الأحياء، وجوزيف هوكر Hooker عالم النبات، آسا جراي Asa Gray عالم النبات الأمريكي الشهير. وأكثر من اعتمد عليه داروين من بين كل هؤلاء؛ هو هوكسلي الذي أطلق عليه اسم «الوكيل العام»، والذي أشار إليه أنه «الحارس الوفي (بولدوج) لداروين.» لم يكن داروين رجل جدل، ولم يظهر قط في الاجتماعات العامة ليدافع عن نظريته، وإنما الذي اضطلع بمعظم الدفاع هو هوكسلي القدير الغيور.

كان هوكسلي هو الذي لعب أحد الدورين الهامين في اجتماع الجمعية البريطانية في أكسفورد سنة ١٨٦٠م. كان برنامج الاجتماع هو النظرية الداروينية. كان المدفع الأكبر في جانب المعارضة هو الأسقف وبرفورس Wiberforce أسقف أكسفورد. وفي نهاية خطاب صاخب ظنه حطم نظرية داروين، استدار الأسقف إلى هوكسلي وهو جالس على منصة الخطابة، وسأل متهكمًا: «أود أن أسأل الأستاذ هوكسلي: هل جاء الانحدار عن القرد، من ناحية جده أو من ناحية جدته؟» فصاح هوكسلي يكلم أحد أصدقائه بقوله: «لقد أسلمه الرب بين يدي.» وصعد ليجيب على السؤال. ويقال إنه قال:

«لا يحق للمرء أن يخجل من أن جده قرد، وإنما الجد الذي أشعر بالعار منه هو إن كان رجلًا مضطرب الذكاء متقلبه، لا يقنع بالنجاح في مجال عمله، وإنما يقحم نفسه في أمور علمية لا يلم بها إلمامًا حقيقيًّا فيلقي الغموض عليها ببلاغة عديمة الهدف، ويسرح بانتباه سامعيه بعيدًا عن جوهر الموضوع بانحراف بلاغي ونداء بارع إلى التعصب الديني.»

هذا هو أحد الاصطدامات العديدة بين الكنيسة والعلم بسبب المذهب الدارويني والتطور الذي استمر أواره في السنين اللاحقة.

عدلت آراء داروين عن الدين عندما تقدمت به السن. فلما كان شابًّا، آمن بفكرة الخليقة الخاصة دون إبداء أي سؤال عبر في حياته وخطاباته عن اعتقاده بأن الإنسان سيكون في المستقبل البعيد مخلوقًا أكثر كمالًا عمَّا هو الآن.

وأضاف داروين يقول:

«أثر في مصدر آخر للتساؤل عن وجود «الله» يتصل بالعقل وليس بالمشاعر، على أنه أكثر أهمية. جاء هذا من الصعوبة البالغة، أو بالأحرى من استحالة تصور هذا العالم الشاسع العجيب الذي يشمل الإنسان ذا القدرة على النظر إلى الماضي وإلى المستقبل نتيجة الفرصة العمياء أو الحاجة العمياء. وبينما أنا أتأمل هذا، أشعر بأنني مضطرٌّ إلى النظر إلى كائن أول ذي عقل ذكيٍّ إلى درجة أنه يشبه عقل الإنسان. وإنني لأستحق أن أُوصف بالإلحاد. كانت هذه الفكرة قوية في ذهني في حوالي الوقت الذي كتبت فيه «أصل الأجناس» حسبما أستطيع أن أتذكر. ومنذ ذلك الوقت أخذ يضعف تدريجيًّا مع بعض التغيرات. ولكن عندئذٍ ينشأ الشك؛ أمن الممكن أن نثق في عقل الإنسان، الذي كما أعتقد، متطور عن عقل كعقل أدنى حيوان، أمن الممكن أن نثق فيه عندما يستنتج مثل هذه النتائج؟»

عند ذلك رفع داروين يديه وقال:

«لا أدَّعي أنني ألقيت أقل ضوء على مثل هذه المسائل؛ فلغز نشأة جميع الكائنات مستحيل الحل بواسطتنا، وإنني كفرد يجب أن أقنع بأن أبقى من أنصار مذهب عدم كفاية العقل البشري لفهم الوحي.»

تلا كتاب «أصل الأجناس» سيل من الكتب بقلم داروين السيال، تناولت مواضيع أكثر تخصصًا خططت لتكون ملحقًا للتطور بالانتقاء الطبيعي وتكمله وتدعمه، ذلك التطور الذي قدم بطريقة مفهومة في كتاب «أصل الأجناس». فصدر أولًا مجلدان صغيران بعنوان «عن شتى الطرق التي تلقح بها الأوركيدات بواسطة الحشرات»، و«طبائع النباتات المتسلقة». وبعدهما ظهر مؤلفان ضخمان: «تنوع الحيوانات والنباتات بالاستئناس»، و«انحدار الإنسان والانتقاء بالنسبة للجنس». وتناولت الكتب التالية التعبير عن العواطف في الإنسان والحيوان، والنباتات آكلة الحشرات، وآثار الإخصاب بالتهجين، وقوة الحركة في النباتات، وتكون الفطر النباتي.

تعمد داروين في كتاب «أصل الأجناس» أن يخفف من مناقشة موضوع نشأة الإنسان؛ لأنه اعتقد أن أي تأكيدٍ لمرحلة التطور يسبب نبذ نظريته كلها. ومع ذلك فقد قدَّم كمية ضخمة من الأدلة في «انحدار الإنسان» ليشرح أن الجنس البشري هو أيضًا ناتج عن التطور من صور أدنى.

ومن وجهة نظر الماضي، كان انطباع داروين لجميع مجالات العلوم العظمى تقريبًا؛ عميقًا ومستمرًّا في تعمقه. فقبل علماء الأحياء مذهب التطور العضوي، وكذلك فعل علماء طبقات الأرض والكيميائيون وعلماء الفيزياء، كما قبله علماء الأجناس البشرية والعلماء النفسانيون والمعلمون والفلاسفة وعلماء الاجتماع، وحتى علماء التاريخ وعلماء السياسة وفقهاء اللغة. فكتب شارلز الوود Charles Ellwood، يقول:

«عندما يتأمل المرء في الأثر الضخم لمؤلف داروين على جميع فروع الفكر البشري ولا سيما على علوم الأحياء والنفس والاجتماع، يجد نفسه مضطرًّا إلى استنتاج أن ... يجب إعطاء داروين أسمى مقعد شرفي كأعظم مفكر استثمر أفكاره في القرن التاسع عشر، ليس في إنجلترا وحدها وإنما في العالم أجمع. وإن الأهمية الاجتماعية لتعاليم داروين قد بدأت في الدخول إلى الأفهام.»

ذكر وست West في كتابته عن «أصل الأجناس»: «كان الأثر بالغًا بحق. فبمجرد تقديم مبدأ جديد حركي وليس ساكنًا، قلب كل فرع للدراسة، من علم الفلك إلى التاريخ، ومن علم الحفريات إلى علم النفس ومن علم الأجنة إلى الدين.»

ومن ناحية أخرى، كانت هناك تطبيقاتٌ لنظريات داروين، لا شك في أنه استاء منها، مثال ذلك الفاشية التي استخدمت فكرة الانتقاء الطبيعي، أو بقاء الأصلح لتبرِّر تصفية أجناس بعينها. وبنفس هذه الطريقة دوفع عن الحروب بين الأمم، بأنها وسيلةٌ لإبادة الضعفاء واستمرار بقاء الأقوياء. كذلك حُرِّفت الداروينية بواسطة أنصار الماركسية لتطبيقها على تنازع الطبقات، كما بررت جماعات الأعمال الوحشية، بواسطة الداروينية طرق إبادة المجتمعات الصغيرة لنفس الأسباب.

ولما كان داروين دقيق الملاحظة والتجارب بصورةٍ خارقة؛ فقد بقي مؤلفه راسخًا في معظم أحواله عندما اتسع نطاق المعارف العلمية. ورغم أن نظرياته قد عدَّلتها اكتشافات العلوم الحديثة، فإنه نجح في التنبؤ بصورة مدهشة، بالآراء السائدة الآن في علم الوراثة والحفريات ومجالات عديدة أخرى.

جاء تقدير آخر لمكانة داروين السامية في تاريخ العلوم من عالم أحياء عظيم آخر هو جوليان هوكسلي Julian Huxley حفيد زميل داروين وصديقه والمدافع عنه، فقال جوليان:

وضع مؤلف داروين ... عالم الحياة في نطاق القانون الطبيعي. لم يعد من الضروري أو من الممكن أن نتصور أن كل نوع من الحيوان أو النبات قد خلق خلقًا خاصًّا، ولا أن

طرقه الجميلة البارعة في الحصول على غذائه أو الفرار من أعدائه، قد ذكرت فيها قوة خارقة ولا أن هناك غرضًا مقصودًا وراء هذه العملية الثورية. فإذا كانت فكرة الانتقاء الطبيعي صحيحة، فإن الحيوانات والنباتات والإنسان نفسه قد صارت إلى ما هي عليه الآن بأسباب طبيعية، عمياء وتلقائية، كتلك التي تحدث لتشكيل هيئة الجبل، أو التي تجعل الأرض والكواكب الأخرى تدور حول الشمس في أفلاك إهليلجية. ينتج التنازع الأعمى للبقاء وتنتج عملية الوراثة العمياء تلقائيًّا لانتقاء أكثر الأنواع ملاءمة للبقاء، ولتطور الأجناس نحو التقدم.

مكننا مؤلف داروين من أن نرى مركز الإنسان وحضارتنا الحالية، في نورٍ حقيقيٍّ. ليس الإنسان سلعة فرغ من صنعها، فصار غير قابل للتقدم أكثر من ذلك. إن وراءه تاريخًا طويلًا، ليس تاريخًا نحو التقهقر والهبوط، وإنما هو نحو الصعود. وأمامه إمكان التطور التقدمي أكثر مما هو عليه. وزيادة على ذلك، ففي ضوء التطور، علينا أن نتعلم أن نكون أكثر صبرًا. بالقياس إلى المليون سنة التي عاشها الإنسان على الأرض، والألف مليون سنة لتقدم حياته، وبوسعنا أن نتذرع بالصبر عندما يؤكد لنا علماء الفلك أن أمامنا على الأقل ألف مليون سنة أخرى لنتطور فيها تقدميًّا إلى صور سامية جديدة.

الفصل الخامس عشر

العالم النفساني للاواعي: سيجموند فرويد[1]

تفسير الأحلام

اتفق على أن علم النفس يختلف عن سائر فروع المعارف الأخرى في أنه أكثرها غموضًا وأعظم لغز بينها، وأقل جميع العلوم قابليةٌ للبرهان العلمي. ففي طبيعة الأشياء، لا مفر من الزوغان وعدم قبول التكهن؛ لأن العالم النفساني يتناول أعظم الظواهر الطبيعية غموضًا. فأية نظرية في الكيمياء أو في علم الفيزياء، يمكن تحقيقها أو البرهنة على صحتها بخلاف صحة أية نظرية في علم النفس. ومن هنا نشأت عاصفة الجدل بين سيجموند فرويد والمحللين النفسانيين لمدةٍ تزيد على الستين عامًا.

وسواء قبلت نظريات فرويد البرهنة أو لم تقبلها، فقد كان لها تأثيرٌ منقطع النظير على الفكر الحديث. وحتى أينشتين نفسه لم يمس تصورات معاصريه أو يتدخل في حياتهم مثلما فعل فرويد. صاغ فرويد أفكارًا ومصطلحاتٍ في محيط المناطق المجهولة من العقل، صارت جزءًا من حياتنا اليومية. لقد أحسَّ بآثار تعاليمه كل مجال من المعارف — الأدب والفن والدين وعلم الأجناس البشرية والتعليم والقانون وعلم الاجتماع وعلم الإجرام والتاريخ، وتاريخ حياة الأفراد وغير ذلك من دراسات المجتمع والفرد.

---

[1] Sigmund Frued.

رغم كل ذلك، هناك بعض الحلاوة والضوء في هذه التعاليم. وقد أبدى أحد النقاد غير الأوفياء ملاحظته قائلًا:

«عندما انتشرت نظريات فرويد، ظهر أمام الرجل العامي كأعظم مفسد للسرور في تاريخ الفكر البشري، يحوِّل مزاح الإنسان ومرحه إلى كبتٍ محزن غريب، ويجد العداوة في جذور الحب والضغينة في قلب الرقة، والزنا بالأقارب في المحبة البنوية، والإجرام في السخاء وكراهية الأب المكبوتة، كطبيعةٍ بشرية عادية موروثة.»

ومع هذا، فبسبب فرويد، تختلف فكرة الناس اليوم عن أنفسهم. يعتقدون أن أفكار فرويد مثل تأثير عدم اكتمال الإدراك على الوعي، والأساس الجنسي لاضطراب وظائف الأعصاب، ووجود الغريزة الجنسية لدى الأطفال وأهميتها، ووظيفة الأحلام، وعقدة أوديب، والكبت والمقاومة وقراءة الأفكار، يعتقدون أن هذه الأفكار أمور عادية. ثم إن عيوب الإنسان كفلتات اللسان ونسيان الأسماء وعدم القدرة على تذكر الروابط الاجتماعية، تتخذ أهمية جديدة عند النظر إليها من وجهة نظر فرويد. ومن الصعب الآن إدراك مقدار التعصب الذي كان على فرويد أن يتغلَّب عليه عند نشر نظرياته؛ إذ كان ذلك أشد بكثيرٍ مما لاقاه كوبرنيكوس وداروين.

عندما وُلد فرويد في فرايبرج Freiberg إحدى مدن مورافيا Moravia. لم يكن كتاب «أصل الأجناس» قد ظهر بعد. كان ذلك في سنة ١٨٥٦م. وكان أسلاف فرويد مثل أسلاف كارل ماركس، حاخامات، بيد أن فرويد على عكس كارل ماركس، قال: «بقيت يهوديًّا.» انتقل فرويد وهو في الرابعة من عمره مع أسرته، إلى فيينا حيث قضى كل صباه. وتبعًا لأهم كاتب لتاريخ حياته إرنست جونز Ernest Jones يدين لوالده تاجر الصوف، «بارتيابه الحكيم في تقلبات الحياة غير المؤكد، وعادته في ذكر مبدأ أخلاقيٍّ برواية قصة يهودية، وعدم اعتقاده في أمور الدين.» وعاشت والدة فرويد حتى بلغت الخامسة والتسعين من عمرها، شخصية جمة النشاط وافرة الحيوية، وكان سيجموند هو مولودها البكر وابنها المحبب. وبعد ذلك كتب يقول: «إن الإنسان المتمتع بالحظوة غير المتنازع فيها لدى أمه، يحس طول حياته بمشاعر القاهر، وهي الثقة بالنجاح الذي يحث غالبًا على النجاح الحقيقي.»

أولع فرويد في أول حياته بنظريات داروين لأنه أحس بأنها «توحي بآمالٍ في تقدم خارق لمفهومنا عن العالم.» وإذ رغب في أن يكون طبيبًا، التحق بجامعة فيينا ليدرس الطب، ونال البكالوريوس في سنة ١٨٨١م. وإذ عُيِّن طبيب امتياز مقيمًا في المستشفى العام، استمر في دراسة علم الأعصاب وتشريح المخ. وبعد بضع سنوات، حدث التغير

في حظه الذي انتهى برسوخ شهرته العالمية. صحبه زميل جائل إلى باريس ليعمل تحت إمرة جان شاركو Jean Charcot، الذي كان وقتئذٍ أستاذًا فرنسيًّا واسع الشهرة في علم الأمراض وأخصائيًّا في الأعصاب فحظي بالاتصال المباشر بأعمال شاركو في الهستيريا وعلاجه لها بالتنويم الإيحائي، ومما أعجب فرويد برهنة شاركو على «صحة الظواهر الهستيرية، وكثرة حدوثها للرجال، وإحداث الشلل الهستيري وانقباض العضلات الهستيري بالتنويم الإيحائي.» ومشابهتها في مظهرها عمومًا بنوبات الهستيريا الحقيقية.

غير أنه لما رجع فرويد إلى فيينا، لم يستطع إقناع زملائه الأطباء بأي أساس علميٍّ لعلاج الاضطرابات العصبية بطرق التنويم المغناطيسي، والأدهى من ذلك أنه عُوقب على آرائه المتطرفة باستبعاده من معمل تشريح المخ. ومنذ ذلك الوقت صار شخصيةً منعزلة وانسحب من الحياة الأكاديمية، وانقطع عن حضور اجتماعات جمعيات العلماء. وأثناء ممارسته الخاصة للطب، استمر عدة سنوات يجري التجارب بالتنويم المغناطيسي، ولكنه هجر تدريجيًّا إذ لم يخضع لتجاربه غير القليل من الناس، ولأن التنويم المغناطيسي نفسه ينتج أحيانًا آثارًا مفجعة على الشخصية التي ينوِّمها. فاستعاض عن ذلك بتطوير الطرق المعروفة باسم «المشاركة الحرة» التي صارت منذ ذلك الوقت مهنة التحليل النفسي الأصلي.

لا جدال في أن فرويد هو مؤسس طب الأمراض العقلية الحديث. فقبل عصره كان طب الأمراض العقلية يتناول أغراض الجنون، مثل انشقاق الأنف ومرض العقل الجنوني الهبوطي، الذي يحتاج إلى العزل في مستشفى الأمراض العقلية. بدأ فرويد عمله الإكلينيكي بعلاج حالات الكبت والتنازع العصبي. وسرعان ما استنتج أن مثل هذه التنازعات ليست قاصرة على مرضى الأعصاب، بل تصيب أيضًا سليمي العقول. وعلاوة على ذلك، ليست الاضطرابات العصبية أمراضًا بالمعنى الصحيح، بل حالات نفسية للعقل. وكانت المشكلة الكبرى هي كيفية علاج هذه الاضطرابات العقلية الواسعة الانتشار. وبناءً على ملاحظاته وتجاربه وممارسته علاج كثيرٍ من مرضى فيينا، بنى أسس التحليل النفسي في أواخر ذلك القرن.

كان فرويد من أعظم كتاب العلوم الكثيري التصانيف في عصرنا. فلا يمكن أن نجد مجموعة الأفكار الجديدة والآراء السيكولوجية التي خرجت من قلمه، في أي كتاب فرد أو صحيفة واحدة. ومن المحتمل أنه كان ينظر إلى أول مؤلف له، وهو المؤلف العظيم «تفسير الأحلام»، الذي صدر في سنة ١٩٠٠م كأكثر مؤلفٍ حبيب إلى نفسه، ويضم جميع الملاحظات والآراء الأساسية تقريبًا. وفي أحد مؤلفاته الأولى بعنوان «دراسات في الهستيريا»

الذي نُشر في سنة ١٨٩٥م، ذكر اعتقاده بأن الاضطرابات الجنسية هي «العامل الأساسي وأهم أسباب الاضطرابات العصبية والاضطرابات العصبية النفسية.» وهي أحد أحجار الزاوية في نظرية التحليل النفسي. وفي السنوات القليلة التالية كتب فرويد آراءه في المقاومة وانتقال الأفكار ومشاكل الجنس في عهد الطفولة، والعلاقات بين الذكريات البغيضة والأوهام، وميكانيكية الدفاع والكبت.

يبين ملخص موجز للنظريات الأساسية، شيئًا من تعقيد التحليل النفسي. فأولًا، ليست كلمة الأمراض العقلية وكلمة الأمراض العقلية النفسية مترادفتين. يمكن اعتبار الأمراض العقلية النفسية فرعًا من الأمراض العقلية وتطبق عمومًا على أشد حالات اضطرابات الشخصية صعوبة. ثم يمكن تعريف التحليل النفسي بأنه فنٌّ علاجي لمداواة الاضطرابات العصبية والنفسية. وتبعًا لتقرير حديث، يوجد مجرد ثلاثمائة أخصائي في التحليل النفسي من بين أربعة آلاف طبيب نفساني في الولايات المتحدة الأمريكية.

لم يعجب العلاج الفردي فرويد إلا نادرًا، واعتبر حالات سوء التكوين النفسي في الأفراد، كأعراض الخلل الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للعالم المعاصر. كان غرضه مهاجمة المرض جذريًّا.

يتفق معظم النقاد على أن حق فرويد في الشهرة الدائرة يعتمد على اكتشافه وارتياده للعقل غير الواعي. فقارن عقل الإنسان بجبل جليد ثمانية أتساعه مغمورة تحت السطح فقال إن معظم العقل مختفٍ داخل اللاواعي. وتوجد تحت السطح دوافع ومشاعر وأغراض، لا يخفيها المرء عن غيره فحسب، بل وعن نفسه أيضًا. ويقول علم النفس الفرويدي إن العقل اللاواعي هو المسيطر، بينما النشاط الواعي مختصر إلى مركز تابع، وإذ توصَّلنا إلى فهم الأعماق الكبيرة وغير المعروفة للعقل اللاواعي، عرفنا الطبيعة الداخلية للإنسان. فقال فرويد إن معظم تفكيرنا لا واعٍ، ولا يصير واعيًا إلا صدفة. والعقل اللاواعي هو مصدر الاضطرابات العصبية لأن الفرد يحاول أن يزيح ذكرياته البغيضة ورغباته الباطلة إلى تلك المنطقة، ولكنه لا ينجح إلا في حفظها للمتاعب المستقبلة.

قسَّم فرويد النشاط الذهني للفرد على أنه يحدث على ثلاثة مستويات أطلق عليها: Id[٢] الأيد، والذات ego والذات السامية superego. والأيد ذات أهمية أولى. ويقول فرويد إن

[٢] Id لفظ مختصر من كلمة Idioplasm وهي الوحدة الوراثية أو البلازما الوراثية أو أداة الوراثة في النواة.

«منطقة عمل الأيد هي الجزء المظلم غير الممكن الوصول إليه من شخصيتنا. والقليل الذي عرفناه عنها، عرفناه عن طريق دراسة الأحلام وتكوين أعراض الاضطرابات العصبية.» والأيد هي مركز الغرائز والانفعالات البدائية، وتمتد إلى الوراء، إلى الماضي الحيواني، وهي حيوانية وجنسية في طبيعتها. إنها غير واعية. ويستطرد فرويد فيقول: «تحتوي الأيد على كل شيء موروث وكل ما هو موجود عند الميلاد وكل ما هو ثابت في تكوين الشخص.» الأيد عمياء متهورة وكل غرضها هو تحقيق رغباتها وملذاتها دون تقدير للعواقب. وبنفس ألفاظ ثوماس مان Thomas Mann «لا تعرف أية قيم ولا خيرًا ولا شرًّا ولا أخلاقًا.»

الطفل الحديث الولادة نموذج الأيد. وبالتدريج تنمو الذات من الأيد أثناء نمو الطفل، وبدلًا من أن تكون الذات منقادةً تمامًا بمبدأ اللذة، يحكمها مبدأ الحقيقة. تعي الذات العالم حولها مدركة وجوب كبح ميول الأيد الجامحة منعًا لخرق قوانين المجتمع وكما قال فرويد، إن الذات هي الوسيط «بين مطالب الأيد الطائشة وتحريم العالم الخارجي.» وعلى هذا تعمل الذات بمثابة رقيبٍ على دوافع الأيد وتلائمها تبعًا للمواقف الحقيقية مدركة أن تحاشي العقاب أو حتى صيانة النفس، قد تعتمد على مثل هذا الكبت. وقد ينتج عن الصراع بين الذات والأيد اضطرابات عصبية تؤثر على شخصية الفرد.

وأخيرًا، هناك العنصر الثالث للعملية الذهنية، وهو الذات السامية superego، التي يمكن التوسع في تعريفها بالوعي. وكتب أ. أ. بريل A. A. Brill، وهو أعظم أنصار فرويد في أمريكا، كتب يقول:

«الذات السامية أرقى تطور ذهنيٍّ يمكن أن يصل إليه الإنسان، وتتألف من رواسب جميع المحرمات وجميع القواعد الشخصية التي يطبعها الوالدان في الطفل والبدائل الأبوية. ويتوقف الإحساس بالوعي كلية على نمو الذات السامية.»

وتشبه الذات السامية الأيد في كونها غير واعية، وكلتاهما في صراعٍ دائم بينما تعمل الذات حكمًا بينهما. وتكمن المثل الأخلاقية وقواعد السلوك في الذات السامية.

عندما تكون الأيد والذات السامية في انسجامٍ معقول، يكون الفرد طيب المزاج سعيدًا. أما إذا صرحت الذات للأيد بخرق القوانين، أحدثت الذات السامية قلقًا وإحساسًا بالإثم وغيرهما من مظاهر الوعي …

هناك عامل آخر قريب الشبه من الأيد. أوجده فرويد، وهو نظريته عن الشهوة الجامحة Iibido، فيقول إن جميع انفعالات الأيد مشحونة بصورة من «النشاط النفسي» اصطلح على تسميته libido، أي الشهوة الجامحة «جوهر مذهب التحليل النفسي.»

ويعتبر جميع ما يتعلمه المرء من ثقافةٍ وفنٍّ وقانون ودين وغير ذلك من تطورات للشهوة الجامحة. وبينما يشار إلى هذه الشهوة بأنها نشاطٌ جنسيٌّ، فالواقع أن كلمة «جنسي» تستعمل في معنى واسع جدًّا. فتتضمن في حالة الأطفال الحديثي الولادة أعمالًا منها مص الإبهام والرضاعة بالبزازة والتبرز. وفي السنين اللاحقة، قد تنتقل الشهوة إلى شخص آخر عن طريق الزواج، وتتخذ صورة انحراف جنسيٍّ، أو يعبر عنها بخلق فنيٍّ أو أدبي أو موسيقي — وهذه عملية تعرف باسم «الإحلال». والغريزة الجنسية في رأي فرويد، هي أعظم مصدر للعمل الخلاق.

يقرر فرويد في أعظم نظريات التحليل النفسي جدلًا؛ أنه تحت تأثير الشهوة الجنسية، تنمو في الطفل إحساسات جنسية نحو والديه مبتدئًا بأولى اللذات الجنسية المشتقة من التغذية بثدي أمه، فتكون لدى الطفل صلة حب لأمه، وعندما تتقدَّم به السن، ولكن في سن مبكرة، تنمو لدى الطفل الذكر انفعالات جنسية قوية نحو أمه، بينما يمقت أباه ويخافه كمنافسٍ له. أما الطفلة الأنثى فقد تبتعد عن صلتها القريبة بأمها وتقع في حب أبيها وتصير الأم موضع كراهيتها ومنافسة لها. وبتطبيق هذه النظرية على الطفل الذكر، يطلق عليها اسم «عقدة أوديب» التي أخذت اسمها من الشخصية الأسطورية الإغريقية القديمة «أوديب» الذي قتل أباه وتزوج أمه. وقال فرويد إن عقدة «أوديب» موروثة عن أسلافنا البدائيين الذين قتلوا آباءهم في ثورات الغيرة. وعندما يصل الشخص الطبيعي إلى طور البلوغ تنمو فيه الدوافع الأوديبية. أما الأفراد الضعاف فقد لا ينجحون إطلاقًا في قطع الصلة بالأبوين، وبذا ينقادون إلى سلسلةٍ من الاضطرابات النفسية.

الواقع أن فرويد قرَّر يقول: «إن الاضطرابات النفسية، بدون استثناءٍ، اضطرابات للوظيفة الجنسية.» وزيادة على هذا، فلا يمكن إلقاء اللوم على الاضطرابات العصبية فيما يختص بالزيجات الفاشلة أو شئون الحب غير الناجح لدى البالغين. بيد أنه يمكن أن نعزو كل هذه إلى العقد الجنسية للطفولة المبكرة. وبتطبيق نظريته على مجال علم الأجناس البشرية، استنتج فرويد في كتابه «الشعارات والمنبوذين Totem a Taboo» أن الطبيعة والأساطير الدينية للإنسان البدائي نتيجة لعقد الأب والأم. وكان يعتقد أن الدين مجرد تعبير عن عقدة الأب. وبعد تحاليل مفصلة لمئات الحالات التي جاءته للعلاج، رفع الغريزة الجنسية والرغبات الجنسية إلى دورٍ بالغ الشأن في تكوين الشخصية، كما جعلهما السبب الرئيسي في الاضطرابات العصبية. وهذا حكم رفضه بعض مشاهير أخصائيي التحليل النفسي، كما سنبين فيما بعد.

ولما أجبر المجتمع الفرد على أن يوقف الكثير من رغباته الملحة، فإنه يطوي نفسه على كثيرٍ من الكبت بطريقةٍ غير واعية. وإذا استخدمنا مصطلح فرويد: ينجح وعي المرء في منع «قوى اللاوعي المظلمة» التي كتبت ومنعت من الظهور مرةً ثانية. ورغم هذا فإن الأشخاص المصابين بالاضطرابات العصبية، قد يعانون فترات من الاضطرابات العاطفية بسبب مثل هذه الرقابة. فيقول فرويد: إن من وظيفة العلاج بالتحليل النفسي أن يكتشف حالات الكبت ويحلَّ محلها حالات الحكم الصحيح التي قد ينتج عنها إمَّا القبول وإما نبذ ما سبق رفضه. وبسبب الطبيعة المؤلمة للمادة المكبوتة فقد جرت العادة أن يحاول المريض منع اكتشاف كبته. ويطلق فرويد على هذه المجهودات «مقاومات» ويهدف الطبيب إلى التغلُّب عليها.

نعرف الآن تلك الطريقة التي ابتكرها فرويد لتناوُل حالات الكبت والمقاومات، تُعرف باسم «التسلسل الحر للأفكار» — سيل من حديث العقل الواعي بواسطة مريضٍ راقدٍ على سرير أخصائي التحليل النفسي في حجرة خافتة الضوء. يشجع المريض على أن يقول كل ما يدور في رأسه بينما يتوقَّف عن إعطاء أي اتجاهٍ واعٍ لأفكاره. ويقرر فرويد أن طريقة التسلسل الحر للأفكار هي الطريقة الفعَّالة الوحيدة لعلاج اضطراب الأعصاب، وقد حققت ما كان ينتظر منها، وهو إظهار المادة المكبوتة إلى الصورة الواعية، تلك المادة التي احتجزتها المقاومات، وقد وصف بريل طريقة فرويد مع المرضى بقوله: «حثهم على أن يظهروا كل انعكاس واعٍ ويستسلموا إلى التركيز الهادئ ويتتبعوا أحداثهم الذهنية التلقائية، ويفضوا إليه بكل شيء. وبهذه الطريقة حصل أخيرًا على تلك الأفكار المتسلسلة في حرية، والتي تقود إلى أصل الأعراض.» وهذه المادة المنسية التي يستخرجها المريض من العقل غير الواعي بعد مدة ربما تصل إلى شهور من علاج التحليل النفسي، تمثل عادة شيئًا مؤلمًا مقيتًا ومخيفًا وذميمًا من الماضي، وهي مواد يمقت المريض أن يتذكرها بوعيٍ.

لا بد، في مثل هذه العملية، أن تُحدث تلك الذكريات الهائمة كمية من المعلومات غير الملائمة والعديمة النفع. إذن، يتوقَّف كل شيء على مقدرة الطبيب على تحليل مادتِه نفسيًّا، تلك المادة التي، كما أشار مختلف النقاد، يمكن تفسيرها بعددٍ لا نهائيٍّ من الطرق. وعلى ذلك يكون ذكاء ومهارة أخصائي التحليل النفسي على جانب كبير من الأهمية الأساسية.

ومن خلال معالجة فرويد لمرضاه بالتحليل النفسي اكتشف ما أطلق عليه اسم «عامل ذي أهمية لا يحلم بها.» وهو علاقة عاطفية شديدة بين المريض والطبيب المحلل وهذا يسمَّى «قراءة الأفكار أو انتقال الأفكار».

لا يقنع المريض بالنظر إلى الطبيب المحلل النفساني في ضوء الحقيقة كمساعدٍ وناصح ... بل على العكس يرى المريض في طبيبه النفساني إعادة شخص على شيء من الأهمية في طفولته أو ماضيه. ويعني بهذه الإعادة «إعادة التجميع» — ونتيجة لهذا ينقل إليه مشاعر وانفعالات تنطبق بلا شكٍّ على هذا النموذج.

«يمكن أن تتفاوت قراءة الأفكار بين نهايتين إحداهما محبة عاطفية ذات صفة جنسية كاملة، والأخرى تعبير منفلت الزمام من التحدي والكراهية المريرتين.» وفي هذا الموقف يكون الطبيب النفساني المحلل «كقاعدة، في موضع أحد والدي المريض، أبيه أو أمه.» ويعتبر فرويد حقيقة قراءة الأفكار «خير أداةٍ للعلاج النفسي» — بيد أن تناولها يظل أصعب وأهم جزء في فن التجميل. ويقرر فرويد أن المشكلة «تحل بإقناع المريض بأنه يستعيد ممارسة علاقات عاطفية نشأت في طفولته المبكرة.»

ومن الطرق المثمرة الأخرى، التي ابتكرها فرويد للوصول إلى الصراعات والعواطف الداخلية، تحليل الأحلام، الذي كان فرويد أول من توصَّل إليه فقبل عصره اعتبرت الأحلام بدون معنى أو هدف. كان كتابه «تفسير الأحلام» أول محاولة لدراسة عملية جديدة لهذه الظاهرة. وقد أبدى فرويد ملاحظته بعد نشر ذلك الكتاب بإحدى وثلاثين سنة، «بأنه يتضمَّن، حتى بعد حكمي في هذا اليوم الحاضر، أعظم الاكتشافات التي ساعده الحظ في إيجادها، وأكثرها قيمة.» وتبعًا لفرويد: «يحق لنا أن نؤكد أن الحلم هو الإنجاز المستمر لرغبة مكتوبةٍ.» يمثل كل حلم دراما في العالم الداخلي «فالأحلام دائمًا نتيجة صراع.» وقال فرويد: و«الحلم هو حارس النوم.» ووظيفته مساعدة النوم، لا إزعاجه فيطلق سراح التوترات الناتجة عن رغباتٍ لا يمكن تحقيقها.

عالم الأحلام، حسب رأي فرويد، واقع تحت سيطرة العقل غير الواعي بالوحدة الوراثية (الأيد). والأحلام هامة لأخصائي التحليل النفسي؛ لأنها تقوده إلى العقل غير الواعي للمريض. وتكمن في العقل اللاواعي جميع الرغبات البدائية والرغبات العاطفية المكبوتة من الحياة الواعية بواسطة الذات والذات السامية. والرغبات البهيمية موجودةٌ دائمًا تحت السطح، وتدفع نفسها إلى الظهور في الأحلام، وحتى في النوم، تقف كل من الذات والذات السامية، في موقف الحراسة كرقيبتين. لهذا السبب كانت معاني الأحلام غير واضحةٍ دائمًا، وإنما يكون التعبير عنها في صورة رموز تحتاج إلى خبير يفسرها. وكرموز لا يمكن أخذها حرفيًّا إلا بالطبع في الأحلام البسيطة للأطفال. ويحتوي كتاب «تفسير الأحلام» عدة أمثلة حللها فرويد تحليلًا نفسيًّا.

ومن الأعمال التعبيرية للعقل اللاواعي، أخطاء التهجمي وزلات اللسان، وحيل شاردي الذهن. ويقول فرويد «بنفس الطريقة ينتفع أخصائي التحليل النفسي من تفسير الأحلام، كما ينتفع من الزلات البسيطة الكثيرة والأخطاء التي يقوم بها الناس — التي يطلق عليها اسم أفعال عارضة.» في سنة ١٩٠٤م، فحص فرويد ذلك الموضوع في كتابه «العلاج النفسي للحياة اليومية». يقرر في ذلك المؤلَّف، و«ليست هذه الظواهر وليدة الصدفة ... فلها معنى ويمكن تفسيرها. ويقنع المرء بأن يستخلص منها وجود انفعالات ونوايا مكبوتة.» فنسيان المرء لاسمٍ ما: معناه أنه يكره الشخص المسمى بذلك الاسم. وعندما يفوت القطار شخصًا بسبب التباس في جدول المواعيد، فقد يدل ذلك على أنه لا يرغب في ركوبه. والزوج الذي يفقد مفتاح بيته أو ينساه، قد يكون غير سعيدٍ في بيته ولا يرغب في العودة إليه. يمكن لدراسة مثل هذه الهفوات أن تقود أخصائي التحليل النفسي إلى متاهات العقل اللاواعي.

يمكن الحصول على نفس المنطلق من النكات التي سمَّاها فرويد «خير صمام أمن أنتجه الإنسان العصري.» إذ من خلالها نتحرَّر مؤقتًا من حالات الكبت التي يريدنا المجتمع المؤدب أن نخفيها.

ربما كان بسبب إحساسٍ محذر سابق، أو تخلص من الأوهام متزايد، أو منتهى التشاؤم، أن صار فرويد في أواخر أيام حياته مشغولًا «بغريزة الموت». انتهى به الأمر إلى اعتبار هذه الفكرة على قدم المساواة في الأهمية مع «الغريزة الجنسية» فقرر فرويد أن هناك غريزة موت تسوق جميع المواد الحية إلى العودة إلى الحالة غير العضوية التي جاءت منها. وتبعًا لهذا الرأي تتجاذب المرء باستمرار قوتان؛ قوة الحث على الحياة وهي الغريزة الجنسية، وقوة مضادة أخرى هي الحث على الهلاك أو الإبادة، وهي غريزة الموت. وبطبيعة الحال، تتغلب في النهاية غريزة الموت. وهذه الغريزة هي المسئولة عن الحرب وعن أنواع السادية كالتعصب ضد الأجناس والطبقات والمتعة الشديدة في المحاكمات الإجرامية ومصارعة الثيران، والإعدام بدون محاكمة.

وبالاختصار، كل ما سبق ذكره هو النقط الرئيسية في نظرية فرويد. وقد انقسم علماء النفس اليوم إلى معسكرين أو ثلاثة معسكرات متعارضة، يؤيد البعض فرويد، ويعارضه بعض آخر. وحتى تلاميذه، عَدَّلوا قبولهم المطلق لنظرياته في الخمسين سنة الماضية، وها هو ألفريد أدلر Alfred Adler، أحد أتباعه المبكرين، ينشقُّ عن المعسكر الفرويدي لاعتقاده أن فرويد أكد الغرائز الجنسية أكثر من اللازم. وكمذهب بديل، أخذ

أدلر يعلم أن رغبة كل إنسان في إثبات تفوقه هي الينبوع الأساسي في السلوك البشري. وقد أنشأ فكرة «مركب النقص» الذي يضطر الفرد إلى النضال لإبراز نفسه في نشاط ما. ومن مشاهير المنشقين الآخرين: كارل جونج Karl Jung أحد مواطني مدينة زيوريخ، الذي حاول أيضًا أن يُقلل من دور الجنس، قسَّم جونج البشرية إلى نوعين نفسانيين؛ أحدهما مقلوب من الداخل إلى الخارج، والثاني مقلوب من الظاهر إلى الباطن، ولو أنه أدرك أن كل فرد خليط من النوعين وعلى نقيض فرويد، أكد جونج عوامل الوراثة في تكوين الشخصية. وعلى العموم، فإن نقَّاد فرويد يخالفونه في بعض النقاط، مثل إصراره على الأهمية الأولى للاضطرابات النفسية في عهد الطفولة، واتهامه الناس بأن تتحكم فيهم الغرائز البدائية الصارمة، وعلى تصعيده الشهوة الجنسية إلى مركز رئيسي في تكوين الشخصية. كذلك يخالفه البعض في اعتقاده أن التسلسل الحر للأفكار طريقة لا تخطئ لارتياد العقل الباطن، مبرزين، بنوع خاص، صعوبة تفسير المعلومات الناتجة عن هذه الطريقة.

ومع ذلك، فكما لاحظ أحد علماء النفس:

«لم تقلل التغيرات ولا التطورات التي حدثت في خلال ستين عامًا، بحال ما، من مركز فرويد أو نفوذه. لقد فتح مملكة العقل الباطن، وأبان كيف أنه يساعد في جعلنا على ما نحن عليه، وكيف نصل إلى ذلك. وكان لا بد لكثير من آرائه واستنتاجاته من أن يعدلها من يأتي بعده في ضوء المزيد من التجارب. ويمكنك أن تقول إن خلفه كانوا يكتبون «عهدًا جديدًا» في طب الأمراض العقلية، ولكن سيجموند فرويد كتب «العهد القديم» وسيظلُّ عمله أساسًا في ذلك المجال.»

إنَّا ندين لفرويد بالكثير من نظرتنا الحديثة إلى الجنون. وهناك ميل متزايد إلى تقرير أن «مرضى الاضطرابات العقلية مثلنا، بل وأكثر من كونهم مثلنا.» وقد أكد ألكسندر رايد مارتين Alexander Reid Martin، أنه: «سواء أعلن أو لم يعلن، فإن جميع مستشفيات الأمراض العقلية والأمراض النفسية. تستخدم عناصر علم النفس الفرويدي ونظرياته الأساسية. وما كان يعتبر من قبل عالمًا غير معروف ومخيفًا وغامضًا وعديم الهدف وبلا معنى، أصبح عن طريق فرويد عالمًا نيرًا وزاخرًا بالمعاني وجذابًا وممتعًا ومعترفًا به، ليس في الطب فحسب، بل وفي جميع العلوم الاجتماعية.»

لوحظ أثر الفكر الفرويدي على الأدب والفن بنفس القدر. ففي عالم الخيال والشعر والدراما وغيرها من الصور الأدبية الأخرى، ازدهرت آراء فرويد في السنوات الحديثة. وقد أبدى برنار دي فوتو Bernard de Voto رأيه بقوله: «ما من عالم طبيعي آخر كان له

على الأدب مثل ذلك الأثر القوي والواسع الانتشار.» فلم يكن أثره أقل عمقًا على التصوير والنحت وعالم الفن عمومًا.

من الصعب إحصاء ما أسهمت به عبقرية فرويد في معارفنا من نظريات وآراء متعددة النواحي، وذلك بسبب اتساع مجالاته المتعبة الشاقة وطبيعة اكتشافاته المتعددة الاتجاهات. وقد قام الكاتب الإنجليزي روبرت هاملتون Robert Hamilton بمحاولة، فاستنتج ما يأتي:

«وضع فرويد علم النفس في الخريطة. كان عالمًا مكتشفًا عظيمًا، ويُعزى الكثير من نجاحه إلى طرافته وأسلوبه الأدبي. ورغم كون طريقته لا تعتمد على شيء ملموسٍ، فما من طريقة خارج الأدب البحت كانت أكثر إمتاعًا وطرافة وذات أسلوب جذاب. لقد جعل العالم يفكر نفسيًّا — وهذه ضرورةٌ أساسية لعصرنا، وأجبر الناس على أن يسألوا أنفسهم أسئلةً حيوية لصالحهم البشري. فمن قضايا علم النفس الأكاديمي العقيم للقرن التاسع عشر، أنتج النظريات المضادة في التحليل النفسي بسلبياتها المظلمة.»

تناول أحد مشاهير الطب النفسي الأمريكيين، وهو فريدريك ورثام Frederic Wertham، من وجهة نظر أخرى، فكتب يقول:

«يجب على المرء أن يوضح أنه زيادة على الكثير من الحقائق الإكلينيكية الجديدة عن المرضى الذين لاحظهم فرويد، فإنه أحدث ثلاثة تغييرات في التمهيد لدراسة الشخصية والعلاج العقلي. أولها الكلام عن العمليات السيكولوجية جميعًا، والتفكير فيها بمنطق العلوم الطبيعية. لم يكن هذا ممكنًا إلا عندما قدم فرويد الفكرة الواقعية عن العقل الباطن والطرق العملية لفحصه. وثانيها تقديمه لبعد جديد للعلاج السيكولوجي: الطفولة، قبل فرويد مارسوا طب الأمراض العقلية كما لو كان كل مريض هو آدم — الذي لم يكن طفلًا قط. وثالثها هو افتتاح الفهم النوعي للغريزة الجنسية. كان الاكتشاف الجديد هنا، هو أنه ليس للأطفال حياة جنسية وإنما للغريزة الجنسية طفولة.»

أصدر أ. أو. تانسلي A. O. Tansley حكمًا مماثلًا آخر، في تقرير عن موت شخص أُعدَّ للجمعية الملكية بلندن:

«تغدو الطبيعة الثورية لاستنتاجات فرويد عندما نتذكر أنه كان يفحص مجالًا لم يرتده أحدٌ قبله إطلاقًا، وهو منطقه من العقل البشري لم ينفذ إليها أحد من قبل، واعتبرت مظاهرها الواضحة غير قابلةٍ للتفسير، أو أنها انحرافات فاسدة، أو تجاهلها العلماء لأنها تقع تحت أقوى المحرمات البشرية. ولم يدرك مجرد وجود هذا المجال — فاضطر فرويد

إلى فرض حقيقة وجود منطقة لا واعية بالعقل، ثم محاولة ارتيادها بالتفكك الواضح في سلسلة الأحداث العقلية الواعية.»

وأخيرًا قررت وينفريد أوفر هولستر Winfred Overholster أنه: «هناك سبب قويٌّ للاعتقاد بأنه بعد مائة عام منذ الآن، سيعتبر فرويد في مصاف كوبرنيكوس ونيوتن، كأحد الرجال الذين فتحوا أفقًا جديدًا من آفاق الفكر. فمن المؤكد أنه في عصرنا هذا، لم يُلقِ أحدٌ ضوءًا على أعماق عقل الإنسان، كما فعل فرويد.»

قضى فرويد آخر شهور حياته في المنفى. فبعد احتلال النازي للنمسا، اضطر إلى مغادرة فيينا في سنة ١٩٣٨م، فمنحته إنجلترا حق اللجوء، ولكن سرطان الفم تسبب في موته في سبتمبر ١٩٣٩م، بعد ذلك بأكثر قليلًا من سنة.

الفصل السادس عشر

شبين العصر الذري: ألبرت أينشتين[1]

النسبية: نظرياتها الخاصة والعامة

كان ألبرت أينشتين أحد الأشخاص النادرين في التاريخ؛ إذ نجح في أن يصير أسطورة نسب بطولية إبَّان حياته. فكلما بدت آراؤه غامضة على العلمانيين من الشعب، زادت غرابتها وزادت رؤيته يتكلم من علو أوليمبي بعيد. وكما لاحظ برتراند راسل Bertrand Russel بحق: «يعرف كل شخص أن أينشتين قد فعل شيئًا مدهشًا، بينما يعرف القليلون بالضبط ذلك الذي فعله.» ولكي نعلم، ولو بصفة غير دقيقة، أنه قلما يوجد عشرة أشخاص في العالم كله يفهمون تمامًا نظريات أينشتين عن الكون، التي تتحدى وتخدع الألوف إن لم يكن الملايين الذين يحاولون فهم ما يقوله ساحر الرياضيات العظيم ذاك.

يبدأ عدم قابلية فهم نظريات أينشتين من الطبيعة المعقدة والخارقة لمجال عمله. وذكر ت. إ. بريدجز T. E. Bridges، أن عالمًا إنجليزيًّا غير معروف الاسم وصف الموقف كما يلي:

«يتناول مذهب أينشتين هذا النسبةَ بين الأحداث الطبيعية والرياضية، إذن فلا يمكن شرحها إلا بمصطلحات رياضية. ومن المستحيل تقديمها بأية صورة أخرى يمكن أن يفهمها أولئك الذين لا يلمُّون بالجبر إلمامًا متقدمًا.»

---

[1] Albert Einstein.

ويعبر جورج و. جراي George w. Gray بوجهة نظر مشابهة فيقول:

«بما أن مؤلف النظرية النسبية، قدمها بلغةٍ رياضية. وإذا أردنا الدقة في التعبير، فلا يمكن التعبير عنها بطريقة غير تلك، فإن هناك زعمًا معينًا في كل محاولة لترجمتها إلى اللغة الدارجة، كما تمكن محاولة ترجمة السيمفونية الخامسة لبيتهوفن Beethoven على السكسية Saxophone.»

ومع ذلك، فربما أمكن اقتراح بعض مظاهر معينة من عالم أينشتين دون الالتجاء إلى الرموز الرياضية. ويا له من عالمٍ خياليٍّ يقلب رأسًا على عقب تلك الأفكار التي ظلَّت معترفًا بها لعدة قرون، «وهذا عصيد غريب يطلب من الرجل العامي أن يهضمه.» فمثلًا يطلب منَّا أن نعترف بأفكار لا يمكن تصديقها، مثل: الفضاء مقوس، وأقرب بُعد بين نقطتين ليس خطًّا مستقيمًا، والكون محدود ولكن بغير حدود، والخطوط المتوازية تتلاقى أخيرًا، والأشعة الضوئية تسير في خطوطٍ منحنية، والزمن نسبي ولا يمكن قياسه بطريقة واحدة في كل مكان، وإن قياس الأطوال يختلف باختلاف السرعة، وإن الأرض أسطوانية الشكل وليست كروية، والجسم المتحرك ينكمش حجمًا، ولكن كتلته تزيد، وإن هناك بعدًا رابعًا هو الزمن، علاوة على الأبعاد الثلاثة المألوفة وهي الطول والعرض والارتفاع.

رغم أن أينشتين قد أسهم بنظريات لا تُحصى في الرياضيات، فإن شهرته تستند أولًا وقبل كل شيءٍ على نظرية النسبية. وهذا عمل جعل بانيش هوفمان Banest Hoffman يستنتج أن له «صفة أثرية وضعت مؤلفه بحق بين عظماء العلماء في جميع العصور، في الصحبة المختارة لإسحاق نيوتن وأرشميدس. أطلقت هذه النظرية بمتناقضاتها المذهلة ونجاحها الظاهر، أطلقت مخيلة الجمهور.»

بدأت ثورة أينشتين في سنة ١٩٠٥م، فظهرت في صحيفة ألمانية عنوانها «التقويم السنوي لعلم الطبيعة Annalen der physik» في ثلاثين صفحة تحمل العنوان غير المثير «عن الديناميكا الكهربية للأجسام المتحركة». وكان أينشتين وقتذاك في السادسة والعشرين من عمره، يعمل موظفًا بسيطًا في إدارة تسجيل المخترعات السويسرية. وُلد في أسرة يهودية من الطبقة المتوسطة بمدينة أولم Ulm في بافاريا، سنة ١٨٧٩م. وعندما كان تلميذًا، لم يكن يجيد شيئًا من الدروس غير الرياضيات، ذلك المجال الذي أبدى فيه دليلًا مبكرًا على النبوغ. ولما ساءت الحالة المالية لأسرته، اضطر إلى أن يعول نفسه بنفسه وهو في الخامسة عشرة، فهاجر إلى سويسرا حيث استطاع الاستمرار في دراسته العلمية بأكاديمية الفنون التكنولوجية في زيوريخ Zurich وتزوج من زميلة له في الأكاديمية

وصار مواطنًا سويسريًّا. ولما ضنَّ عليه بما كان يصبو إليه وهو أن يكون أستاذًا جامعيًّا، ولكي يكسب عيشه استقر في عمل يقوم فيه بعمل التقارير الأولية وتسجيل طلبات المخترعين لتسجيل اختراعاتهم. وكان يشغل وقت فراغه من العمل في دراسة مؤلفات الفلاسفة وعلماء الطبيعة والرياضيات. وسرعان ما استعد لإخراج طوفان من الأفكار الطريفة في الفيزياء، وقدر له أن يلقى ردود فعل بعيدة المدى.

قدم أينشتين في صحيفته لسنة ١٩٠٥م، النظرية الخاصة للنسبية متحديًا أفكار الإنسان السائدة عن الزمن وعن الفضاء وعن المادة والطاقة. وضعت أسس هذه النظرية في موضعَيْن أساسيَّيْن؛ الأول هو نظرية النسبية القائلة بأن جميع الحركات نسبية. وهناك مثل مألوفٌ لهذه النظرية في القطار المتحرك أو السفينة المتحركة؛ فالشخص الجالس في قطار ذي نوافذ مغطاة بأغطية قاتمة، وبه قليل من الضوضاء، لا تكون عنده أية فكرة عن السرعة، ولا عن اتجاه سير القطار، وقد لا يشعر إطلاقًا بأن القطار يتحرك. والشخص الموجود في سفينة مقفلة النوافذ، يكون في نفس الموقف. لا نشعر بالحركة إلا بمصطلحات نسبية أي بالنسبة لأجسام أخرى، وعلى نطاق أوسع، فإن الحركة الأمامية للأرض لا يمكن الإحساس بها إن لم يكن هناك أجرام سماوية لعمل مقارنة.

أما الفرض الثاني لأينشتين فهو أن سرعة الضوء مستقلةٌ عن حركة مصدره؛ فسرعة الضوء البالغة ١٨٦٠٠٠ ميل/في الثانية ثابتة دائمًا في أي مكان على سطح الأرض ولا تتأثر بالمكان أو الزمن أو الاتجاه. فمثلًا في قطار متحرك يسير الضوء بنفس السرعة تمامًا التي يسير بها خارج القطار، وما من قوةٍ تؤثر عليه فتجعله أسرع أو أبطأ. وزيادة على ذلك، ما من شيءٍ يسير بسرعة أكبر من سرعة الضوء رغم أن الإلكترونات تقترب كثيرًا من هذه السرعة. والواقع أن الضوء هو العامل الوحيد الثابت وغير المتغير في الطبيعة كلها.

قام العالمان الأمريكيان ميتشيلسون Michelson ومورلي Morley في سنة ١٨٨٧م بتجربتهما الشهيرة التي وضعت أساس نظرية أينشتين عن الضوء، وبُني جهاز بالغ الدقة لقياس سرعة الضوء بدرجةٍ عالية من الدقة. وُضعت أنبوبتان طول كلٍّ منهما ميل، متعامدتَيْن. إحداهما موضوعة في اتجاه دوران الأرض حول الشمس، والثانية في عكس اتجاه حركة الأرض ووضعت مرآة عند نهاية كل أنبوبة، وأطلق شعاع ضوئي في كلتا الأنبوبتين في وقت واحد. ولما كان الأثير غير المرئي يملأ كل فضاءٍ لا تشغله أجسام صلبة، فإن أحد الشعاعين الضوئيين يشبه سبَّاحًا يعوم ضد التيار، بينما يقارن الشعاع الآخر

بسباح آخر يعوم في اتجاه التيار، ولدهشة وذهول العالمين ارتدَّ الشعاعان معًا في نفس اللحظة؛ فاعتبرت هذه التجربة فاشلة.

أجابت صحيفة أينشتين في سنة ١٩٠٥م على السؤال الذي حيَّر ميتشيلسون ومورلي وزملاءهما من علماء الطبيعة. لم يعمل حساب وجود الأثير، والواقع أن الأنبوبتين قاستا سرعة الضوء قياسًا صحيحًا، والنقطة التي استنتجها أينشتين هي أن الضوء يسير دائمًا بنفس السرعة، مهما تكن الظروف التي يُقاس فيها. ولا تؤثر حركة الأرض بالنسبة إلى الشمس، على سرعة الضوء.

وعلى عكس تعاليم نيوتن، أكثر أينشتين أنه ليس هناك شيء يسمى «حركة مطلقة»، وأن فكرة الحركة المطلقة لجسم في الفضاء عديمة المعنى؛ فالحركة هي الحالة الطبيعية لجميع الأشياء. لا يوجد في أي مكان على سطح الأرض أو في الكون شيء ما في حالة سكون تامٍّ أو سكون مطلق؛ فالحركة مستمرة في جميع أنحاء عالمنا غير الساكن، من الذرة المتناهية في الصغر إلى أضخم مجرة سماوية. فمثلًا تدور الأرض حول الشمس بسرعة ٢٠ ميل/في الثانية. وفي عالم يتحرك فيه كل شيء وليس به نقط ثابتة للمقارنة، لا توجد أية معايير ثابتة لمقارنة السرعات والطول والحجم والكتلة والزمن إلا عندما تقاس بحركاتها النسبية. أما الضوء وحده فهو غير النسبي، وسرعته ثابتة لا تتغير بغض النظر عن مصدره أو موقع المبصر، كما أثبتت تجربة ميتشيلسون ومورلي.

ولا شك في أن أضعف أفكار أينشتين كلها فهمًا وأكثرها عدم قلب للمعتقدات الموروثة، هو نسبية الزمن. فيقرر أينشتين أن الأحداث الحاصلة في أماكن مختلفة وفي لحظة واحدة لمبصرٍ واحد، ليست حادثة في نفس اللحظة لمبصر آخر يتحرك نسبيًّا للأول. فمثلًا إذا حكم بأن حادثين وقعا معًا في وقتٍ واحدٍ لمبصر على الأرض وآخر في قطار أو في طائرة، فالحقيقة أنهما لم يقعا في نفس اللحظة؛ فالزمن نسبيٌّ لمركز المبصر وسرعته وليس مطلقًا. وبتطبيق هذه النظرية على الكون، فإن حادثًا وقع على نجم بعيد، كانفجار مثلًا، وشاهده أحد سكان الأرض، فإن ذلك الانفجار لم يحدث في نفس الوقت الذي شوهد فيه على الأرض، بل على العكس، رغم أن سرعة الضوء ١٨٦٠٠٠ ميل/ثانية، فإن حدثًا وقع على نجم بعيد جدًّا، قد يكون حدث قبل وصول خبره إلى الأرض بسنوات. والنجم الذي يرى اليوم هو بلا شك نفس النجم الذي رؤي منذ زمن بعيد، مع أنه ربما لم يعد له وجود في لحظة الرصد.

إذا أمكن أن نتصور إنسانًا يكتسب سرعةً أعظم من سرعة الضوء، فبحسب نظرية النسبية يمكنه أن يسبق ماضيه ويتم مولده في المستقبل. لكل كوكبٍ نظامه الخاص

للزمن، يختلف عن جداول الزمن الموجودة في كل مكان. فاليوم على كوكبنا هو مجرد فترة دوران الأرض حول محورها. ولما كان كوكب المشتري يستغرق وقتًا أطول في دورانه حول الشمس عما تستغرقه الأرض، فإن السنة على سطح المشتري أطول من السنة على سطح الأرض عندما تزيد السرعة يبطئ الزمن. لقد تعودنا التفكير في أن كل جسمٍ له ثلاثة أبعاد في الفضاء وأن الفضاء بُعْد للزمن ولا يمكن أن يوجد أيٌّ من الزمن والفضاء بدون الآخر؛ ولذا فكلٌّ منهما معتمد على الآخر، ولَمَّا كانت الحركة والتغير مستمرَّيْن فإننا نعيش في كونٍ ذي أربعة أبعاد، البعد الرابع فيه هو الزمن.

وهكذا يكون التمهيدان الأساسيان لنظرية أينشتين كما قدمها منذ نصف قرن قبل ذلك، هما نسبية جميع الحركات، وفكرة الضوء على أنه الكمية الوحيدة غير المتغيرة في العالم كله.

لما أخذ أينشتين يُطور نظرية نسبية الحركة هدم اعتقادًا راسخًا تمامًا. فقبلًا، كان الطول والكتلة معتبرين مطلقين وثابتين تحت كل الظروف الممكن التفكير فيها. فجاء أينشتين يقرِّر أن كتلة الجسم أو وزنه وطوله يتوقَّفان على سرعة تحرُّك الجسم. فمثلًا: تخيل قطارًا طوله ١٠٠٠ قدم يسير بسرعةٍ تعادل ٤ / ٥ سرعة الضوء، فالمبصر الواقف مكانه وهو يلاحظ القطار فيتراءى له طوله ٦٠٠ قدم فحسب، ولو أنه يظل ١٠٠٠ قدم لراكب فيه. وبالمثل أي جسم ماديٍّ يتحرك في الفضاء ينكمش تبعًا لسرعته. فإذا قذفت عصًا طولها ياردة، في الفضاء بسرعة ١٦١٠٠٠ ميل/ثانية، ينكمش طولها نصف ياردة؛ فلدوران الأرض ذلك الأثر الغريب في إقلال محيطها بحوالي ثلاث بوصات.

وكذلك الكتلة متغيرة؛ فبينما تزيد السرعة، تغدو كتلة الجسم أكبر. ولقد أوضحت التجارب أن جزيئات المادة إذا حركت بسرعة ٨٦٪ من سرعة الضوء تزن ضعف وزنها وهي في حالة السكون. لهذه الحقيقة علاقات كبيرة بتطوُّر الطاقة الذرية.

تُعْرَف نظرية أينشتين الأصلية لسنة ١٩٠٥م بالنظرية الخاصة للنسبية؛ لأن استنتاجاتها تقتصر على الحركة المنتظمة في خط مستقيم ولا تختص بالأنواع الأخرى للحركة. وفي عالمنا، قلما تتحرك النجوم والكواكب والأجرام السماوية الأخرى حركة منتظمة في خط مستقيم؛ ولذا فإن أية نظرية لا تتضمن جميع صور الحركة، لا تقدم وصفًا كاملًا للكون. وبناءً على ذلك كانت خطوة أينشتين التالية هي صياغة نظريته العامة للنسبية، وهي عملية استغرقت عشر سنوات من التطبيق العنيف. درس أينشتين في النظرية العامة للنسبية، تلك القوة الغامضة التي تقود حركات النجوم والمذنبات والشهب والمجرات وكافة الأجسام السماوية الأخرى التي تدور حول الكون الشاسع.

تقدم أينشتين في نظريته العامة للنسبية التي نشرها عام ١٩١٥م، بفكرةٍ جديدة عن الجاذبية محدثًا تغييرات جوهرية في فكرتي الجاذبية والضوء اللتين حظيتا بالقبول العام منذ عهد السير إسحاق نيوتن. اعتبر نيوتن الجاذبية «قوة»، ولكن أينشتين أثبت أن الفضاء حول كوكب ما أو جسم سماوي آخر، مجال جاذبي يشبه المجال المغناطيسي طول المغناطيس؛ فالأجسام البالغة الضخامة مثل الشمس والنجوم، يحيط بها مجال جاذبية بالغة القوة. وهكذا فسرت جاذبية الأرض للقمر. كذلك فسرت هذه النظرية الحركات الخطأ لعطارد وهو أقرب الكواكب إلى الشمس، تلك الظاهرة التي حيرت علماء الفلك لعدة قرون ولم يتناولها قانون نيوتن للجاذبية بالدراسة الملائمة. إن المجالات الجاذبية عظيمة القوة لدرجة أنها تحني أشعة الضوء. وفي سنة ١٩١٩م، أي بعد بضع سنوات من إعلان النظرية العامة لأينشتين، التقط المصورون صورًا ضوئية لكسوف كامل للشمس أثبتت بصفة نهائية صحة نظرية أينشتين القائلة بأن أشعة الضوء المخترقة لمجال الجاذبية الشمسية، تسير في خطوط منحنية وليس في خطوط مستقيمة.

نتج عن هذا التمهيد حقيقة تقدم بها أينشتين، تقول إن الفضاء مقوس؛ فالكواكب السيارة تتبع أقصر الطرق الممكنة متأثرة بوجود الشمس، بنفس الطريقة التي يتبعها النهر في جريانه نحو البحر متخذًا سيره في الأرض في أسهل طريق طبيعي. وفي طريقة حسابنا الأرضية للأشياء، فإن السفينة أو الطائرة التي تعبر المحيط، تتبع خطًّا منحنيًا، أي قوسًا من دائرة، ولا تسير في خط مستقيم؛ لذا كان من الجلي أن أقرب مسافة بين القطبين خط منحن وليس الخط المستقيم. وتحكم قاعدة مماثلة حركات الكواكب والأشعة الضوئية.

إذا قبلنا نظرية أينشتين عن الفضاء المنحني كان الاستنتاج المنطقي هو أن الفضاء محدود. فمثلًا إذا خرج شعاع ضوئيٌّ من نجم ما، فإنه يعود أخيرًا بعد مئات الملايين من السنين، إلى نفس النقطة التي خرج منها، مثله في ذلك مثل السائح الذي يدور حول الأرض. لا يمتد الكون في الفضاء إلى ما لا نهاية، ولكن له حدودًا، ولو أنه لا يمكن تحديد تلك الحدود.

من بين جميع الاكتشافات العلمية العظيمة التي قام بها أينشتين، كان لأفكاره عن النظرية الذرية أعظم أثر عميقٍ مباشر على عالم اليوم. فبعد قليل من نشر مقاله الأول عن النسبية، التي نشرت في صحيفة «التقويم السنوي للفيزياء»، حملت نفس الصحيفة مقالًا قصيرًا لأينشتين يُطيل فيه نظريته إلى أبعد مما كانت عليه. كان عنوان ذلك المقال

«هل يتوقف القصور الذاتي لجسم ما على طاقته؟» أكد أينشتين أنه من الممكن استخدام الطاقة الذرية — ولو نظريًّا على الأقل. ويمكن إطلاق هذه الطاقة تبعًا لقانون صاغه أينشتين، وهو أشهر معادلة في التاريخ كله: ط = ك ع٢ أي إن الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء. فإذا أمكن استخدام الطاقة الموجودة في نصف رطل من أية مادة أطلقت، حسب تقرير أينشتين، قوة تعادل قوة انفجار سبعة ملايين طن من المادة المتفجرة T.N.T. وكما أشار أحد المعلقين: «لولا معادلة أينشتين لتعثر العلماء في تجاربهم على تفتيت اليورانيوم، ولكن من المشكوك فيه أنهم أدركوا أهميتها في وحدات الطاقة أو وحدات من القنابل.»

برهن أينشتين في معادلته الشهيرة ط = ك ع٢ على أن الطاقة والكتلة هما نفس الشيء ولا يختلفان إلا في الحالة فقط. والواقع أن الكتلة طاقة مركَّزة وكتب بارنيت Barnett في تقدير وليد الذكاء، كتب يقول: «تجيب هذه المعادلة على كثير من ألغاز علم الفيزياء التي ظلت غامضةً منذ أمدٍ بعيد؛ فهي تفسر كيف تستطيع المواد المشعة كالراديوم واليورانيوم، إطلاق ذرات ذوات سرعة هائلة، وتستمر في إطلاقها لملايين السنين. وهذا يفسر بدروه، كيف أن الشمس وجميع النجوم تستطيع إرسال الضوء والحرارة لبلايين السنين؛ لأنه إذا فنيت شمسنا بعمليات الاحتراق العادية لماتَت الأرض متجمدةً بردًا وظلامًا منذ آمادٍ بعيدة. إنها تكشف مقدار الطاقة الكامنة في نواة الخلية، وتبيِّن عدد جرامات مادة اليورانيوم اللازم وجودها في قنبلة لكي يصبح في مقدروها أن تدمر مدينة.»

ظلَّت معادلة أينشتين نظرية حتى سنة ١٩٣٩م؛ إذ غدا مؤلفها مواطنًا في الولايات المتحدة الأمريكية إذ طرده النازيون من أوروبا. وإذ علم أينشتين أن الألمان يستوردون اليورانيوم ويقومون بأبحاث لصنع قنبلة ذرية، كتب خطابًا بالغ السرية للرئيس روزفلت Roosevelt.

«وصلتني نسخ خطية عن أبحاث حديثة يقوم بها كلٌّ من إ. فيرمي E. Fermi ول. سزيلارد L. Szilard تجعلني أتوقَّع أن عنصر اليورانيوم يمكن أن يتحول إلى مصدر جديد هام للطاقة في المستقبل القريب العاجل … كما تؤدي هذه الظاهرة الجديدة إلى صنع القنابل، ومن المفهوم … أن … قنبلة واحدة من هذا النوع، إذا حملتها سفينة وفجرتها في ميناء، أمكنها تدمير ذلك الميناء كله ومعه بعض الأراضي المحيطة به.»

كانت النتيجة المباشرة لخطاب أينشتين إلى روزفلت، أن بدأ مشروع صنع قنبلة مانهاتان Manhattan الذرية. وبعد ذلك بحوالي خمس سنوات فجرت أول قنبلة الماجوردو Almagordo بولاية نيو مكسيكو New Mexico. وبعدها بمدة وجيزةٍ حدث التدمير الذريع الذي أحدثته قنبلة ذرية أسقطت فوق هيروشيما Hiroshima، وكانت السبب في سرعة إنهاء الحرب مع اليابان.

رغم أن القنبلة الذرية كانت أبرز التطبيقات العملية لنظريات أينشتين، فإن الذي وطَّد شهرته، هو إنجاز شهير آخر. فمع نظريته الخاصة عن النسبية لسنة ١٩٠٥م، كان هناك قانونه الضوئي الكهربي photo electric، الذي يُفسر الأثر الضوئي الكهربي الغامض الذي مهَّد الطريق لمجيء التليفزيون والسينما الناطقة و«العين الكهربية» المعروفة بالعين السحرية التي لقيت استعمالات شتى في كثير من المجالات. وبسبب هذا الاكتشاف مُنِح أينشتين جائزة نوبل في الفيزياء لسنة ١٩٢٢م.

دأب أينشتين في أواخر سِنِي حياته على العمل بجد وبغير كلل لتأليف النظرية المعروفة بنظرية المجال الموحد، محاولًا البرهنة على انسجام وانتظام الطبيعة. وتبعًا لرأيه، يجب تطبيق القوانين الطبيعية للذرة الدقيقة على الأجسام السماوية الضخمة، فإن نظرية المجال الموحد تدمج كافة الظواهر الطبيعية في قاعدةٍ واحدة؛ فالجاذبية والكهرباء والمغناطيسية والطاقة الذرية كلها قوى تشملها نظرية واحدة. وفي سنة ١٩٥٠م، بعد أبحاث دامت أكثر من جيل، قدم أينشتين هذه النظرية للعالم، وعبر عن اعتقاده بأن مفتاح الكون في هذه النظرية؛ إذ تجمع في فكرة واحدة بين لا نهائية الصفر، وعالم الذرة الدوار، واتساع مدى الفضاء المليء بالنجوم. وبسبب الصعوبات الرياضية، لم تختبر هذه النظرية تمامًا تبعًا للحقائق الثابتة في علم الفيزياء. ومع ذلك، فقد كان لدى أينشتين اعتقاد راسخٌ بأن نظريته عن المجال الموحد ستقدم في وقت ما تفسيرًا «للصفة الذرية للطاقة» وتبرهن على وجود عالم جيد التنظيم.

شرح أينشتين الفلسفة التي أوحت إليه وقادَتْه خلال عشرات السنين من المجهود الذهني العنيف، وما نتج عن ذلك من نتائج أثابته على كل هذه الجهود. شرح تلك الفلسفة في محاضرة عن أسس النظرية العامة للنسبية. ألقاها في جامعة جلاسجو سنة ١٩٣٣م، قال فيها:

«تكاد النتائج الأخيرة تبدو بسيطةً، فإن أي طالبٍ جامعيٍّ ذكي يستطيع فهمها دون عناء كبير، ولكن سنوات البحث في الظلام عن حقيقة يشعر بها الإنسان ولا يمكنه

التعبير عنها، والرغبة الشديدة وتبادل الثقة والشك حتى يشق المرء طريقه إلى الوضوح فالفهم، لا يعرف كل هذه، إلا من مارسها بنفسه.»

وفي مناسبةٍ أخرى، قدَّم أينشتين الدليل على الناحية الروحية العميقة لطبيعته بهذا القول:

«إن أجمل وأعمق عاطفة أو انفعال يمكن أن ينتابنا هو الإحساس بدافعٍ خفي نحو وجود شيء غامض. إنه الذي يبذر بذور جميع العلوم الحقيقية. ومن كان هذا الانفعال غريبًا عليه؛ فمعرفة أن ما لا يمكننا التغلل في غوامضه موجود فعلًا ومعبر عن وجوده كأسمى حكمة وكأعظم جمال يتألق لا تستطيع مواهبنا الخاملة على فهمه إلا في صورتها المتناهية البدائية — هذه المعرفة وهذا الإحساس كامنان في وسط التدين الحقيقي.»

اعترف عددٌ لا يُحصى من العلماء بفضل أينشتين. وتبرهن بعض نصوص استعراضاته الحديثة عن مستقبله، على سيطرته الفريدة على دنيا العلوم. فكتب بول أويهزر Paul Oehser يقول:

«السيطرة كلمةٌ ضعيفة لتوصف بها أعمال ألبرت أينشتين؛ فالنظريات التي قدمها نظريات ثورية، وُلد فيها العصر الذري ولا نعرف إلى أية ناحية تقود الجنس البشري، ولكننا نعلم علم اليقين أن هذا هو أعظم عالم وفيلسوف في القرن العشرين، كاد أن يكون قديسًا في نظرنا، وقد حققت أعماله ثقتنا في العقل البشري، وهي رمز للطموح الأبدي للإنسان وطلبه الوصول إلى النجوم.»

وقال العالم بانش هوفمان Banesh Hoffman:

«لا تكمن أهمية آراء أينشتين العلمية في نجاحها العظيم فحسب، فإن أثرها السيكولوجي قويٌّ بنفس الدرجة وفي حقبة ناقدة في تاريخ العلوم، برهن أينشتين على أن الأفكار التي ظلت مقبولةً منذ أمدٍ بعيد، ليست مقدسة. وكان هذا أكثرَ من أي شيءٍ آخر هو ما حرر مخيلة الناس أمثال بوهر Bohr، ودي بروجلي de Broglie وأوحى إلى انتصاراتهم الجريئة في مملكة الجملة، فأينما أدرنا بصرنا، فإن فيزياء القرن العشرين تحمل الطابع الذي لا يطمس لعبقرية أينشتين.»


هنداوي